وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

مختارات من «أفضل ما كتب ساكي» أو هكتور هيو مونرو



آفاق ثقافية
١١٠

ترجمة: توفيق الأسدي

مختارات من
«أفضل ما كتب ساكي»

آفاق ثقافية

رئيس مجلس الإدارة

رياض عصمت

وزير الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول

محمود عبد الواحد

المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب

رئيس التحرير

د. نهاد الجرد

مختارات من

«أفضل ما كتب ساكي»

أو

هكتور هيو مونرو

ترجمة: توفيق الأسدي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢م

آفــاق ثقافيــة
العــدد (١١٠)
حزيران ٢٠١٢م

مختارات من أفضل ما كتب ساكي أو هكتور هيو مونرو/ ترجمة توفيق الأسدي .- دمشق : الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م .- ٣١٢ ص؛ ٢٠ سم.

(آفاق ثقافية؛ ١١٠)

١- ٨٩٥,٨ أ س د م ٢- العنـــوان
٣- الأسدي ٤- السلسلة

مكتبة الأسد

لمحة عن حياة ساكي

ولد ساكي (هكتور هيو مونرو) في عام ١٨٧٠ في بورما، حيث كان والده موظفاً كبيراً في الشرطة البورمية. هذا وتعزى القسوة في بعض قصصه إلى تربيته الصارمة والجائرة، منذ أن بلغ سن العامين، في منزل عمتين عانستين في ديفونشاير. وقد درس في مدراس إكسماوث ومدرسة بدفورد المتوسطة. سافر فيما بعد في جميع أنحاء أوربا مع أبيه. ثم التحق بالشرطة البورمية ولكنه استقال بسبب اعتلال صحته، وعمل صحفياً ثم بدأ بكتابة القصة القصيرة. وقد نشر العديد من المجموعات القصصية، بما في ذلك "حكايات كلوفيس" (١٩١١) و"وحوش ووحوش ضخمة" (١٩١٤). كما كتب روايتين: "باسينغتون الذي لا يطاق" (١٩١٢) و"حين حضر ويليام" (١٩١٣). ثم تطوع كجندي في عام (١٩١٤)، ورفض أن ينال رتبة ضابط، ومضى إلى فرنسا وقتل، وهو برتبة رقيب، في عام (١٩١٦). وكانت آخر كلماته، التي سمعها رفيق سلاحه في الخنادق: " أطفئ تلك السيجارة اللعينة"... وتبع ذلك صوت طلقة بندقية. وتتميز قصصه القصيرة الرائعة بإيجازها وبسواد الكوميديا التي فيها.

m

بقلم: توم شارب

منذ عصر يوم من أيام صيف عام ١٩٣٨، حين تلا السيد رايت، وهو معلم في مدرستي الإعدادية على صف من الأولاد في سن العاشرة قصة "توبرموري"، أصبحت مدمناً مصاباً بالحيرة على قراءة "ساكي". ففي ذلك الحين لم أكن أعرف ما تعنيه عبارة "ضار"، ناهيك عن ماهية "سيزيف"، ولكني لم أكن لأصدق أن القطط يمكنها أن تنطق ولم أستطع أن أفهم على أي حال أن توبرموري قال شيئاً رهيباً جداً إلى حد أنه توجب دس السم له. أما أفضل جزء من القصة حسب ظني فكانت النهاية.

لقد اتفقت من كل قلبي مع كلوفيس حين قال إنه لو كان كورنيليوس أبين يحاول أن يعلم الفيل الذي قتلته الأفعال الشاذة في اللغة الألمانية فقد استحق ما جرى له لاحقاً. من بين واجبات السيد رايت كانت محاولته أن يعلمني صيغة ablative absolute[١]

---

(١) صيغة لاتينية تستخدم حين تكون فكرة أو ظرف أو عمل مستقلة نحوياً ولكنها تعدل بقية الجملة. (المترجم) (جميع الحواشي الواردة من الآن فصاعداً للمترجم).

لا وكنت أتمنى حقاً لو أنه جرب تعليمي شيئاً عن الفيلة. وإذا ما تطلعت الآن إلى الماضي، لاستطعت أن أرى أني كنت على خطأ. كان السيد رايت رجلاً ذا بصيرة. لقد عرفني على ساكي، كما أعطاني كتاب "انحدار وسقوط" لإيفلين وو لأقرأه. ولم يكترث قط بأن يشرح لي ما كانت تعنيه كلمات شأن Feral[1]. كان يقنع بالتقديم وكان علينا نحن أن نحل الأحجيات بأنفسنا.

ومنذ ذلك الحين وساكي يحيرنـي، أنا الذي أصبحت مدمناً على عالمه الخيالي الممتع الذي ينتصر فيه الشر المبدع على الغرور، وحيث يستطيع الأطفال الشيطانيون من أمثال "فيرا"[2] أن يقنعوا شاباً كئيباً تقليدياً مضى في طريق السياسة بالروح التي قد يذهب بها أشخاص آخرون إلى ما يشبه نصف حالة حداد، يستطيعون إقناعه بأن ينفق ليلة مروعة مشاركاً خنزيراً صغيراً وديك مصارعة شهوانياً في غرفة نومه بحجة مزيفة: أن خزان المياه في برينكلي قد انفجر وأن فريقاً من الكشافة الذين انقطعت بهم السبل يحتل الحمام. كانت تلك نكتة من النوع الذي كنت أتمنى لو مارستها بنفسي. إن قصص ساكي هي على الأغلب نكات عملية مروعة. ولو كان هذا كل شيء، لكان فيه ما يكفي، ولكن هناك أكثر مما هو كوميديا بسيطة. إن ملاحظاته

---

(١) وحشي أو ضار.

(٢) قصة "الهدوء المؤقت.

عن الناس والسلوك دقيقة، كما أن ظرفه من النوع اللاذع، لذلك فإن القصص، منذ بداياتها الفجة، تتحول إلى نقد اجتماعي كما أنها تروى بأسلوب وإيجاز يفتتاننا ويجعلاننا نقبل معظم النتائج غير المحتملة. ابدأ بقراءة قصة لساكي ولسوف تنهيها. وإن انتهيت من قصة سيكون عليك أن تبدأ بأخرى، وبعد أن تنتهي من قراءتها كلها فلن تنساها قط. إنها تتبقى كنوع من الإدمان لأنها أكثر بكثير من مجرد كونها مثيرة للضحك. إنه الضحك الممزوج بحس الوحشية، والسخرية المصقولة الممزوجة بمبدأ وحدة الوجود، والإنكار الكامل للمبادئ الأخلاقية الممزوج بالمثالية، لذلك فإن النتيجة التي نخرج بها هي ذلك الشعور المقلق بأننا شاركنا في احتفاء بالغريزة الذكية والعارية. لقد تم الانقلاب على المدنية وحل محلها المافوق طبيعي. وكل هذه العبادة للغريزة تأتي إلينا على نحو أكثر قوة. إنها تبرز من خلفية للقصة هي عبارة عن حفل منزلي أو مناسبة شرب الشاي في وقت العصر وجميع التقاليد المكرسة للمجتمع الإدواردي[(١)]. اخرج عبر النوافذ ذات الطراز الفرنسي فتجد نفسك في عالم الإله "بان" وسيكون عليك، ما لم تبد الولاء، أن تدفع الثمن بحياتك إن كنت تؤمن بالتقدم المادي وفضائل الطبقة الوسطى

(١) ١٩٠١-١٩١٠.

الجديرة بالاحترام[١]. في عالم ساكي، ينتصر الحيوان الذكي، وهناك دائماً الافتراض بأنه لو تصرف البشر كالحيوانات، فإن العالم سيكون ذا نظام أكثر عقلانية. قبل وقت طويل من zootheism[٢] المعاصرة التي نادى بها لورنز وموريس، وبدون أي من الحماسة "العلمية" الخاصة بهما، كان ساكي يعرض تفضيلاً للسلوك الحيواني مع افتقار منعش إلى الروح العاطفية. إنه لمن الضروري فحسب أن نتصور ما الذي كان سيحدث لـــ "ماوغلي" لو أن ساكي كان على صلة بـــ "كتاب الأدغال"[٣]، لنرى كم كان واقعياً. وكنا لن نحظى بالتأكيد بـــ "بو"[٤]. ستبقى وحوش ساكي الفوقية حيوانات بشكل دائم، كما أن المفردات التي تستخدمها لا تشمل "الشفقة". لذلك فإنه ليس مدهشاً على الإطلاق أننا نصاب بالحيرة وبعض الانزعاج ونحن نضحك. ما تزال ذرائعنا تجاه مثل هذا النوع من الواقعية غير حصينة كما كان شأنها منذ سبعين عاماً. لقد تلقت هزيمة في هذه الأثناء ولكننا نتشبث بالاعتقاد بأننا أفضل المخلوقات جميعاً في أسوأ العوالم الممكنة كافة. تساعدنا قدرة ساكي على جعلنا نضحك على تصحيح التوازن.

---

(١) قصة "الموسيقى على التل"

(٢) عبادة الآلهة الحيوانية.

(٣) كتاب الأدغال: من تأليف رديارد كيبلينغ.

(٤) بو: شخصية الدب "ويني ذا بو" الشعبية جداً لدى الأطفال.

إن كانت القصص ذات تأثير غامض، فإن حياة ساكي تضيء إلى حد ما أصولها. فقد ولد في بورما في عام ١٨٧٠، لأب هو المفتش العام للشرطة البورمية، وقد عمّد باسم: هكتور هيو مونرو . توفيت أمه بعد ولادته بوقت قصير فأعيد إلى إنكلترا مع أخ وأخت يكبرانه في السن، لتقوم على تربيتهم عمتان عازبتان. إن التأثير الأدبي للعمات في عهد الإمبراطورية البريطانية أمر لم يتم التحقيق فيه بشكل ملائم، ولكنه ذو أهمية أساسية على ما يبدو. لقد وضع أطفال موظفي الإدارة الاستعمارية تحت رعاية العمات (الخالات) في الوطن بالأسلوب القاسي نفسه الذي قيل إن أهل إسبارطة كانوا يتركون به أبناءهم حديثي الولادة على سطح البيت طوال الليل ليروا إن كانوا أهلاً للبقاء أحياء. بعض العمات، شأن عمات بي جي وودهاس[١] مثلاً، كن رؤوفات، وتم تخليدهن بشكل محبب في عالمه اللطيف. أما تجربة كيبلينغ مع "المرأة من ساوثسي"، وهي عمة بديلة، فكانت كافية لتشعره بالمرارة طوال حياته. ولكن كيبلينغ وودهاوس استطاعا النجاة على الأقل بالتحاقهما بنعيتم المدرسة الثانوية الداخلية الأهلية. أما ساكي فتلقى المعالجة الكاملة على يد العمة العانس، دون أي تخفيف لها، لثلاثة عشر عاماً، وفي أكثر أشكالها جنوناً.

---

(١) مؤرخ إنكليزي (١٧٣٧-١٧٩٤) يعدّ من ابرز المؤرخين الإنكليز في عصره.

كانت عمتا ساكي، توم وأوغستا، تعيشان مع أمهما في بيلتون في ديفون الشمالية، وكانتا تنفقان وقتهما على كره الواحدة للأخرى كرهاً أشبه بالسم والتصرف وفقاً لذلك. فلو أحبت العمة توم أن تفعل شيئاً كانت العمة أوغستا تحب وتريد الضد تماماً. وقد علق الأطفال الثلاثة بين النيران التي تنصب من الجهتين في هذه الحرب بين الأختين، وبما أن العمة أوغستا كانت الأشد خطراً بين الاثنتين، فسرعان ما تعلم هؤلاء أن يتظاهروا بأنهم يفعلون ما كانت تريده. وفي الواقع فقد خلقوا عالمهم الخاص بهم، ومنح هكتور عاطفته للحيوانات المدللة. وقد زودتهم المربيات ببعض التعليم، ولكن أطفال آل مونرو بدوا وكأنهم كانوا يعلمون أنفسهم بأنفسهم. كان هكتور يرسم أسوداً تلتهم عاملات في مجال التبشير الديني يبدون شبيهات إلى حد مثير للريبة بالعمتين، أو دببة كانت دياسيمها قـــد اختطفت فانتقمت بقتل اثنين وثلاثين شخصاً. وكان يرفق رسماته بقصائد فكاهية مؤلفة من خمسة أبيات، ولكن كان هذا هو المدى الذي وصلته جهوده الأدبية كطفل. كان اهتمامه الرئيسي عدا الحيوانات يبدو وكأنه منصب على التاريخ، وبعد موسم انتخابات جرى في بارنستابل اختار السياسة. تقول أخته في سيرة الحياة التي كتبتها عنه: "أصبح التاريخ منـــذ ذلك الحين موضوعه المفضل، وبما أنه تمتع بذاكرة رائعة، فإن معرفته بالتاريخ الأوربي منذ بدايته

كانت مثيرة للإعجاب". كما كان التـــاريخ الطبيعي يخلب لبه. هذه الاهتمامات التي تشكلت في طفولته بقيت معه طوال حياته، ومعها حبه للريف. لقد توقف حقاً عن الرسم والتفت إلى الكلمات، إلا أن صوره اللفظية تحوي تلك العناصر المريرة الكاريكاتورية نفسها، كما أن موضوعة الحيوانات الغاضبة التي تنتقم على نحو مبرر من البشر ذوي الأفئدة القاسية تكرر نفسها. وحتى الريف كان يُستحضر ليوقع الغافلين في شراكه. ولكن، وقبل كل شيء بقي مترعاً بكره للعمات وكل ما يمثلنه: السلطة الاعتباطية والنفاق والبخل والملل والغباء والتقاليد. وتقـــول أخته إن قصة "غرفة السقيفة" تتضمن صورة دقيقة للعمة أوغست، وفي قصة "سريدني فشتار"، تتجلى أحلام ساكي وهو بعد صبي صغير.

ومما زاد في الأمور سوءاً أنه كان طفلاً معتل الصحة ومريضاً في أغلب الأحيان. وحين بلغ التاسعة، أصيب بما كان يسمى آنئذ "الحمى الدماغية" فلم يلتحق بالمدرسة الثانوية في بدفورد حتى بلغ الخامسة عشرة. وبعد عامين من ذلك، تقاعد أبوه من الشرطة البورمية وعاد إلى إنكلترا ليستعيد أطفاله من العمتين. ترك هكتور المدرسة، واستمر تعليمه في السنوات الست التالية بشكل عشوائي مترافقاً مع رحلات في أوروبا وزيارات إلى المتاحف وصالات الفن التشكيلي والدروس

الخصوصية في دافوس (سويسرا) حيث كانت الأسرة تمضي معظم السنة. ومن سيرة حياته بقلم أخته نستطيع أن نلتقط لمحة لتلميذ في جسد رجل، مولع بالنكات العملية ويتمتع بذوق ميال إلى علم شعارات النبالة والعناصر الرومانسية في التاريخ. وإذا ما جعلته العمتان يتمتع بحس قاس بالواقع، إلا أنه كان يهرب الآن إلى المثالية الرومانسية التي تبلغ حد الفروسية. وهذا ما تجلى أيضاً في كتاباته المتأخرة، ولو أنها أصبحت اصعب على التمييز، إلا أنها ما تزال موجودة.

حولت هذه الرحلات التثقيفية للعائلة والحياة الكوزموبوليتانية التي عاشها خلال ست سنوات، حولت مونرو من تلميذ في جسد رجل إلى شاب مثقف ومحنك جزئياً وموهوب باللغات وبحس التمييز الفني؛ كما منحته معرفة بالحياة في المجتمع المتنقل للفنادق الأوربية. ولم يتخذ عملاً حتى بلغ الثالثة والعشرين ولحق بأخيه وأبيه في الشرطة البورمية. وقد بقي فيها ثلاثة عشر شهراً وتلقى سبع إصابات بالملاريا، ثم عاد إلى إنكلترا مريضاً جداً فلم يتمكن من السفر من لندن إلى ديفون حتى شفي. وفي السنتين اللاحقتين عاش في وستوورد هو، ليستعيد قوته بركوب الخيل والسباحة والقيام بمشاوير في الريف.

في عام ١٨٩٦، عاد إلى لندن وبدأ يعمل ككاتب فألف كتاباً عن تاريخ روسيا عنوانه "تهوض الإمبراطورية الروسية". من

الواضح تأثره بكتاب غيبون[1] "انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية"، فكتابه يحكي التاريخ الدموي لروسيا حتى القرن السابع عشر، وكان الكتاب شديد الانتقاد والفكاهة فلم يقبل ككتاب جيد في حقل التاريخ. ثم جرب مونرو كتابة القصص القصيرة، وفي عام ١٩٠٠ بدأ مع فرانسيس كاروذرز غولد، رسام الكاريكاتير، بسلسلة ساخرة في صحيفة "وستمينيستر غازيت" سماها "أليس في ويستمينستر". وفيها صوّر وزراء بريطانيا كشخصيات في رواية "أليس في بلاد العجائب". ثم نشرها في كتاب، فحقق هذا الكتاب "أليس في ويستمينستر" نجاحاً وشعبية. ثم أتبعه بسلسلة أقل نجاحاً "قصص ليست كذلك". في ذلك الحين كان مونرو قد حقق شهرة ككاتب ومعلق سياسي وفي عام ١٩٠٢، بعد مرض خطير آخر، الالتهاب الرئوي المضاعف، انضم إلى أسرة صحيفة "مورنينغ بوست" كمراسل وأرسل إلى البلقان ليغطي أخبار الحرب التي كانت تجري هناك.

في السنوات الاثنتي عشرة التالية بقي مونرو صحفياً محترفاً وكاتباً للقصص القصيرة ينشرها في المجلات. سافر إلى خارج

---

(١) بي جي وودهاوس: (١٨٨١ - ١٩٧٥) كاتب بريطاني كوميدي حقق شعبية كبيرة.

بريطانيا كثيراً، وأنفق الكثير من الوقت في بولندا وروسيا وفرنسا كمراسل، وفي عام ١٩٠٤ نشر أول كتبه "قصص ريجينالد" تحت الاسم المستعار "ساكي" أو "ساقي" . أما مجموعته الثانية "ريجينالد في روسيا" فنشرت عام ١٩١٠، وفي ذلك الحين كان قد استقر في لندن ليكتب بثبات. وقد سكن في شقة في شارع مورتيمر وكان لديه كوخ في ساري. ويبدو أنه كان شخصاً هادئ الطباع مراوغاً، وبينما يعود بعض السبب في أننا لا نعرف سوى القليل عنه إلى أخته التي رفضت أن تتيح المجال للوصول إلى أوراقه بعد وفاته، ثم أحرقتها أخيراً، إلا أنه يبدو وكأنه بقي خارج أضواء الشهرة الأدبية وأنه اعتمد أسلوباً في الحياة يتسم بالخصوصية. كان عضواً في "نادي شجرة الكاكاو"، حيث كان يلعب البريدج، وإذا ما صدقنا كلام ابن خالته الميجور سي دبليو ميرسير، الذي كان يكتب بالاسم المستعار"جورنفورد ييتس"، فقد كان مونرو يصادق مجموعة من الأشخاص العاديين. إن هذا، وحقيقة أنه كان يحضر الحفلات ويقضي عطل نهاية الأسبوع في المنازل الريفية، فلم يكن متحدثاً عظيماً أو شخصا ظريف الحديث، يساعدنا على فهم عدم توفر تفاصيل ملائمة عن سيرة حياته. في ساعات الصباح كان يكتب في شقته، ثم يتناول الغداء في نادي ليونز، وفي المساء كان يذهب إلى ناديه أو إلى المسرح. أما مواهبه فتركها

لكتابته. في عام ١٩١١، نشر "حكايات كلوفيس"، وفي عام ١٩١٢، نشر رواية "باسنغتون الذي لا يطاق". في عام ١٩١٣، نشر رواية أخرى عن الحياة في إنكلترا تحت الاحتلال الألماني بعنوان "حين أتى ويليام"، وفي عام ١٩١٤، نشر آخر مجموعاته القصصية التي نشرت خلال حياته "وحوش ووحوش كبرى".

وضعت الحرب العالمية الأولى نهاية للعالم المريح للطبقة الوسطى الذي كان يكتب عنه، كما وضعت نهاية لساكي نفسه. ومع أنه كان في الرابعة والأربعين، تطوع كجندي عادي ورفض رتبة الضابط أو العمل كلغوي. وشأن كثير من أبناء جيله، فإنه يبدو وكأنه رحب بفرصة وضع مثالياته الرومانسية قيد الممارسة. في عام ١٩١٥، مضى إلى فرنسا ورقي إلى رتبة وكيل رقيب . في تشرين الثاني من عام ١٩١٦، ورغم أنه كان قد أعيد إلى القاعدة بعد إصابته بالملاريا، إلا أنه عاد إلى الجبهة، وهو ما يزال مريضاً، للمشاركة في الهجوم على بومون هامل. في وفي الساعات الأولى من صباح ١٤ تشرين الثاني، وبينما كان يرتاح في حفرة خلفتها إحدى القنابل، سمع وهو يصيح:" أطفئ تلك اللفافة اللعينة!". وبعد لحظة أصيب في رأسه بطلق ناري.

وهكذا تركنا ونحن لا نعرف في الواقع سوى القليل جداً عن هذا الرجل الهادئ الرقيق والمراوغ الذي بدأ يكسب عيشه من كتابة التاريخ الواسع وانتهى بأن ترك لنا مجموعة غريبة من

القصص القصيرة جداً. ولن نتمكن قط من التأكد من أنه كان مجرد شخص ظريف فحسب أم شخصاً يحب تسلية الناس أم شخصاً جدياً إلى حد عميق استخدم الكوميديا كوسيلة ليغطي على خيبة أمله الرهيبة. لقد تركنا نتساءل عن السبب في أنه اختار اسم ساكي (ساقي) كاسم مستعار له. تدعي أخته أنه اختاره من كتاب "رباعيات عمر الخيام" الذي ترجمه فتزجرالد، ولكن ساقي الرباعيات، ناهيك عن تجواله بين رواد الحانة، يبدو وكأنه لا شيء مشترك لديه مع الرجل الذي كتب تلك القصص. حين سمعت لأول مرة في المدرسة هذا الاسم المستعار افترضت بالطبع أنه اختصار لكلمة sarcastic وتعني "الساخر". ولكن لدي الآن نظرية مختلفة تماماً. وهذه تعتمد على حقيقة أنه حين بدأ يتكسب من الكتابة، فقد فعل شيئاً غير عادي إطلاقاً. لقد وصل إلى لندن واستقر في غرفة المطالعة في المتحف البريطاني وألف تاريخاً عن الإمبراطورية الروسية منذ بداياتها وحتى القرن السابع عشر. وقد بدت تلك طريقة غير تقليدية إلى حد كبير كطريقة لبدء مهنة الأدب. لم يكن ساكي قد تلقى أي تدريب في البحث التاريخي، وقد تساءلت من أين جاءته الفكرة. ونحن نعرف من أخته أن ولعه المبكر كان بالتاريخ: "التاريخ في ذلك الحين ودائماً بعد ذلك، لأنه كان موضوعه المفضل، وبما أنه تمتع بذاكرة رائعة، فإن معرفته بالتاريخ الأوروبي منذ

بدايته كانت مثيرة للإعجاب". هكذا هو الأمر تماماً، ولكن اختياره للإمبراطورية الروسية أذهلني على أنه أمر شديد الطموح حتى تذكرت كتاب غيبون: "انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية". لقد خطر لي أن غيبون ربما كان قد زوّد ساكي بنموذج يحتذى. بالطبع لم يكن ساكي قادراً على تأليف "انحدار وسقوط الإمبراطورية الروسية"، بما أنها كانت ما تزال قائمة، ولكن معالجته لنهوضها يحمل عدداً من التشابهات مع عمل غيبون. إن أسلوب ساكي، الذي يتحلى بحكمه البارعة وسخريته، ومعالجته للكنيسة بأسلوب يخلو من الاحترام، والمدى الواسع لعمله، والتركيز على أعمال القسوة والخيانات والتصرفات البربرية في تلك العهود، تبدو وكأنها مستمدة من تاريخ غيبون. وشأن ساكي، كان غيبون طفلاً عليلاً ولم يكن متوقعاً له أن يبلغ سن الرجولة: توفيت أمه حين كان في العاشرة وبينما انتقل أبوه بعيداً، فقد أرسل إلى عمته لتربيه في بيت جده. كان تعليمه متقطعاً بسبب المرض، كما كان يصاب بالمرض مراراً فلا يداوم على المدارس. وأخيراً، شأنه شأن ساكي، أرسل غيبون إلى سويسرا في سن السابعة عشرة وهناك تعلم الفرنسية. وبما أنه من الواضح من قراءة "نهوض الإمبراطورية الروسية" أن ساكي كان على اطلاع بأعمال غيبون وأسلوبه، لذا يبدو من المحتمل أنه لاحظ هذه التشابهات العجيبة في طفولتيهما، وهذا يساعدنا على أن نفسر السبب في أنه في سن

السادسة والعشرين، وصل إلى لندن وانطلق في تقليد سلفه على أمل أن يكسب الشهرة والثروة. وقد فشل في كسب الاعتراف الذي أمل به، والتفت بدلاً عن ذلك إلى القصص القصيرة والنقد السياسي الساخر بالاسم المستعار "ساكي". والآن، بعيداً عن كونه "ساقي" الرباعيات، فإن كلمة "ساكي " شأنها شأن "غيبون"، هي اسم لنوع من السعادين. وفي نسختي الخاصة من الموسوعة البريطانية فإن الساكي يوصف على أنه سعدان جنوب أمريكي يتميز بذيل طويل كثيف الشعر، كما أنه حيوان رقيق جداً وهو عادة صامت. كان مونرو حيواناً رقيقاً جداً أيضاً، ويصفه أحد رفاقه في الجريدة بأنه كان من الصعب أن تستخرج منه كلمة. إذن، فقد كان من النوع الصامت أيضاً.

لو كان هذا هو كل الدليل الذي بين أيدينا،، لكان غير كاف، ولكن في هذه المجموعة قصة تدعى "إعادة قولبة غروبي لينغتون" قدم لها الكاتب باقتباس من يوربيديس: "فكل قرين بالمقارن يقتدي". وهي القصة الوحيدة في مجموعاته القصصية كلها التي قدم لها باقتباس، والقصة تحكي عن رجل يكتسب صفات الحيوانات الأليفة التي يحتفظ بها. في البداية يتصرف مثل ببغائه، ولكنه يهدى سعداناً فيما بعد فيبدأ بالتصرف مثله. وصف السعدان مثير للاهتمام: "كان القادم الجديد سعداناً صغيراً طويل الذيل أحضر من نصف الكرة الغربي، ويتمتع بسلوك

لطيف نصف خجول نصف واثق سرعان ما أستحوذ على ثقة غروبي. وقد يكون من شأن أي دارس للشخصيةالقردية أن يلاحظ في النور الأحمر المتقطع لعينيه إشارة ما للمزاج الكامن، والذي اختبره الببغاء بكل ذلك الاندفاع..." وكذلك: "قرد وثني كريه لا يقول شيئاً معقولاً ومبهجاً شأن بولي المسكين". باختصار، هو سعدان طويل الذيل من أمريكا الجنوبية. وهو سعدان ضعيف الصحة أيضاً. ويموت من "مرض يصيب الكثير من بني جنسه حين يتعرضون لتأثير مناخ المناطق الشمالية." في تلك الأثناء كان مونرو قد بدا يستخدم اسم "ساكي" كاسم مستعار له، وكان قد اصيب بمرض خطير هو ذات الرئة المزدوجة. ومن جديد، نرى هنا تصادفاً مثيراً للفضول، ولكن يبدو لي أن لا شيء له علاقة بالصدفة في توكيده على أن سعدان غروبي قد جاء من نصف الكرة الغربي، أو بالاقتباس القائل "فكل قرين بالمقارن يقتدي"، ... كما أن شخصية السعدان تلائم مونرو جداً وبشكل استثنائي وبدون شك. فقد كان هو أيضاً يتحلى بأسلوب لطيف نصف خجول ونصف واثق، ولكن ما تحت هذا المظهر الخارجي كان يكمن مزاج حاد. على المرء أن يقرأ فحسب هذه القصص ليكتشف كم كان مزاجه عنيفاً.

١- تحفظ الليدي آن

دخل إيغبرت إلى غرفة الاستقبال الواسعة المنارة بنور خافت بهيئة رجل غير واثق : أهو داخل يا ترى إلى برج حمام أو إلى مصنع للقنابل؟ وعلى أي حال فهو مستعد لكلا الاحتمالين. كان النزاع المنزلي الصغير على مائدة الغداء لم ينته نهاية محددة، والسؤال كان إلى أي حد كانت الليدي آن في مزاج تجدد معه الأعمال العدائية أو تمتنع عنها. كانت جلستها في الكنبة قرب مائدة الشاي صارمة بإتقان بالأحرى؛ ففي عتمة عصر هذا اليوم من شهر كانون الأول لم توفر نظارة إيغبرت الأنفية عوناً كبيراً له ليتبيّن التعبير الذي على وجهها.

وحتى يتمكن من تكسير أي جليد قد يكون ما زال عائماً فوق السطح، فقد تلفظ بملاحظة حول النور الخافت الذي يوحي بالورع. كان هو أو الليدي آن معتادين على التلفظ بمثل هذه الملاحظة بين الساعة الرابعة والنصف والسادسة في أمسيات الشتاء وأواخر الخريف. كان ذلك جزءاً من حياتهما الزوجية. لم

يكن هناك عادة ردّ على هذه الملاحظة، ولم تردّ الليدي آن في هذه المرة.

كان دون تاركوينيو مستلقياً على السجادة العجمية، وهو ينعم بدفء ونور المدفأة دون أي اكتراث بتعكّر مزاج الليدي آن. كان نسبه عجمياً صافياً شأن السجادة، وكان طوقه قد وصل إلى مجد سنته الثانية. كان الوصيف الذي يتمتع بميول قروسطية، قد أسماه دون تاركوينيو. كان من شأن إيغبرت والليدي آن لو ترك الأمر لهما أن يسمياه "فلاف" (الأزغب) دون شك، ولكنهما لم يكونا عنيدين.

صب إيغبرت لنفسه بعض الشاي. وحين لم يعط الصمت أي دليل على مبادرة من الليدي آن، فقد استجمع قواه وبذل محاولة جديدة. أعلن قائلاً:

" كانت ملاحظتي عند الغداء مجرد تطبيق أكاديمي بحت. ويبدو أنك حمّلت الأمر بعداً شخصياً دون ضرورة لذلك."

حافظت الليدي آن على حاجزها الدفاعي الصامت. غرد الدغماش بكسل مالئاً فترة الصمت بلحن من "إيفغيني أن توريد". ميّز إيغبرت اللحن فوراً لأنه كان اللحن الوحيد الذي يصفره الدغماش، وكان قد وصل إليهما متمتعاً بشهرته في مجال التصفير. كان من شأن كل من إيغبرت والليدي آن أن يفضلا

لحناً من " ضابط الحرس الصغير" التي كانت الأوبرا المفضلة لديهما. في مسائل الفن كان لديهما تشابه في الذوق. كانا يميلان إلى ما هو صادق وواضح في الفن، لوحة تحكي مثلاً حكايتها الخاصة بها، مع مساعدة كريمة من عنوانها: حصان حربي بلا فارس والطقم في حالة من الفوضى الواضحة، وقد راح يتعثر داخلاً إلى باحة منزل مليء بالنساء المغمى عليهن، وعنوانها "أنباء محزنة" مما يوحي لهما بتفسير جلي لكارثة حربية ما. كانا قادرين على معرفة ما كان يقصد من اللوحة، ويشرحان ذلك للأصدقاء من أصحاب الذكاء الأقل حدة.

استمر الصمت. كقاعدة، فإن امتعاض الليدي آن يصبح واضحاً ومهذاراً إلى حد ملحوظ بعد أربع دقائق من الصمت التمهيدي. أمسك إيغبرت بإبريق الحليب وصب بعضاً من محتوياته في صحن دون تاركوينيو. وبما أن الصحن امتلأ حتى حافته فإنه فاض على نحو قبيح . نظر دون تاركوينيو باهتمام مندهش تلاشى متحولاً إلى إغماء متعمد حين ناداه إيغبرت ليتقدم ويشرب بعض الحليب المسفوح. وكان دون تاركوينيو مستعداً ليلعب أدواراً كثيرة في هذه الحياة، ولكن لم يكن دور مكنسة السجاد الكهربائية واحداً منها.

قال إيغبرت بمرح: " ألا تعتقدين أننا حمقى بالأحرى؟"

ولو اعتقدت الليدي آن ذلك فهي لم تقله.

تابع إيغبرت بمرح متلاش: " أجرؤ على القول إن الخطأ خطئي. وعلى أي حال، فأنا مجرد بشر، كما تعلمين؛ ويبدو أنك تنسين أني مجرد بشر."

أصرّ على هذه المسألة، وكأنما كانت هناك اقتراحات غير ذات أساس بأنه كان من سلالة الساتير[1]، وأن سلالة التيوس استمرت فيه حيث انقطعت سلالة البشر.

عاد الدغماش ليصفر لحناً من " إيفغيني في الثريا". بدأ إيغبرت يشعر بالكآبة. لم تكن الليدي آن تشرب الشاي. ربما كانت متوعكة. ولكن حين كانت الليدي آن تصاب بالتوعك، لم يكن من عادتها أن تكون متحفظة في التكلم حول هذا الموضوع. "لا أحد يعلم ما أعانيه من سوء الهضم". كانت هذه إحدى عباراتها المفضلة. ولكن عدم المعرفة ما كان ممكناً أن يعود إلا إلى الإصغاء الناقص. كانت كمية المعلومات المتوفرة حول الموضوع كافية لكتابة مقال.

من الواضح أن الليدي آن كانت متوعكة.

بدأ إيغبرت يفكر بأنه يتعرض إلى معاملة غير معقولة. وبالطبع فقد بدأ يقدم التنازلات.

---

(١) إله من آلهة الغابات عند الإغريق نصفها تيس ونصفها بشر.(المترجم)

قال وهو يتخذ وضعية فوق سجادة المدفأة مع نجاحه في إقناع دون تاركوينيو في أن يتنازل له عن مكانه: " ربما كنت الملوم. أنا راغب، إن كنت أستطيع أن أعيد الأمور إلى وضع أكثر سعادة، أن ألتزم بأن أحيا حياة أفضل."

تساءل بغموض كيف يمكن ذلك. كانت الإغراءات تأتيه، وهو في منتصف العمر، مترددة ودون إلحاح، شأن أجير لحام يطلب هدية عيد الميلاد في شباط لسبب واحد هو أنه لم يتح له الحصول عليها في كانون الأول. لم يكن يفكر في الاستسلام لها أكثر مما كان يفكر في شراء سكاكين السمك واللفاعات الفرو التي تضطر السيدات إلى التضحية بها عبر صفحات الإعلان في الصحف طوال اثني عشر شهراً في السنة. ومع ذلك، كان هناك شيء مثير للإعجاب في هذا التخلي غير المطلوب عن أعمال شائنة مستترة على وجه الإمكان.

لم تبد الليدي آن أي علامة على كونها قد تأثرت بكلامه.

نظر إيغبرت إليها بعصبية عبر نظارته. لم تكن خسارته للجدال معها تجربة جديدة. أما أن ينتهي الأمر بمناجاة للنفس من طرف واحد فكان شيئاً جديداً ومذلاًّ.

أعلن بصوت رغب أن يكون فيه شيء من الصرامة: " سأذهب وأرتدي ملابسي للعشاء".

عند الباب فإن نوبة أخيرة من الضعف أجبرته على أن يقدم التماساً آخر.

" أو لم نكن أحمقين إلى حدٍّ كبير؟"

" مغفل"، كان التعليق الذهني لدون تاركوينيو والباب يغلق على تراجع إيغبرت. رفع قدميه الأماميتين في الهواء وقفز بخفة إلى رف للكتب على الفور تحت قفص الدغماش. كانت تلك أول مرة بدا فيها أنه يلاحظ وجود الطير، ولكنه كان يضع موضع التنفيذ نظرية عمل تشكلت منذ زمن طويل بدقة تنم عن تفكير ناضج. أما الدغماش الذي كان قد تصور نفسه أميراً، فقد ضغط نفسه فجأة إلى ثلث حجمه المعتاد. ثم راح يخفق بجناحيه ويسقسق بصوت حاد على نحو يدل على العجز. كان قد اشتري بسبعة وعشرين شلناً دون القفص، ولكن الليدي آن لم تبد أيّ علامة على التدخل. فهي ميتة منذ ساعتين.

* * *

٢- غابرييل - إرنست

قال الفنان كانينغهام: "هناك وحش بري في غاباتك"، وهو في طريقه إلى المحطة في عربة يقودها فان تشيل، وكانت تلك هي الملاحظة الوحيدة التي تلفظ بها خلال تلك الرحلة، ولكن بما أن فان تشيل كان يتكلم دون توقف، فإن صمت رفيقه لم يكن ملحوظاً.

قال فان تشيل: "ثعلب شارد أو ثعلبان وبعض الحيوانات المقيمة مثل أبناء عرس. لا شيء يثير الرعب ". لم يتلفظ الفنان بأي ردّ.

قال فان تشيل لاحقاً حين أصبحا على الرصيف: "ما الذي تعنيه بالوحش البري؟"

قال كانينغهام: "لا شيء. إنها مخيلتي. هـا هو القطار قد وصل".

في عصر ذلك اليوم مضى فان تشيل ليقوم بواحدة من جولاته عبر الأرض التي يملكها في الغابات. كان لديه طائر

محنط من طيور الواق في غرفة مكتبه، وكان يعرف أسماء عدد كبير جداً من الزهور البرية، لذا فإن عمته كانت على الأرجح محقة في وصفها إياه بعالم الطبيعيات العظيم. وعلى أي حال، فقد كان مشّاء عظيماً. وكان من عادته أن يحتفظ في ذهنه بملاحظات عن كل ما يراه خلال مشاويره، ولكن ليس لأجل مساعدة العلوم المعاصرة بل من أجل أن يوفر مواضيع للحوار فيما بعد. وحين بدأت أزهار الجُريس بالظهور فقد راح يبلغ الجميع عن هذه الواقعة. كان يمكن لذلك الفصل من السنة أن يكون قد نبّه سامعيه إلى احتمال حدوث مثل تلك الظاهرة، ولكنهم كانوا يشعرون على الأقل بأنه كان صريحاً جداً معهم. ما رآه فان تشيل في عصر ذلك اليوم بالذات كان شيئاً أبعد ما يكون عن مضمار تجربته. فعلى رف من الحجر الأملس يشرف على بركة عميقة في حفرة ضمن أيكة من أشجار السنديان، كان فتى في حوالي السادسة عشرة من عمره يتمدد باسطاً ذراعيه وقدميه وهو يجفف أعضاءه السُّمر المبللة تحت الشمس بحركة مترفة. كان شعره المبلل، الذي فرقته غطسة جرت قبل وقت قصير، قد التصق برأسه، كما التفتت عيناه بلونهما البني الفاتح، والفاتح جداً إلى حد أنه كان فيهما وميض أشبه بوميض عيون النمور، نحو فان تشيل بنوع من اليقظة التي يشوبها الكسل. كان ظهوراً غير متوقع ووجد فان تشيل نفسه منهمكاً في عملية جديدة هي التفكير

قبل الكلام. من أين يا ترى جاء هذا الفتى المتوحش المظهر؟ كانت زوجة الطحان قد فقدت طفلاً قبل حوالي الشهرين، وقد افتُرض أنه انجرف مع تيار الماء الذي يدير الطاحون، ولكن ذاك كان مجرد طفل صغير، وليس فتى مراهقاً.

سأله: " ما الذي تفعله هناك؟"

أجاب الفتى: " من الواضح أني أتشمس".

" وأين تسكن"؟

" هنا، في هذه الغابات."

قال فان تشيل: " لا يمكنك أن تسكن في هذه الغابات."

قال الفتى وقد اعترت صوته لمسة من التفضل: " إنها غابات جميلة جداً."

" ولكن أين تنام في الليل؟"

" لا أنام في الليل، فذاك أكثر أوقاتي نشاطاً."

بدأ فان تشيل يشعر بالسخط لأنه يتعامل مع مشكلة تتجاوز إدراكه.

سأل: " وما الذي تقتات به؟"

قال الفتى: " باللحم"، ولفظ الكلمة بتلذذ بطيء، وكأنه يتذوقها.

" اللحم، أي لحم؟"

"بما أن هذا يهمك، فإنه لحم الأرانب والطيور البرية والأرانب البرية والحملان في موسمها، والأطفال حين أستطيع الحصول على أي منهم. في العادة يكونون بعيدي المنال وراء أبواب مقفلة في الليل، وذلك حين أقوم بمعظم حملات الصيد. لم يتح لي منذ شهرين تذوق لحم طفل."

حاول فان تشيل وهو يتجاهل لهجة المزاح في آخر ملاحظة سمعها أن يلفت انتباه الفتى إلى موضوع عمليات الصيد المحظور المحتملة.

" أنت تتكلم عن شيء لا تفهمه حين تتكلم عن أنك تقتات على الأرانب البرية. إن أرانبنا البرية ليس سهلاً اصطيادها."

" في الليل أصطاد على أربع أقدام"، هكذا كان الرد الملغز نوعاً ما.

" أعتقد أنك تعني أنك تصطاد مع كلب؟" تجرأ فان تشيل على السؤال.

انقلب الفتى على ظهره ببطء، وأطلق ضحكة غريبة خافتة، كانت أشبه بضحكة بينه وبين نفسه، هذا إذا أخذنا الأمر على محمل لطيف، أما إذا أخذناه على محمل بغيض، فكانت أشبه بزمجرة.

" لا أتصور أن أي كلب سيكون حريصاً على صحبتي، وخاصة في الليل."

بدأ فان تشيل يشعر بأن هناك شيئاً غريباً دون شك يتعلق بهذا الشاب غريب العينين واللسان.

أعلن بلهجة جازمة:" لا يمكنني أن اسمح لك بالبقاء في هذه الغابات".

قال الفتى: " أتصور أنك ستفضل لو أني بقيت هنا وليس بالأحرى في منزلك."

كان احتمال وجود هذا الحيوان البري العاري في منزل فان تشيل المرتب بأناقة احتمالاً مثيراً للقلق بكل تأكيد.

قال فان تشيل: " إن لم ترحل، فسوف أضطر إلى جعلك تفعل ذلك."

التفت الفتى بسرعة كالوميض وغطس في البركة، وخلال لحظة كان قد قفز بجسده المبلل واللامع قاطعاً نصف المسافة نحو الضفة التي كان فان تشيل يقف عليها. بالنسبة إلى ثعلب الماء ما كانت هذه الحركة شيئاً يستحق الملاحظة، ولكن بالنسبة إلى فتى فإن فان تشيل وجدها مذهلة إلى حد كاف. انزلقت قدمه وهو يقوم بحركة تراجعية لا إرادية، ووجد نفسه وقد أصبح منبطحاً تقريباً فوق الضفة التي غطتها الأعشاب، وتينك العينان الصفراوان النمريتيان ليستا بعيدتين جداً عن عينيه. رفع يده بحركة غريزية إلى حنجرته. ضحك الفتى مجدداً ضحكة كانت

فيها الزمجرة قد طردت الضحكة الخافتة تقريباً، وثم، وبحركة أخرى من حركاته المدهشة السريعة كالبرق، اختفى مبتعداً عن الأنظار في شبكة لينة من الأعشاب والسرخس.

قال فان تشيل وهو يلتقط أنفاسه: "ياله من حيوان بري استثنائي!" ثم استذكر ملاحظة كانينغهام: "هناك وحش بري في غاباتك".

سار فان تشيل إلى البيت ببطء، ثم بدأ يقلب في ذهنه مختلف الأحداث المحلية التي يمكن أن تعزى إلى وجود هذا المتوحش الشاب المثير للدهشة."

كان هناك شيء ما يُنقص من أعداد الطرائد في الغابات مؤخراً، كما كانت الدواجن تفقد من المزارع، وبدأت الأرانب البرية تصبح أقل عدداً دون تعليل، كما كانت الشكاوى قد وصلته عن أن الحملان كانت تسرق بالجملة من على التلال. هل كان ممكناً أن هذا الفتى المتوحش هو الذي كان يتصيد بالفعل في الريف بصحبة كلب صيد ذكي؟ كان الفتى قد تحدث عن قيامه بالصيد "على أربع أقدام " في الليل، ولكنه أشار أيضاً إلى أنه لم يكن هناك كلب يحرص على الاقتراب منه "وخاصة في الليل". كان أمراً محيراً بالفعل. ثم، وبينما راح فان تشيل يقلب في ذهنه مختلف أعمال السرقة التي ارتكبت خلال الشهر أو الشهرين الفائتين، فقد توقف عن السير فجأة، وتوقفت

تخميناته على نحو كامل. الطفل الذي فقد من الطاحونة قبل شهرين: والذي كانت النظرية المقبولة تقول إنه سقط في تيار الماء الذي يدير الطاحون وانجرف معه. إلا أن الأم كانت تعلن دائماً أنها سمعت زعيقاً على ذلك الجانب من التل المشرفة على المنزل، في الجهة المقابلة للماء. كان الأمر غير قابل للتصور، بالطبع، ولكنه تمنى لو أن الفتى لم يتلفظ بذلك التعليق عن لحم الطفل الملتهم قبل شهرين. مثل هذه الأمور الرهيبة لا يجب أن تقال حتى ولو مزاحاً.

لم يشعر فان تشيل، على غير عادته، بأنه يميل إلى أن يحكي عن اكتشافه في الغابة. كان منصبه كمستشار للأبرشية وقاض للصلح يبدو معرضاً للخطر من حقيقة أنه كان يؤوي شخصية لها مثل هذه السمعة المريبة ضمن أملاكه. كما كانت هناك إمكانية فرض غرامة ثقيلة عليه بسبب الأضرار التي تعرضت لها الحملان والدواجن المسروقة. وحين تناول وجبة العشاء في تلك الليلة كان صامتاً على غير عادته.

قالت عمته: " أين ذهب صوتك؟ قد يظن المرء أنك شاهدت ذئباً."

ظن فان تشيل، الذي لم يكن على اطلاع على ذلك المثل القديم، أن الملاحظة كانت حمقاء بالأحرى: فلو شاهد ذئباً على أرضه لكان لسانه قد انشغل بالأمر إلى حد استثنائي.

في صباح اليوم التالي، وعند وجبة الإفطار، أدرك فان تشيل أن شعور القلق الذي انتابه بسبب حادثة اليوم السابق لم يختف بالكامل، وقرر أن يذهب بالقطار إلى البلدة المجاورة ذات الكاتدرائية، والبحث عن كانينغهام، ليعرف منه ما قد رآه بالفعل وجعله يبدي تلك الملاحظة عن وحش بري في الغابات. وباتخاذه هذا القرار، عادت إليه بشاشته المعتادة، وراح يهمهم بلحن صغير مرح وهو يمشي الهوينى إلى غرفة الصباح ليدخن لفافته المعتادة. وحين دخل الغرفة انقلب اللحن إلى فجأة إلى ابتهال ورع. كان فتى الغابات يتمدد برشاقة على المتكأ في وضعية توحي بالراحة المبالغ بها. كان جسده في حالة أكثر جفافاً مما رآه سابقاً، ولكن لم يكن هناك تغيير آخر في مظهره.

سأل فان تشيل بغضب: " كيف تجرؤ على الدخول إلى هنا؟"

قال الفتى بهدوء: "قلت لي إنه ليس عليّ أن أبقى في الغابات."

" ولكني لم اقل إن عليك أن تأتي إلى هنا. افترض أن عمتي شاهدتك!"

وفي محاولة ترمي إلى تخفيف وطء الكارثة قام فان تشيل بإخفاء أكبر قدر من ضيفه غير المرحب به تحت صفحات جريدة "مورنينغ بوست". في تلك اللحظة دخلت عمته الغرفة.

شرح فان تشيل بلهجة يائسة وهو ينظر بقلق إلى وجه الفتى الضال ليرى ما إذا كان سيضيف صراحة غير ملائمة إلى نزعاته الطبيعية المتوحشة الأخرى: "هذا فتى فقير أضاع طريقه.. وفقد ذاكرته."

أبدت الآنسة فان تشيل اهتماماً هائلاً.

قالت: "ربما كانت هناك علامة مميزة على ملابسه الداخلية."

قال فان تشيل وهو يقوم بحركات صغيرة مهتاجة ليبقي الجريدة في مكانها: " يبدو وكأنه فقد معظمها أيضاً."

كان وجود طفل مشرد وعار أمراً يثير تعاطف للآنسة فان تشيل كما قد تثيره قطيطة ضائعة أو جرو مهمل من صاحبه .

قالت بلهجة حاسمة: "علينا أن نفعل ما بوسعنا من أجله." وخلال وقت قصير كانت قد بعثت برسول إلى بيت القسيس الذي كان لديه خادم، وقد عاد الرسول بقميص وحذاء وقبّة، إلخ. وبعد أن جرى إلباس الفتى وتنظيفه وتهيئته لم يفقد هذا أياً من صفاته الغريبة في عيني فان تشيل، ولكن عمته وجدته لطيفاً.

قالت: " علينا أن نطلق عليه اسماً ما ريثما نعرف من يكون بالفعل. أعتقد أن غابرييل -إرنست اسم ملائم ولطيف."

وافق فان تشيل، ولكنه كان يشك في نفسه ما إذا كان الاسم ملائماً لطفل لطيف مناسب. ولكن ظنونه لم تنقص بحقيقة أن

كلبه السبنيلي العجوز الرزين كان قد اختفى من المنزل لدى أول ظهور للفتى، وهاهو ما يزال يرتجف وينبح في النهاية البعيدة للبستان، بينما راح الكناري، وهو المجدّ صوتياً شأن فان تشيل نفسه، فقد راح يسقسق بخوف. لقد أصبح فان تشيل مصمماً أكثر من أي وقت مضى على استشارة كانينغهام.

وبينما كان يقود عربته إلى المحطة، كانت عمته تقوم بالترتيبات اللازمة لتجعل غابرييل - إرنست يساعدها في تسلية الأطفال أعضاء صف مدرسة الأحد خاصتها لدى تقديم الشاي في عصر ذلك اليوم.

لم يكن كانينغهام ميالاً إلى الكلام في البداية.

شرح قائلاً: " توفيت أمي بسبب اضطراب عقلي ما، لذلك ستفهم أنت لماذا أكره التحدث عن أي شيء له طبيعة خيالية محتملة قد أكون رأيتها أو تخيلت أني رأيتها."

ألح فان تشيل قائلاً: " ولكن ما الذي رأيته بالفعل؟"

" كان الذي ظننت أني رأيته أمراً استثنائياً جداً لا يمكن لأي شخص أن يصادق على أنه حدث فعلاً. كنت أقف، في المساء الأخير الذي قضيته لديك، نصف مختبئ بين الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة عند باب البستان، وأنا أراقب الوهج المحتضر لشمس الغروب. وفجأة، أدركت وجود الفتى العاري،

فظننته شخصاً كان يسبح في بركة مجاورة، وكان هذا يقف على سفح التل الأجرد وهو يراقب أيضاً غروب الشمس. كانت وقفته توحي كثيراً بإله متوحش من آلهة الحقول ينتمي إلى أسطورة وثنية فأردت على الفور أن أتعاقد معه ليكون موديلاً لأرسمه، وكنت على وشك أن أحييه. ولكن في تلك اللحظة كانت الشمس قد غطست بعيداً عن النظر، وانزلق اللونان البرتقالي والقرنفلي مبتعدين عن المنظر الطبيعي، مخلفين وراءهما لوناً بارداً ورمادياً. وفي تلك اللحظة نفسها حدث شيء مذهل: فقد اختفى الفتى أيضاً.

سأله فان تشيل مستثاراً: " ماذا! اختفى متحولاً إلى لا شيء؟"

أجاب الفنان: "كلا. هذا هو الجزء الرهيب من الأمر. فعلى سفح التل المفتوح، حيث كان الفتى واقفاً قبل ثانية، كان هناك ذئب كبير أسود اللون، وله أنياب مومضة وعينان صفراوان قاسيتان. قد تظن..."

ولكن فان تشيل لم يتوقف أمام أي شيء عبثي حتى ولو كان فكرة. كان قد سبق له وانطلق بأقصى سرعة نحو المحطة. لقد صرف من ذهنه فكرة إرسال برقية. "غابرييل-إرنست مذؤوب" مجرد جهد غير ملائم ويائس لتفسير الوضع. وكانت عمته ستظن أن الرسالة مرمزة دون إعطاء مفتاح لفك رموزها. كان

أمله الوحيد أن يستطيع الوصول إلى البيت قبل غروب الشمس. إلا أن التاكسي الذي استأجره بعد أن أوصله القطار إلى المحطة الأخرى سار ببطء مثير للسخط على الطرق الريفية، التي كانت الشمس الغاربة تلونها باللونين القرنفلي والبنفسجي. وحين وصل كانت عمته توضب بعض المربى والكعك اللذين تبقيا من الوجبة.

صرخ تقريباً: " أين غابرييل - إرنست؟"

قالت العمة: "إنه يصطحب طفل آل توب الصغير إلى بيته. كان الوقت قد تأخر كثيراً، فظننت أنه لم يكن من الملائم إرساله وحيداً إلى بيته. يا له من غروب جميل، أليس كذلك؟"

ولكن فان تشيل، رغم أنه لم يكن غافلاً عن الوميض في السماء الغربية، لم يبق ليناقش جمالياته. وبسرعة لم يكن مؤهلاً لها، ركض على طول الدرب الضيق الذي يؤدي إلى منزل آل توب. على أحد جانبي الدرب كان التيار السريع لمجرى النهر الذي يدير الطاحونة، ومن الجانب الآخر، كان سفح التل الأجرد. كانت حافة متضائلة من الشمس الحمراء لا تزال ظاهرة على الأفق، ولا بد أن المنعطف التالي سيجعله يرى الشخصين غير المتجانسين اللذين كان يطاردهما. ثم انطفأ النور فجأة واستقر نور رمادي برجفة سريعة على المنظر الطبيعي. سمع فان تشيل عويلاً حاداً مترعاً بالخوف، وتوقف عن الركض.

لم ير أحد مجدداً طفل آل توب أو غابرييل - إرنست، ولكن وجدت ملابس الأخير التي رماها عنه ملقاة على الطريق، لذلك افترض أن الطفل قد سقط في الماء، وأن الفتى خلع ملابسه وغطس في الماء، في محاولة عبثية لإنقاذه. وقد شهد فان تشيل وكذلك عمال كانوا قريبين من المكان في ذلك الحين، بأنهم سمعوا صرخة طفل عالية قرب المكان الذي وجدت فيه الملابس بالضبط. أما السيدة توب التي كان لديها أحد عشر طفلاً آخر، فقد استسلمت على نحو مهذب أمام مصابها، إلا أن الآنسة فان تشيل فقد مارست الحداد بإخلاص على ذلك الفتى اللقيط الضائع. وبمبادرة منها أقيم نصب تذكاري نحاسي في كنيسة الأبرشية مكرس لــ "غابرييل - إرنست، الفتى المجهول الذي ضحى بحياته لينقذ حياة أخرى."

كان فان تشيل يستسلم أمام عمته في كثير من الأمور، إلا أنه رفض بشكل مطلق أن يساهم في النفقات الخاصة بإقامة نصب غابرييل - إرنست.

* * *

٣- إسميه

قال كلوفيس: " جميع حكايات الصيد متشابهة، كما هي جميع حكايات سباق الخيل، وكلها..."

قالت البارونة: "حكايتي مع الصيد لا تشبه أياً من الحكايات التي سمعتها. وقد جرت قبل وقت طويل، حين كنت في حوالي الثالثة والعشرين من العمر. لم أكن أسكن بمعزل عن زوجي آنئذ. كما ترى، فلم يكن أيّ منا قادراً على توفير مخصصات مستقلة للآخر. ورغم كل ما تقوله الأمثال، فإن الفقر يبقي الأسر متماسكة أكثر مما يفرقها. ولكننا كنا نمارس الصيد دائماً بمجموعات مختلفة من كلاب الصيد. ولكن ليس لهذا ما له علاقة بالحكاية."

قال كلوفيس: "ولكننا لم نصل إلى اجتماع الصيادين بعد. أفترض أنه كان هناك مثل هذا الاجتماع."

قالت البارونة: "طبعاً كان هناك اجتماع، تلك الجمهرة المعتادة كانت هناك، وخاصة كونستانس برودل. كونستانس

واحدة من أولئك الفتيات الطويلات القويات البنية المنمقات اللواتي يصلحن لمشاهد الخريف وديكورات أعياد الميلاد في الكنيسة. قالت لي: (لديّ حس داخلي مسبق بأن شيئاً رهيباً سيحدث. هل أبدو شاحبة؟)

"كانت تبدو شاحبة كجذر شمندر سمع خبراً سيئاً للتو.

"قلت لها: (تبدين أجمل من المعتاد، ولكن هذا سهل جداً عليك.) وقبل أن تفهم المغزى الصحيح من هذه الملاحظة، كنا قد بدأنا العمل. كانت كلاب الصيد قد وجدت ثعلباً في أجمة من شجيرات الوزال."

قال كلوفيس: "عرفت ذلك، ففي كل حكاية من حكايات صيد الثعالب سبق لي وسمعتها كان هناك ثعلب وبعض أجمات من شجيرات الوزال".

استأنفت البارونة كلامها بهدوء: "كنا، كونستانس وأنا، نركب جوادين جيدين، ولم يكن صعباً علينا أن نكون في مقدمة الركب، رغم أنه كان عَدواً شاقاً جداً. وقبل النهاية بقليل، لا بد أننا كنا قد سرنا في خط سير مستقل جداً عن الآخرين، فقد ضعنا عن كلاب الصيد، ووجدنا أننا كنا نتهادى دون هدف على مبعدة أميال عن أي مكان مألوف. كان أمراً يدعو للسخط الشديد، وكان مزاجي قد بدأ يتبدل نحو الأسوأ، حين اندفعنا عبر سياج

سهل، فسررنا لمرأى كلاب صيد تنبح نباحاً شديداً في حفرة إلى الأسفل من المكان الذي كنا فيه مباشرة.

"صاحت كونستانس: (هاهم يتجهون إلى هناك). ثم أضافت لاهثة: (ما الذي يصطادونه بحق السماء)؟

"لم يكن بكل تأكيد ثعلباً عادياً. كان ارتفاعه أعلى بمرتين من الثعلب وله رأس قصير وقبيح، وعنق ثخين هائل.

"صرخت: (إنه ضبع، لا بد أنه هرب من أراضي اللورد بابهام المخصصة للطرائد).

" في تلك اللحظة التفت الوحش المطارد وواجه مطارديه، أما الكلاب - وكان هناك ستة أزواج منها على الأقل- فقد وقفت في نصف حلقة وبدت كأنها حمقاء. من الواضح أنها انفصلت عن بقية المجموعة من كلاب الصيد مطاردة هذه الرائحة الغريبة، ولم تكن واثقة تماماً كيف تتعامل مع طريدتها الآن بعد أن حاصرتها.

"حيا الضبع اقترابنا براحة جلية وإظهار للود. ربما كان قد اعتاد على لطف مطرد من البشر، بينما تركت أول تجربة له مع مجموعة من كلاب الصيد انطباعاً سيئاً. بدت كلاب الصيد أكثر من محرجة بينما راحت الطريدة تستعرض ألفتها الفجائية معنا، وكان صوت نفخ واه للبوق يأتي من بعيد ففهمت منه

الكلاب أنه إشارة دعوة إلى رحيل غير مقحم. بقينا كونستانس وأنا والضبع وحدنا في الغسق الآخذ بالتزايد.

"سألت كونستانس : (ما الذي سنفعله؟)

" قلت: (يا لك من طارحة عظيمة للأسئلة؟).

" ردت بحسم: (حسناً، لا نستطيع البقاء هنا مع ضبع.)

" قلت : (لا أعرف ما هي أفكارك المطمئنة، ولكني لا أفكر بالبقاء هنا طوال الليل حتى دون وجود ضبع. قد يكون بيتي بيتاً تعيساً، ولكن على الأقل فيه ماء حار وبارد، وخدمة منزلية، ووسائل أخرى من وسائل الراحة، لن نجدها هنا. الأفضل لنا أن نتجه نحو ذلك الحرف المشجر هناك إلى اليمين. أتصور أن طريق كراولي وراءه بالضبط.)

" خببنا ببطء على امتداد آثار واهية لعجلات عربة، والحيوان يتعقبنا بمرح.

" جاء السؤال المحتوم: (ما الذي سنفعله يا ترى بالضبع)؟

سألت بنزق: (ما الذي يفعله المرء عادة بالضباع)؟

قالت كونستانس: (لم يسبق لي أن تعاملت مع ضبع من قبل).

"(حسناً، ولا أنا. لو أننا كنا نعرف جنسه حتى، لكنا سميناه. ربما ندعوه "إسميه". وهذا اسم يلائم الجنسين).

"كان ما يزال هناك ما يكفي من ضوء النهار ليجعلنا نميّز أشياء تذكر بوجود درب، وشعرت روحانا القلقتان بابتهاج سام حين صادفنا طفلاً غجرياً صغيراً نصف عار يقطف ثمر العليق من شجيرات واطئة. وقد جعله مرأى فارستين وضبع ينطلق بالبكاء، وعلى أي حال فقد كان أمراً شبه مستحيل أن نأخذ أي معلومات جغرافية مفيدة من ذلك الطفل. ولكن كان هناك احتمال أن نصادف مخيماً للغجر في طريقنا. تابعنا السير بأمل ولكن دون رؤية أي شيء لمسافة ميل أو نحوه.

" قالت كونستانس تواً: (أتساءل ما الذي كان يفعله ذلك الطفل هناك؟)

"(من الواضح أنه كان يقطف ثمر العليق).

" تابعت كونستانس: (لا أحب الطريقة التي بكى فيها بها. لا يزال بكاؤه يرن في أذني على نحو ما.)

"لم أؤنب كونستانس على خيالاتها الكئيبة، ولكن الإحساس نفسه بالشعور بأني مطاردة من قبل بكاء نكد ملحّ كان يقحم نفسه على أعصابي التي أنهكت إلى أقصى حد. ومن أجل الصحبة، هتفت لإسميه الذي كان ما يزال متأخراً عنا. وبقفزات قليلة نابضة اقترب منا ثم انطلق عبرنا.

"والآن عرفنا تفسيراً للبكاء المستمر المرافق. كان الطفل الغجري بين فكي الضبع وقد أمسك به بقوة إنما على نحو مؤلم أيضاً.

" صرخت كونستانس: (يا للسماء الرحيمة! ما الذي يمكننا أن نفعله؟ ما الذي سنفعله؟)

" كنت متأكدة تماماً أنه في يوم القيامة ستسأل كونستانس أسئلة أكثر مما سيسأله الملائكة المستنطقون.

" ألحت كونستانس بعينين دامعتين: (ألا نستطيع أن نفعل شيئاً ما؟) بينما راح إسميه يخب أمام جوادينا المتعبين.

" شخصياً، كنت أفعل كل ما يخطر لي في تلك اللحظة. أطلقت وابلاً من الكلمات وعبارات التأنيب والتملق بالإنكليزية والفرنسية ولغة حراس الطرائد. ضربت الهواء بسوطي القصير الذي لا سير له بطريقة غريبة لا يرجى منها شيء. قذفت الوحش بعلبة السندويش، بل إنّي لم أكن أعرف بالفعل ما يمكنني أن أفعله. ومع ذلك، فإننا كنا ما نزال نتحرك بتثاقل عبر الغسق الذي كان يتعمق، وذلك الشكل الداكن الغريب يتحرك بتثاقل أمامنا، وهناك طنين من الموسيقى الكئيبة يطفو في آذاننا. وفجأة انحرف إسميه إلى بعض الشجيرات الكثيفة حيث لا يمكننا ملاحقته. ارتفع البكاء إلى صراخ ثم توقف تماماً. وهذا الجزء

من القصة أرويه دائماً بعجلة لأنه رهيب بالأحرى. وحين عاد الوحش لينضم إلينا بعد غياب دام دقائق قليلة، كان هناك جو من التفاهم الصبور من حوله، وكأنه كان يعرف أنه ارتكب شيئاً لا نوافقه عليه، ولكنه كان يشعر أنه مبرر تماماً.

" سألت كونستانس: (كيف يمكنك أن تتركي ذلك الوحش المفترس يخبّ إلى جانبك؟) كانت تبدو أكثر من أي وقت مضى كجذر شمندر أبرص.

"قلت: (أولاً، لا أستطيع منع ذلك. وثانياً، وفي أسوأ الأحوال، فأنا أشك في أن يكون مفترساً في الوقت الحاضر.)

"ارتعدت كونستانس. أطلقت سؤالاً آخر من أسئلتها العبثية: (هل تعتقدين أن ذلك الطفل الصغير المسكين قد عانى كثيراً؟)

" قلت: (يبدو أن الأمر كذلك. ومن ناحية أخرى، فربكا كان يبكي بسبب مزاجه النكد. أحياناً يفعل الأطفال كذلك.)

" كان الظلام مخيماً تقريباً حين خرجنا فجأة إلى طريق عريضة. مرت بنا التماعة ضوء وسمعنا أزيز محرك في اللحظة نفسها عن قرب وإلى حد مزعج. تبع ذلك صوت مكتوم وصرخة زعيق حادة بعد ثانية من ذلك. توقفت السيارة وحين وصلت إلى تلك البقعة وجدت شاباً ينحني فوق كتلة لا حراك فيها على جانب الطريق.

"صرخت بمرارة: (لقد قتلتَ إسميه، كلبي).

"قال الشاب: (آسف جداً. أنا أملك كلاباً أيضاً، لذلك أعرف شعورك الآن. سأفعل أي شيء أستطيعه لأعوضك عنه.)

"(أرجو أن تدفنه على الفور. هذا ما أعتقد أني سأطلبه منك) .

"قال للسائق: (أحضر المجرفة يا ويليام.) لا شك أن عمليات الدفن السريعة على جوانب الطرقات كانت حالات طوارئ تؤخذ في الحسبان.

"استغرق حفر قبر واسع بما فيه الكفاية بعض الوقت. قال صاحب السيارة بينما كانت الجثة تدحرج إلى داخل القبر: (يا له من كلب كبير . أعتقد أنه كان حيواناً ثميناً بالأحرى).

"أجبت بتصميم: "(لقد حاز على الجائزة الثانية في مدرسة الجراء في برمينغهام العام الماضي).

نخرت كونستانس بصوت مرتفع.

"قلت بصوت واهن: (لا تبك ياعزيزتي. لقد حدث كل ذلك في لحظة. لا يمكن أن يكون تألم كثيراً.)

قال الشاب يائساً: (انظرا إلي، عليكما ببساطة أن تجعلاني أفعل شيئاً ما كنوع من التعويض.)

"عبرت بعذوبة عن رفضي، ولكنه عندما ألحّ عليّ، تركته يأخذ عنواني.

" وبالطبع، أبقينا خطتنا طي الكتمان فيما يتعلق بالأحداث الأولى لذلك المساء. لم يعلن اللورد بابهام قط عن فقدانه لضبعه. فحين ضل حيوان آكل للثمار حصراً من أراضيه قبل عام أو اثنين، فقد فرض عليه أن يقدم تعويضات عن خنق أحد عشر خروفاً وأن يعيد ملء أقنان الدجاج الخاصة بجيرانه . وكان يمكن لضبع هارب أن يفرض عليه تعويضات توصله إلى التنازل عن أملاكه إلى الحكومة. كما لم يعلن الغجر عن فقدان طفل. ولا أعتقد أنهم يعرفون في المخيمات الكبيرة بالفعل العدد الدقيق لأطفالهم لو نقص من عددهم واحد أو اثنان."

توقفت البارونة عن الكلام وهي في حالة تأمل، ثم تابعت:

"كانت هناك تتمة للمغامرة على أي حال. فقد تلقيت عبر البريد دبوساً صغيراً فاتناً للزينة من الألماس، وقد وضع اسم "إسميه" ضمن غصين من البان. ولقد خسرت عرضاً صداقة كونستانس برودل أيضاً. كما ترى، فحين بعت الدبوس رفضت على النحو الملائم أن أعطيها أي حصة من العائدات. لقد أوضحت لها أن المسألة كانت من اختراعي الخاص وأن الجزء المتعلق بالضبع كان يخص اللورد بابهام لو أن ذلك الضبع يخصه فعلاً، ولكن ليس لديّ بالطبع أي دليل على ذلك."

٤- توبرموري

كان عصر يوم بارد مغسول بماء المطر من أواخر شهر آب، في ذلك الموسم الغامض الذي تكون فيه طيور الحجل ما تزال تعيش في أمان أو في حال التخزين البارد، ولا شيء متوفراً للصيد، ما لم يكن يحد ممتلكات المرء من الشمال قناة بريستول، وفي مثل هذه الحالة فقد يخب المرء على حصانه مطارداً الأيائل الحمراء السمينة. لم يكن يحد الحفل المنزلي لليدي بليملي من الشمال قناة بريستول، ولذا فقد كان هناك تجمع كامل لضيوفها حول مائدة الشاي في عصر هذا اليوم بالذات. ورغم شحوب الفصل وابتذال المناسبة، لم يكن هناك أي أثر لقلق متعب في تلك المجموعة مما يعني خوفاً من البيانولا وتوقاً شديداً ملحاً إنما مكبوت للعب البريدج. كان الاهتمام فاغر الفم والجليّ لجماعة الحفل كلها مثبتاً على الشخصية السلبية غير المتكلفة للسيد كورنيليوس أبين. وبين كل ضيوفها كان هذا هو الشخص الذي جاء إلى حفل الليدي بليملي وله سمعة أشد ما تكون غموضاً. كان شخص ما قد قال إنه "ذكي"، وقد تلقى

دعوته بناء على أمل متواضع من جهة مضيفته بأن جزءاً ما على الأقل من ذكائه سيساهم في تلطيف الجو العام للحفل. وحتى موعد الشاي في ذلك اليوم فهي لم تستطع أن تكتشف بأي اتجاه، إن وجد، يكمن ذكاؤه. فهو لم يكن ظريفاً حاضر النكتة ولا بطلاً في الكروكيت، ولم يكن يتمتع بجاذبية مغناطيسية ولا بقدرات مسرحي هاو. كما لم يكن مظهره الخارجي يوحي بأنه ذلك النوع من الرجال الذي تكون النساء مستعدات لأن يغفرن له كماً كبيراً من الآفات العقل. لقد استقر متحولاً إلى مجرد السيد أبين، أما كورنيليوس فبدا جزءاً من خداع تعميدي شفاف. وهاهو يدعي الآن أنه قد طرح على العالم اكتشافاً ليس اختراع البارود ولا المطبعة ولا المحرك البخاري أمامه إلا مجرد تفاهات لا قيمة لها. لقد خطا العلم خطوات مذهلة في اتجاهات كثيرة خلال العقود الأخيرة، ولكن هذا الأمر بدا وكأنه ينتمي إلى عالم المعجزة أكثر من انتمائه إلى الإنجاز العلمي.

كان السير ويلفريد يقول: "وهل تطلب منا حقاً التصديق أنك قد اكتشفت وسيلة لتعليم الحيوانات فن الكلام البشري، وأن عزيزنا توبرموري بالذات قد أثبت أنه أول تلاميذك الناجحين؟"

قال السيد أبين: "إنها مسألة أشتغل عليها منذ سبعة عشر عاماً، ولكني لم أكافأ ببصيص من النجاح إلا خلال الأشهر الثمانية أو التسعة الأخيرة. وبالطبع فقد قمت بتجارب على آلاف من

الحيوانات، ولكني لم أجرب مع القطط إلا مؤخراً، وهي تلك المخلوقات العجيبة التي كيفت أنفسها على نحو رائع مع مدنيتنا وإن كانت قد احتفظت بكل غرائزها الوحشية فائقة التطور. بين جماعة الهررة يقع المرء أحياناً على ذكاء متفوق بارز، كما يحدث بين حشود البشر، وحين تعرفت على توبرموري قبل أسبوع رأيت على الفور أني أتعرف على "هر ماورائي" ذي ذكاء استثنائي. كنت قد سرت على طريق النجاح في التجارب الأخيرة. أما مع توبرموري، كما تسمونه، فقد وصلت إلى الهدف."

وختم السيد أبين بيانه غير العادي بصوت حاول جهده أن يجرده من أي نبرة انتصار. لم يقل أحد " هراء" (بالإنكليزية Rats) رغم أن شفتي كلوفيس تحركتا في التواء ذي مقطع واحد ربما ذكرت بتلك القوارض ذات الجحود. سألت الآنسة رسكر بعد توقف قصير: "وهل تعني أن تقول أنك علمت توبرموري أن ينطق ويفهم جملاً سهلة ذات مقطع واحد؟"

قال صانع العجائب بصبر:" عزيزتي الآنسة رسكر، يعلّم المرء الأطفال الصغار والمتوحشين والراشدين المعوقين عقلياً بذلك الأسلوب التدريجي. وحين يكون المرء قد حل مشكلة صنع البداية مع حيوان ذي ذكاء شديد التطور فلا حاجة به أن يمارس تلك الطرق العرجاء. يستطيع توبرموري أن ينطق بلغتنا على نحو صحيح تماماً."

في هذه المرة قال كلوفيس بوضوح : " جرذان ما ورائية!" كان السير ويلفريد أكثر لطفاً، وإن يكن شكاكاً بالحد نفسه.

اقترحت الليدي بليملي:" أليس من الأفضل لنا أن نحضر القط ونحكم بأنفسنا؟"

ذهب السير ويلفريد ليبحث عن القط واستقرت جماعة الحفل وهي تتوقع بوهن أن تشاهد حيلة التكلم من البطن بطريقة باهرة بالأسلوب الذي يمارس في غرف الاستقبال.

وخلال دقيقة عاد السير ويلفريد إلى الغرفة، بوجه شاحب رغم تلويحة الشمس وبعينين اتسعتا من الإثارة.

" بحق الرب، هذا صحيح!"

كانت استثارته حقيقية دون شك، كما أن سامعيه اندفعوا إلى الأمام في ارتعاشة من الاهتمام المتنبه.

جلس منهاراً في كنبة وتابع قائلاً مبهور الأنفاس:" وجدته نائماً في غرفة التدخين، وناديته ليتناول الشاي. وقد رمش نحوي بطريقته المعتادة، وقلت: "هيا يا توبي. لا تبقنا منتظرين". وأحلف بالرب أنه تشدق بصوت أشد ما يكون طبيعية بأنه سيحضر متى أراد! وقد كدت أقفز من جلدي من الدهشة!"

كان السيد أبين قد ألقى موعظته على سامعين غير مصدقين إطلاقاً. أما ما قاله السير ويلفريد فقد نال تصديقاً فورياً. انطلقت

جوقة أشبه بالجوقة البابلية من التعجب المجفل، وجلس بينها العالم صامتاً وهو يتمتع بأول ثمرات اكتشافه المذهل.

في وسط هذه الجلبة دخل توبرموري الغرفة وشق طريقه بخطى مخملية، وتأمل دون اكتراث في الناس الجالسين حول مائدة الشاي.

حلّ صمت مفاجئ من الاضطراب والارتباك على الجماعة. وعلى نحو ما فقد ظهر عنصر من الحرج في مخاطبة قطّ منزلي ذي قدرة سنّية على قدم المساواة .

سألت الليدي بليملي بصوت متوتر بالأحرى: "هل تريد بعض الحليب ياتوبرموري؟"

وكان الجواب " لا بأس" مغلفاً بلهجة اللامبالاة. واخترقت رعشة من الإثارة المكبوحة أجساد المستمعين، ويمكن إيجاد العذر لليدي بليملي لأنها صبت صحناً من الحليب بيد غير ثابتة على الأغلب.

قالت بلهجة اعتذارية :" أعتقد أني أرقت الكثير من الحليب".

" على أي حال ليست هذه سجادتي من طراز الأكسمنستر"، هكذا أجاب توبرموري.

حلّ صمت آخر على المجموعة، ثم سألته الآنسة رسكر بأفضل أساليب الزائرة المحلية إن كان قد وجد اللغة البشرية

صعبة على التعلم. نظر توبرموري باستقامة إليها للحظة ثم ثبت تحديقته بهدوء نحو الوسط. كان من الواضح أن الأسئلة المملة كانت خارج خطة حياته.

سألت ميفيس بيلينغتون : " ما رأيك بالذكاء البشري؟"

سأل توبرموري ببرود: " ذكاء من يا ترى؟"

قالت ميفيس : حسناً، ذكائي أنا مثلاً ".

قال توبرموري الذي لم توح لهجته وموقفه بأي أثر من آثار الإحراج: " أنت تضعينني في موقف محرج. حين اقترح أن تتم دعوتك إلى هذه الحفلة المنزلية عارض السير ويلفريد قائلاً إنك أكثر النساء اللواتي يعرفهن غباء، وأن هناك فرقاً كبيراً بين الضيافة ورعاية الأشخاص ضعيفي العقول. أجابت الليدي بليملي بأن افتقادك إلى الذكاء كان بالذات الصفة التي تؤهلك لتلقي الدعوة، إذ أنّك الشخص الوحيد الذي تستطيع التفكير فيه والذي هو غبي بما فيه الكفاية ليشتري سيارتهم العتيقة. وأنت تعرفين تلك التي يسمونها (موضع حسد سيزيف) لأنها تصعد التل على نحو جميل تماماً لو دفعتها."

كان يمكن لاحتجاجات الليدي بيلملي أن تكون ذات تأثير أكبر لولا أنها كانت قد اقترحت على نحو عرضي على ميفيس في ذلك الصباح بأن السيارة موضوع البحث كان الشيء الملائم لها تماماً لأجل منزلها في ديفونشاير.

تدخل الرائد بارفيلد بقوة محاولاً تغيير مجرى الحديث:

" وما ذا عن مغامراتك مع تلك الهرة ذات الدرع السلحفاتي في الاسطبلات؟"

وما أن قال ذلك حتى أدرك الجميع الخطأ الفاضح.

قال توبرموري ببرود: " لا يناقش المرء عادة مثل هذه الأمور في العلن. ومن الملاحظة الطفيفة لأساليبك منذ أن دخلت هذا المنزل عليّ أن أتخيل أنك تجد الأمر غير ملائم لو كنت سأنقل موضوع الحديث إلى شؤونك الصغيرة."

أما الفزع الذي سببه فلم يكن مقتصراً على الرائد.

" هل تود الذهاب لترى إن كان الطباخ قد أعد عشاءك؟" هذا ما قالته الليدي بليملي بسرعة وهي تتظاهر بتجاهل حقيقة أنه لا زالت هناك ساعتان قبل أن يحل موعد عشاء توبرموري.

قال توبرموري: " شكراً، لن أتناوله بهذه السرعة بعد أن تناولت الشاي. لا أريد أن أموت من التخمة."

قال السير ويلفريد بحماسة: " للقطط تسع أرواح كما تعلم".

أجاب توبرموري: " ربما، ولكن لها كبد واحدة فقط."

قالت السيدة كورنيت:" أديلايد! هل تقصدين أن تشجعي ذلك القط على الخروج ليمارس القيل والقال عنّا في غرفة الخدم؟"

كان الرعب قد أصبح عاماً بالفعل. كان هناك درابزون مزخرف ضيق يحيط بمعظم غرف النوم في الدار وتذكر الجميع بفزع أن هذا الدرابزون كان يشكل مكان التنزه المفضل لتوبرموري في كل الأوقات، ومنه يستطيع أن يراقب الحمامات - والسماء وحدها تعرف ما يراقبه أيضاً علاوة على ذلك. لو كان ينوي أن يصبح مولعاً باستعادة الذكريات في مزاجه الصريح الحالي فإن التأثير سيكون شيئاً أكثر من مجرد إثارة الاضطراب. نظرت السيدة كورنت، التي كانت تنفق الكثير من الوقت على طاولة زينتها، والتي اشتهرت بمزاجها البدوي رغم دقتها، بارتباك إلى إلى الرائد. أما الآنسة سكراون التي كانت تنظم أشعاراً حسية رهيبة وتعيش حياة بريئة، فقد أبدت بعض السخط فحسب؛ إن كنت منهجياً وفاضلاً في السر فأنت لا تريد بالضرورة أن يعرف ذلك الجميع. أما بيرتي فان تان الذي كان شديد الفساد في سن السابعة عشرة بحيث تخلى منذ زمن طويل عن محاولة أن يصبح أسوأ من ذلك، فقد شحب لونه فأصبح ببياض زهرة الغاردينيا، ولكنه لم يرتكب خطا الاندفاع خارجاً من الغرفة شأن أودو فينسبيري، وهو شاب كان يدرس اللاهوت وربما أحس بالاضطراب من فكرة الفضائح التي قد يسمعها عن أشخاص آخرين. كان كلوفيس حاضر الذهن بحيث حافظ على مظهر هادئ: أما في السر فكان يحسب كم من الوقت يستغرق

شراء علبة من الفئران الغريبة باهظة الثمن عبر وكالة "إكستنشج ومارت" كنوع من الرشوة.

وحتى في وضع دقيق كما في الوقت الحالي، فإن أغنس رسكر لم تستطع تحمل البقاء طويلاً في الخلف.

سألت بلهجة دراماتيكية: " لم نزلت إلى هنا ؟"

سرعان ما قبل توبرموري الافتتاحية.

" لو أردت أن أحكم من خلال ما قلته للسيدة كورنت على مرج الكروكيت البارحة، فقد كنت قد خرجت طلباً للطعام. وقد وصفت آل بليملي على أنهم أكثر الأشخاص الذين سبق لك أن ساكنتهم إثارة للملل، ولكنهم أذكياء بما فيه الكفاية بحيث استخدموا طباخاً من الدرجة الأولى؛ ولولا ذلك لكان من الصعب جعل أي شخص يعود لزيارتهم مرة أخرى."

صرخت آغنس التي شعرت بالخزي: " ليست هناك كلمة واحدة تدل على الحقيقة في ذلك! أرجو من السيدة كورنيت..."

تابع توبرموري قائلاً: " كررت السيدة كورنت ملاحظتك هذه لاحقاً أمام بيرتي فان تان، وقالت إن تلك المرأة من النوع الذي يسير بانتظام في مسيرات الجوع. إنها مستعدة للذهاب إلى أي مكان لأجل أربع وجبات أكيدة في اليوم، وقال بيتري فان تان..."

في هذه اللحظة توقف سرد الأحداث على نحو رحيم. كلن توبرموري قد لمح "توم" الأصفر الكبير من بيت القسيس وهو يشق طريقه عبر الشجيرات باتجاه جناح الإسطبل. وفي لحظة كان قد اختفى عبر النافذة المفتوحة ذات الطراز الفرنسي.

ومع اختفاء تلميذه اللامع جداً، فإن كورنيليوس أبين وجد نفسه وقد هاجمه إعصار من اللوم المر، والاستفسارات القلقة والتوسل الخائف. كانت مسؤولية الموقف تقع على عاتقه، وعليه أن يمنع الأمور من أن تسوء أكثر. هل يستطيع توبرموري أن ينقل موهبته الخطيرة إلى قطط أخرى؟ كان ذلك هو السؤال الأول الذي اضطر إلى أن يجيب عليه. كان من الممكن، كما أجاب، أن يكون قد درّب صديقه الحميم، هرّ الإسطبل، على إنجازه الجديد، ولكن من غير المحتمل أنه قد توسع في نشر تعاليمه حتى ذلك الحين.

قالت السيدة كورنيت: "إذن، قد يكون توبرموري قطاً ثميناً وحيواناً مدللاً عظيماً؛ ولكني على ثقة من أنكِ ستوافقين يا أديلايد أنه وهر الإسطبل يجب التخلص منهما دون تأخير. قالت الليدي بليملي بمرارة: " لا تفترض أني استمتعت آخر ربع الساعة، هل تعتقد ذلك؟ زوجي وأنا شديدا التعلق بتوبرموري... على الأقل كنا كذلك قبل أن ينفخ فيه هذا الإنجاز الرهيب؛ ولكن الأمر الوحيد الآن هو أن يتم التخلص منه بأسرع وقت ممكن بالطبع؟"

قال السير ويلفريد: "نستطيع أن نضع بعض الإستركنين في فتات الطعام الذي يناله دوماً في وقت العشاء، وسوف أذهب وأغرق هر الإسطبل بنفسي. وسيغضب الحوذي كثيراً لفقدان حيوانه المدلل، ولكني سأقول إن نوعاً شديد العدوى من الجرب قد أصاب كلا الهرين وأننا خشينا من انتشاره إلى وجار الكلاب."

اعترض السيد أبين قائلاً: "وماذا عن اكتشافي العظيم! بعد كل سنوات البحث والتجريب ..."

قالت السيدة كورنت: "تستطيع أن تذهب وتجرب على البقرات قصيرة القرنين في المزرعة التي هي تحت المراقبة الملائمة، أو الفيلة في حديقة الحيوان. يقال إنها شديدة الذكاء كما أنّها حصلت على التوصية التالية التي تقول إنها لا تأتي زاحفة من حول غرف نومنا ومن تحت الكراسي وهكذا دواليك."

ما كان يمكن لملاك من كبار الملائكة وهو يعلن بوجد حلول العصر الألفي السعيد (الذي سيكون فيه المسيح ملكاً على الأرض كلها) ثم يتبين له أنه اصطدم على نحو لا يغتفر بهينلي وعليه أن يؤجل الأمر إلى أجل غير محدود، ما كان يمكنه أن يشعر بخيبة الأمل أكثر مما شعر به كورنيليوس أبين من الاستقبال الذي لاقاه إنجازه الرائع. كان الرأي العام ضده على أي حال: وفي الواقع فلو تمت استشارة العموم حول الموضوع

فمن المحتمل أن أقلية قوية كانت ستصوت إلى جانب جعله هو أيضاً يتناول وجبة الإستركنين.

منعت الترتيبات الناقصة للسفر بالقطار والرغبة العصبية برؤية الأمور تصل إلى نهايتها من تشتت الحفل فوراً، ولكن العشاء لم يحقق في ذلك المساء نجاحاً اجتماعياً. مرّ السير ويلفريد بوقت عصيب مع هر الإسطبل وبالتالي مع الحوذي. وقد تفاخرت أغنس رسكر بأن اقتصرت وجبتها على قطعة من التوست اليابس التي راحت تعضها وكأنها عدو شخصي، بينما حافظت ميفيس بلينغتون على صمت حقود عبر الوجبة كلها. حافظت الليدي بليملي على تدفق في الكلام أملت أن يتحول إلى محادثة، ولكن اهتمامها كان مثبتاً على المدخل. كان طبق مليء بفتات سمكة فيها جرعة مدروسة من السم جاهزاً على البوفيه، ولكن الحلويات والمقبلات والعقبة من الحلوى قدمت ولم يظهر توبرموري لا في غرفة الطعام ولا في المطبخ.

كان العشاء الجنائزي مرحاً بالمقارنة مع السهرة اللاحقة في غرفة التدخين. وفّر الأكل والشرب بعض التسلية وسترا الحرج السائد. كان لعب البريدج مستحيلاً ضمن التوتر العام للأعصاب والأمزجة، وبعد أن غنى أودو فينسبري " ميليزاند في الغابات" بحزن أمام جمهور مصاب بالبرود، فإن الموسيقى تم تجنبها بصمت. في الساعة الحادية عشرة، أوى الخدم إلى الفراش،

معلنين أن النافذة الصغيرة في غرفة المؤونة قد تركت مفتوحة كالعادة حتى يستعملها توبرموري كعادته. راح الضيوف يقرأون بثبات في الدفعة الحالية من المجلات، ثم عادوا تدريجياً إلى " مكتبة بادمينتون" والكتب المجلدة من سلسلة " بنتش". كانت الليدي بليملي تقوم بزيارات إلى غرفة المؤونة، وتعود كل مرة بتعبير كآبة قلقة تستبق الاستفسارات.

في الساعة الثانية اخترق كلوفيس الصمت السائد.

" لن يظهر هذه الليلة. ربما هو في مكتب الصحيفة المحلية في هذه اللحظة بالذات، يملي أول حلقة من ذكرياته. لن تظهر حلقة كتاب الليدي التي لا أتذكر اسمها غداً. ستكون حلقة توبرموري حادث اليوم المدوي."

بعد أن قدم هذه المساهمة في المرح العام السائد، مضى كلوفيس إلى الفراش. وقد سار على خطاه مختلف أعضاء الحفل المنزلي يفصل بين الواحد منهم والآخر فترة طويلة.

أعلن الخدم وهم يقدمون الشاي في وقت مبكر على نحو متسق جواباً على الاستفسار أن توبرموري لم يعد بعد.

كان الفطور وظيفة أكثر إزعاجاً من العشاء، ولكن قبل انتهائه عرف الوضع بعض الانفراج. جلبت جثة توبرموري من بين الشجيرات، حيث كان أحد البستانيين قد وجده للتو. ومن

العضات في عنقه والفرو الأصفر الذي غطى مخالبه تبين أنه كان قد اشتبك في معركة غير متكافئة مع القط توم الضخم من بيت القسيس.

مع حلول منتصف النهار كان معظم الضيوف قد غادروا القصر، وبعد الغداء كانت الليدي بليملي قد استردت معنوياتها إلى حد كاف لتكتب رسالة فاحشة إلى بيت القسيس حول فقدان حيوانها المدلل الغالي.

كان توبرموري أحد تلامذة "أبين" الناجحين، ولكن لم يقدر له أن يخلف أحداً. بعد أسابيع قليلة فإن فيلاً في حديقة حيوان درسدن، والذي لم يكن قد أبدى سابقاً أي علامات تدلّ على النزق، قد أفلت من عقاله وقتل رجلاً إنكليزياً كان يثير غيظه على ما يبدو. كان اسم الضحية قد ورد في الصحف باسم "أوبين" و"إبلين"، ولكن اسمه الأول ورد صحيحاً "كورنيليوس".

قال كلوفيس: " لو كان يحاول تعليم ذلك الحيوان البائس الأفعال الشاذة الألمانية، فقد استحق ما ناله."

* * *

٥- نمر السيدة بكلتايد

كان من دواعي سرور السيدة بكلتايد وفي نيتها أن تقتل نمراً بالرصاص. ولم يكن الأمر يتجلى في أن شهوة القتل قد هبطت عليها فجأة أو أنها شعرت أنها ستغادر الهند وهي أكثر أماناً وصحة مما وجدتها حين وصلت إليها، مع إنقاص جزء صغير من مليون من نموره. كان الدافع الملح لهذا الانحراف المفاجئ على أعقاب نمرود هو حقيقة أن لونا بيمبرتون قد حُملت مسافة أحد عشر ميلاً في طائرة من قبل طيار جزائري، ولم تكن تتحدث عن أي شيء آخر. وما كان من شأن أي شيء آخر أقل من جلد نمر تم الحصول عليه شخصياً وحصاد ثقيل من الصور الصحفية أن يشكل رداً ناجحاً على تلك المغامرة. كان قد سبق للسيدة بكلتايد أن رتبت في ذهنها وليمة الغداء التي ستقيمها في منزلها في شارع كيرزون، ظاهرياً على شرف لونا بيمبرتون، ولكن جلد النمر سيحتل معظم مقدمة الأرضية وكذلك معظم الحديث. كما سبق لها أن صممت في ذهنها دبوس الزينة

المصنوع من مخلب النمر الذي ستقدمه إلى لونا بيمبرتون في عيد ميلادها القادم. في عالم من المفترض أن الفقر والحب يجتاحانه كانت السيدة بكلتايد استثناء. فقد كانت حركاتها ودوافعها متحكماً بها إلى حد كبير بكُرهِ لونا بيمبرتون.

وقد أثبتت الظروف أنها ملائمة. لقد عرضت السيدة بكلتايد ألف روبية على من يتيح لها فرصة إطلاق النار على نمر دون خطر أو جهد كبيرين، وقد حدث أن قرية مجاورة كانت قادرة على التبجح بأنها المنتجع المفضل لحيوان ذي أسلاف محترمين، وقد دفعته أوصاب الشيخوخة إلى التخلي عن صيد الطرائد وهاهو قد اقتصر في وجباته على الحيوانات الداجنة الصغيرة. وقد كان من شأن احتمال ربح ألف روبية أن حفز الغريزة الرياضية والتجارية للقرويين. فقد وضع الأطفال في مواقع محددة ليلاً ونهاراً على أطراف الغابة المحلية لجعل النمر يعود في حال أنه حاول التجول بعيداً بحثاً عن مجال جديد للصيد، كما تركت الأنواع الأرخص من الماعز في أنحاء المكان بإهمال متعمد لجعله يشعر بالرضا في منتجعه الحالي. أما المصدر الأساسي للقلق فكان أن يموت النمر فجأة من الشيخوخة قبل الموعد المحدد لحفلة الصيد الخاصة بالمصاحب (السيدة الأجنبية البيضاء). كانت الأمهات الحاملات لأولادهن في الطريق إلى البيت عبر الغابة بعد العمل النهاري في

الحقول يخفضن من أصواتهن عند الغناء حتى لا يقلقن سارق القطيع المبجل وهو نائم.

حلت الليلة العظيمة في الوقت المناسب، فكانت مقمرة وصافية. تم إنشاء مصطبة في شجرة مريحة وذات موقع ملائم، وهناك ربضت السيدة بكلتايد ورفيقتها المأجورة، الآنسة ميبين. وقد تم ربط عنزة موهوبة بثغاء ملحٍّ على نحو خاص، وهو ثغاء من شأنه أن يجعل حتى النمر المصاب بصمم جزئي أن يسمعه على نحو معقول في ليلة هادئة، إلى وتد على مبعدة ملائمة. وببندقية مجهزة جيداً للتصويب وورق لعب بحجم الإبهام لممارسة لعبة الصبر، فإن المرأة الرياضية راحت تنتظر وصول الطريدة.

قالت الآنسة مبين: "أعتقد أننا معرضون لبعض الخطر."

لم تكن قلقة بالفعل من الحيوان البري، ولكن كانت تعاني من خوف مرضي من أن تقدم ذرة من الخدمة تزيد عما يستحقه الأجر الذي تلقته.

قالت السيدة بكلتايد: " هراء. إنه نمر عجوز جداً. لن يتمكن من القفز إلى هذا الارتفاع حتى لو أراد ذلك."

" إن كان نمراً عجوزاً فأعتقد أنه كان عليك أن تدفعي سعراً أقل. إن ألف روبية مبلغٌ كبير من المال. "

كانت لويزا ميبين تتخذ وضعية الأخت الكبرى الحمائية تجاه المال عموماً، بغض النظر عن الجنسية أو التسمية. كان تدخلها الحيوي قد أنقذ الكثير من الروبلات من أن تبذر في بقشيش في فندق ما في موسكو، كما كانت الفرنكات والسنتيمات تلتصق بها غريزياً في ظروف كان من شأنها أن تجعلها تندفع بتهور عن أيد أقل تعاطفاً. قوطعت تحميناتها بالنسبة إلى انخفاض سعر السوق فيما يخص بقايا النمر بظهور الحيوان نفسه على المشهد. فما إن رأى العنزة المربوطة حتى انبطح على الأرض، وذلك ربما ليس من رغبة في الاستفادة من جميع ما هو متوفر من التغطية بل بالأحرى بغرض اقتناص راحة قصيرة قبل البدء بالهجوم الكبير.

قالت لويزا ميبين بصوت مرتفع باللغة الهندوستانية حتى يسمعها زعيم القرية الذي كان يكمن في شجرة قريبة: "أعتقد أنه مريض".

قالت السيدة بكلتايد: " صه!" وفي تلك اللحظة بدأ النمر يسير بتمهل نحو الضحية.

حثت الآنسة ميبين ببعض الاستثارة:" الآن، الآن! إذا لم يلمس العنزة فلن نكون في حاجة إلى دفع ثمنها." (كان ثمن الطعم سيدفع بشكل إضافي).

انطلقت البندقية بصوت مرتفع، وقفز الحيوان الأسمر المصفر الضخم إلى جانب ثم تقلب حتى اعتراه سكون الموت. وخلال لحظة كان جمهور من السكان الأصليين المستثارين قد اندفع نحو المشهد، وحملت صرخاتهم بسرعة النبأ السعيد إلى القرية، حيث كان قرع الطبول يرافق جوقة الفرح. وقد وجد نصرهم واحتفالهم صدى جاهزاً في قلب السيدة بكلتايد: . لقد بدت وليمة الغداء في شارع كيرزون أقرب إلى حد لا يقاس.

كانت لويزا ميبين هي التي لفتت الانتباه إلى حقيقة أن العنزة كانت تعاني من سكرات الموت بسبب جرح مميت من طلق ناري، بينما لم يكن هناك أي أثر مميت لرصاص البندقية على النمر. من الواضح أن الحيوان الخطأ هو الذي أصيب، وقد سقطت الطريدة ميتة من سكتة قلبية سبّبها صوت إطلاق النار المفاجئ من البندقية، وسرّعها وهن الشيخوخة. انزعجت السيدة بكلتايد على نحو ممكن غفرانه من هذا الاكتشاف، ولكن هاهي وقد أصبحت على أي حال مالكة لنمر ميت، وكان القرويون التواقون إلى نيل الروبيات الألف مستعدين للتواطؤ بسعادة والزعم بأنها هي التي قتلت الوحش. وكانت الآنسة ميبين مرافقة مدفوعة الأجر. لذلك واجهت السيدة بكلتايد الكاميرات بقلب دون قلق، وقد وصلت شهرتها المصورة إلى صفحات " اللقطات المصورة في "تكساس ويكلي" ثم إلى الملحق المصور الذي يصدر يوم الاثنين عن صحيفة "نوفوي

فريميا" الروسية (الوقت الجديد). أما فيما يخص لونا بيمبرتون، فقد رفضت أن تنظر إلى صحيفة مصورة أسابيع بحالها، كما كانت رسالة الشكر على هدية دبوس الزينة المؤلف من مخلب النمر نموذجاً للانفعالات المكبوحة. وقد رفضت حضور وليمة الغداء. هناك حدود تصبح بعدها الانفعالات المكبوحة خطرة.

ومن شارع كيرزون سافر بساط جلد النمر إلى قصر العزبة، وقد كان موضعاً للمعاينة وإبداء الإعجاب من قبل المقاطعة كلها، وتبين أنه ملائم ومناسب حين مضت السيدة بكلتايد إلى حفل الرقص وعرض الأزياء في المقاطعة وقد تزيت بزي ديانا إلهة الصيد. وقد رفضت على أي حال اقتراح كلوفيس المغري بإقامة حفلة رقص بدائية، يرتدي فيها كل شخص جلود الحيوانات التي ذبحت مؤخراً. اعترف كلوفيس:" كنت أفضل بالأحرى أن أتزيا كطفل مع جلد أرنب بائس أو اثنين. " ثم أضاف وهو يرنو بنظرة شريرة إلى أبعاد جسم ديانا:" جسدي جيد بقدر ذلك الراقص الروسي."

قالت لويزا ميبين بعد أيام قليلة من الحفل الراقص:" كم سيضحك الجميع لو عرفوا ما الذي حدث فعلا."

سألت السيدة بكلتايد بسرعة:" ما الذي تعنينه؟"

قالت الآنسة ميبين وهي تضحك ضحكتها التي تبعث على السرور بشكل كريه: "كيف أصبت العنزة وأخفت النمر حتى الموت."

قالت السيدة بكلتايد "لن يصدق أحد ذلك" بينما كان لون وجهها يتبدل بسرعة وكأنها تتصفح كتاب نماذج التفصيل قبل تسليم البريد.

قالت الآنسة ميبين: "ستصدقها لورا بيمبرتون". استقر وجه السيدة بكلتايد على لون أبيض تشوبه الخضرة.

سألتها: "أنت لن تخونيني، أليس كذلك؟"

قالت الآنسة ميبين دون أن تجعل للأمر علاقة بالموضوع: " لقد شاهدت كوخاً لتمضية عطلة نهاية الأسبوع قرب دوركينغ وأود بالأحرى شراءه. سعره ستمائة وثمانون جنيهاً، وهو امتلاك حر. صفقة جيدة، ولكني لا أملك ذلك المبلغ."

* * *

أصبح كوخ لويزا ميبين الجميل الخاص عطلة نهاية الأسبوع والذي أطلقت عليه اسماً فرنسياً "الوحوش الشقر" والمثير للبهجة في الصيف بزهور ليلك النمر التي تطوق حديقته، موضع دهشة وإعجاب أصدقائها.

وكان الحكم العام الذي صدر كما يلي: "يا لها من أعجوبة أن تستطيع لويزا تدبير ذلك".

لم تمارس السيدة بكلتايد أي صيد للوحوش الكبيرة بعد ذلك.

أسرت لصديقاتها المتسائلات: "النفقات الثانوية باهظة جداً."

٦- سريدني فشتار

كان كونراديان في العاشرة من عمره حين أبدى الطبيب رأيه المهني بأن الصبي ما تزال أمامه خمس سنوات أخرى يعيشها. كان الطبيب ناعماً كالحرير وواهناً، لا يملأ العين، ولكن السيدة دو روب، التي كانت تملأ العين، صادقت على رأي الطبيب. كانت السيدة دو روب ابنة عم كونراديان والوصية عليه، وكانت تمثل بالنسبة إليه تلك الأخماس الثلاثة من العالم الضرورية والكريهة والحقيقية. أما الخمسان الآخران، العداء الدائم لما سبق، فكانا يُختصران على أنهما شخصه ومخيلته. في أحد الأيام افترض كونراديان أنه سيستلم أمام الضغط القاهر للأمور الضرورية المرهقة: مثل المرض وقيود التدليل والكسل المتطاول. ولولا مخيلته التي كانت مفرطة النشاط تحت تأثير الوحدة، لكان قد استسلم للموت منذ زمن طويل.

لم يكن من شأن السيدة دو روب، في أكثر لحظاتها صدقاً، أن تعترف لنفسها بأنها تكره كونراديان، مع أنها كانت على وعي

غامض بأن معارضته "من أجل صالحه" كان واجباً لم تكن تجده مزعجاً على نحو خاص. كانت كونراديان يكرهها بإخلاص يائس بحيث لا يستطيع إخفاء ذلك الكره تماماً. أما تلك المسرات التي كان يستطيع أن يستنبطها لنفسه فكانت تكسبه متعة إضافية لاحتمال أنها قد تكون مزعجة للوصية عليه. كان قد اقفل أمامها عالم مخيلته، كشيء قذر لا يجب أن يتاح له الدخول.

لم يكن يجد أي تسلية في الحديقة المملة الكئيبة التي تطل عليها الكثير من النوافذ الجاهزة للفتح مع رسالة تقول لا تفعل هذا أو ذاك، أو تذكير بأن موعد تناول الدواء قد حان. كما كانت أشجار الفاكهة التي في الحديقة بعيدة بشكل ضنين عن قدرته على قطفها، وكأنها كانت عينات من جنسها تزهر في أرض يباب قاحلة. ومن الأرجح أنه ما كان ممكناً إيجاد تاجر فواكه مستعد لعرض عشرة شلنات مقابل كامل غلتها السنوية. وعلى أية حال، ففي زاوية منسية، كانت هناك حجرة مهجورة للأدوات ولكنها ذات حجم كبير ومختبئة خلف شجيرات كئيبة. ضمن جدرانها وجد كوندريان ملاذه، فأصبحت بالنسبة إليه شيئاً هو بين غرفة للألعاب وكاتدرائية. وقد أسكن فيها جيشاً من الأشباح المعهودة، مستحضرة جزئياً من أجزاء من التاريخ وجزئياً من عقله هو، ولكنها كانت تفاخر أيضاً بنزيلين من لحم ودم. في إحدى الزوايا كانت تعيش دجاجة من نوع "الهودان" ذات ريش أشعث، ولكن الصبي كان يغدق عليها عاطفةً لم تكن تجد منفذاً آخر.

وإلى الخلف في العتمة كان قفص كبير مؤلف من قسمين، أحدهما كان ذا باب له قضبان من الحديد. وكان هذا هو مسكن ابن مقرض (الشبيه بابن عرس) ذي حجم كبير. وكان صبي الجزار الودود قد هرّب هذا الحيوان من أجل كوندريان مع قفصه، ووضعه في مكانه الحالي، مقابل ذخيرة من القطع النقدية الفضية التي كان الصبي يوفرها منذ زمن طويل. كان كوندريان يخاف إلى حد كبير من الوحش الرشيق ذي المخالب الحادة، إلا أن هذا كان أثمن ممتلكاته. كان وجوده في حجرة الأدوات متعة سرية ومخيفة، وكان ينبغي إبقاؤه بكل حذر سراً لا تعرف به "المرأة"، كما كان يسمي ابنة عمه تلك. وفي أحد الأيام، ومن حيث لا تدري سوى السماوات من أين، فقد منح الوحش اسماً رائعاً، ومنذ تلك اللحظة تحول ذاك الوحش إلى إله ودين. كانت "المرأة" تمارس العبادة مرة في الأسبوع في كنيسة مجاورة، وكانت تصطحب كونراديان معها، ولكن كانت الصلاة في الكنيسة بالنسبة إليه طقساً غريباً في "بيت رمون"[١]. في كل يوم خميس، في عتمة حجرة الأدوات وصمتها العفن، كان يتعبد بطقوس باطنية ومعقدة أمام القفص الخشبي حيث يقطن "سريدني فشتار"، ابن مقرض العظيم. كانت الورد الحمراء في موسمها

---

(١) إله سوري ذكر في العهد القديم، سفر الملوك (٢)، الإصحاح الخامس، ١٨ . (المترجم)

والتوت القرمزي في الشتاء تقدم إلى مزاره، فقد كان إلهاً يشدد بشكل خاص على ذلك الجانب المفترس نافد الصبر من الأمور، بالتعارض مع دين "المرأة" الذي كان، حسب ما استطاع كونراديان أن يلاحظه، يمضي إلى حد بعيد في الاتجاه المعاكس. وفي الأعياد العظيمة كانت جوزة طيب مسحوقة تنثر أمام القفص، وهذه خاصية هامة من خواص التقدمة حيث أن جوزة الطيب تكون مسروقة. وهذه الأعياد كانت تجري على نحو غير منتظم، وكان يتم تحديد مواعيدها من أجل الاحتفال بحدث عارض ما. في إحدى المناسبات، وحين كانت السيدة دو روب تعاني من ألم شديد في أسنانها دام ثلاثة ايام، استمر كونراديان في الاحتفال خلال الأيام الثلاثة كلها، وكاد ينجح في إقناع نفسه أن سريدني فشتار كان مسؤولاً بصفة شخصية عن ألم أسنانها. ولو دام المرض يوماً آخر فإن المخزون من جوز الطيب كان سينفد.

لم تكن دجاجة الهودان جزءاً من طقس عبادة سريدني فشتار. كان كونراديان قد اعتبرها منذ زمن طويل على أنها تنتمي إلى طائفة "القائلين بتجديد العماد"[١]. ولم يكن يدعي أنه يعرف أي

(١) طائفة بروتستانتية نشأت في أوروبا بعيد عام ١٥٢٠ وتميزت بالشروط القاسية التي وضعتها لعضوية الكنيسة وبإصرارها على إعادة تعميد البالغين ورفض عماد الأطفال (قاموس المورد).

شيء عن هذه الطائفة، ولكنه كان يأمل أن يكون أعضاؤها جريئين وليسوا جديرين بالاحترام كثيراً. كانت السيدة دو روب هي المخطط الرئيسي الذي كان يحتقر ويكره على أساسه كل ما هو جدير بالاحترام.

بعد فترة من الزمن، بدأ انهماك كونراديان في حجرة الأدوات يلفت انتباه الوصية عليه. وقد قررت بسرعة عند وجبة الفطور في صباح أحد الأيام "أنه ليس بالأمر المناسب له أن يقضي كل ذلك الوقت في ذلك المكان في كل أصناف الطقس". وأعلنت أن دجاجة الهودان قد بيعت وأبعدت خلال الليلة الماضية. وبعينيها الحسيرتين حدقت إلى كونراديان الذي كان ينتظر منها أن تنفجر في نوبة من الغضب والأسى، والتي كان مستعداً أن يرد عليها بدفق من التعاليم الأخلاقية والمنطقية الممتازة. ولكن كونراديان لم ينبس ببنت شفة: لم يكن هناك ما يقال. وربما سبّب لها شيء ما في وجهه الشاحب الجامد شيئاً من وخز الضمير المؤقت، ففي موعد شرب الشاي في عصر ذلك اليوم كانت هناك قطعة من الخبز المحمص على المنضدة، وكان الخبز المحمص نوعاً من الطعام المترف المحظور على أساس أنه يضر بصحته. كما أن صنعه "يسبب المشاكل"، وهذه جريمة مميتة في نظر الأنثى المنتمية إلى الطبقة الوسطى.

صاحت بلهجة مكلومة، وهي تلاحظ أنه لم يلمس الخبز المحمص: "ظننت أنك تحب الخبز المحمص."

قال كونراديان: "أحياناً."

في حجرة الأدوات في ذلك المساء حدث تجديد في عبادة إله القفص. كان من عادة كونراديان أن يرتل المدائح له، أما في هذه الليلة فقد طلب نعمة من الإله.

"إفعل شيئاً واحداً لي يا سريدني فشتار."

لم يتم تحديد ذلك الشيء. فبما أن سريدني فشتار كان إلهاً فإنه من المفترض أن يعرف. كبت كونراديان بكاءه وهو ينظر إلى الزاوية الأخرى الفارغة، ثم عاد إلى العالم الذي يكرهه كثيراً.

وفي كل ليلة، في عتمة غرفة نومه التي يحبها، وفي كل مساء في غسق حجرة الأدوات، كانت ابتهالاته المريرة تتصاعد: "إفعل شيئاً واحداً من أجلي يا سريدني فشتار."

لاحظت السيدة دو روب أن الزيارات إلى حجرة الأدوات لم تتوقف، وفي أحد الأيام قامت برحلة تفتيش جديدة.

سألته: "ما الذي تحتفظ به في ذلك القفص؟ أعتقد أنها خنازير هندية؟ سأتخلص منها جميعاً."

زمّ كونراديان شفتيه بقوة، ولكن "المرأة" فتشت في غرفة نومه حتى وجدت المفتاح الذي كان مخبأ بعناية، وانطلقت مباشرة نحو حجرة الأدوات لاستكمال اكتشافاتها. كان العصر

بارداً وكان كونراديان قد أمر بأن يبقى في المنزل. ومن أبعد نافذة من نوافذ غرفة الطعام، كان ممكناً مشاهدة باب حجرة الأدوات إلى ما وراء ركن الشجيرات، وهناك وضع كونراديان نفسه. رأى "المرأة" تدخل، ثم تخيلها وهي تفتح باب القفص المقدس وتحدق بعينيها الحسيرتين إلى سرير القش السميك حيث كان إلهه مختبئاً. ربما ستنخس القش بيدها بنفاد صبرها الأخرق. وتلفظ كونراديان بحماسة صلاته للمرة الأخيرة. ولكنه كان يعرف وهو يصلي أنه لم يكن يؤمن. كان يعرف أن "المرأة" ستخرج في الحال بشفتيها المزمومتين الكريهتين على وجهها، وأنه خلال ساعة أو ساعتين فإن الجنائني سيحمل إلهه الرائع إلى مكان بعيد، وهو لن يعود إلهاً، بل مجرد ابن مقرض بسيط بني اللون في قفص. وكان يعرف أن "المرأة" ستنتصر دائماً كما انتصرت الآن، وأنه سيصبح أكثر سقماً بخضوعه لحكمتها المزعجة والمتسلطة والمتفوقة، حتى لا يعود أي شيء يهم بالنسبة إليه ويكون رأي الطبيب صحيحاً. بدأ يرتل بصوت مرتفع وبتحد ترتيلة إلهه المعرض للتهديد تحت لسع وبؤس هزيمته:

" انطلق سريدني فشتار إلى الأمام،

كانت أفكاره حمراء وأسنانه بيضاء.

طلب أعداؤه السلام ولكنه جلب لهم الموت.

سريدني فشتار الجميل."

وفجأة أوقف ترتيله واقترب من زجاج النافذة. كان باب حجرة الأدوات ما يزال مفتوحاً كما ترك سابقاً، وكانت الدقائق تمر ببطء. كانت دقائق طويلة ولكنها راحت تمر على أي حال. راح يراقب الزرازير وهي تعدو وتطير في مجموعات صغيرة عبر المرج. بدأ يعدها مرة إثر الأخرى، مع إحدى عينيه مثبتة دائماً على الباب المتأرجح. دخلت خادمة ذات وجه نكد لترتب منضدة الشاي، وما يزال كونراديان واقفاً ينتظر ويراقب. كان الأمل قد بدأ يتسلل إلى قلبه، والآن هاهي نظرة النصر وقد بدأت تلتهب في عينيه اللتين لم تعرفا سوى صبر الهزيمة الحزين. شرع يرتل مجدداً تسبيحة النصر والدمار. وسرعان ما كوفئت عيناه: خرج من ذلك الباب وحش طويل الجسم خفيضه، لونه بني وأصفر، وعيناه ترمشان لرؤية نور النهار المضمحل، وقد ظهرت بقع داكنة ورطبة على فرو فكيه وحنجرته. سقط كونراديان على ركبتيه. شق ابن مقرض العظيم طريقه نحو جدول صغير عند أسفل الحديقة، شرب منه لدقيقة، ثم عبر جسراً خشبياً صغيراً وبعدها لم يكن ممكناً مشاهدته بين الشجيرات. هكذا حدث عبور سريدني فشتار.

قالت الخادمة نكدة الوجه: "الشاي جاهز. أين السيدة؟"

قال كونراديان: "لقد نزلت إلى حجرة الأدوات منذ بعض الوقت".

وبينما مضت الخادمة لتستدعي السيدة لتناول الشاي، كان كونراديان قد أخذ شوكة الخبز المحمص من درج الخوان وبدأ يحمص قطعة خبز. وخلال التحميص ووضع كمية كبيرة من الزبدة عليها، والاستمتاع البطيء بأكلها، أصغى كونراديان إلى الضجيج والصمت اللذين كانا يتناوبان ما وراء باب غرفة الطعام. كان الصراخ العالي الأحمق للخادمة، والكورس من الصرخات الصادرة من منطقة المطبخ الذي كان يجيبها، ووقع الأقدام السريع، والرسل الذين طلب إليهم الذهاب لطلب النجدة، ثم، وبعد فترة هدوء قصيرة، النحيب المصحوب بالخوف وجرجرة الأقدام لأولئك الذين كانوا يدخلون إلى المنزل أحمالاً ثقيلة.

صاح صوت حاد: "من سيخبر الطفل المسكين؟ ما كنت أستطيع ذلك حتى لو كان عليّ دفع حياتي ثمناً لذلك. "وبينما كانوا يتجادلون في المسألة فيما بينهم، حمّص كونراديان قطعة خبز أخرى لنفسه.

* * *

٧- البحث

حلّ سلام غير معهود على "فيلا إلسينور" راح يتقطع على أي حال بشكل متكرر بعويل غاضب يوحي بفقدان مشوب بالحيرة. لقد فقد آل مومبي طفلهم الصغير، ونتيجة لذلك حل ذلك السلام الذي نجم عن غيابه. كانوا يبحثون عنه بأسلوب طائش غير منتظم، وهم يصيحون طوال الوقت، وهذا هو السبب في الصيحة العالية التي كانت تجتاح المنزل والحديقة كلما عادوا ليجربوا البحث في مخابئ المنزل مجدداً. كان كلوفيس، نزيلاً مؤقتاً وكارهاً في الفيلا، وكان يغفو إغفاءة خفيفة في أرجوحة شبكية في آخر الحديقة حين أبلغته السيدة مومبي بالنبأ.

صرخت: "لقد فقدنا الطفل".

سأل كلوفيس بكسل: "هل تعنين أنه قد مات أو دهسته حوافر حصان أو أنك رهنته في لعبة ورق ففقدته بتلك الطريقة؟"

قالت السيدة مومبي وعيناها تدمعان: "كان يدرج هنا وهناك بسعادة فوق المرج، وكان أرنولد قد دخل للتو، وكنت أسأله عن نوع المرق الذي يريده مع الهليون..."

قاطعها كلوفيس مبدياً اهتماماً سريعاً: " آمل أن يكون قد طلب المرق الهولندي، لأنه لو كان هناك أي شيء أكرهه..."

تابعت السيدة مومبي بلهجة أكثر حدة:" وفجأة افتقدت الطفل. بحثنا عنه في مختلف الأماكن، في المنزل وفي الحديقة وخارج البوابات، ولم نجده في أي مكان."

سأل كلوفيس" هل سمع له صوت من أي مكان؟ إذن، فلا بدّ أنه أصبح على بعد ميلين من هنا."

سألت الأم الذاهلة: " ولكن أين؟"

اقترح كلوفيس: " ربما اختطفه نسر أو وحش بري."

قالت السيدة مومبي بصوت اعتراه شيء من الرعب: " ولكن لا يوجد أي نسور أو وحوش برية في (ساري)."

" إنها تهرب بين الحين والآخر من فرق السيرك الجوالة. وأعتقد أنهم يطلقون سراحها أحياناً كنوع من الدعاية. فكري كم سيكون ذلك المانشيت مثيراً للعواطف في الصحف المحلية: " طفل أسرة مرموقة من الطائفة المنشقة عن الكنيسة البريطانية تلتهمه ضبع مرقطة." لا ينتمي زوجك إلى أسرة مرموقة من الطائفة المنشقة، ولكن أمه من نسل ويزلي، وعليك أن تسمحي للصحف ببعض الحرية."

قالت السيدة مومبي وهي تنتحب: " ولكننا كنا سنجد بقاياه."

"لو كانت الضبع جائعة بالفعل ولا تريد العبث فحسب بطعامها، فلن يكون هناك الكثير من البقايا. سيكون الأمر أشبه بحكاية (الصبي الصغير والتفاحة) ... لن تتبقى أية بذور."

أشاحت السيدة مومبي بوجهها بسرعة لتنشد الراحة والسلوان في اتجاه آخر. وبالانهماك الأناني للأمومة الشابة فقد تجاهلت تماماً قلق كلوفيس الواضح بشأن مرق الهليون. وقبل أن تبتعد مسافة ياردة واحدة، فإن طقطقة البوابة الجانبية جعلتها تتوقف بحدة. لقد وصلت الآنسة غيلبت من فيلا بيترهوف، لتستمع إلى تفاصيل الفقدان. كان قد سبق لكلوفيس أن شعر بالملل من الحكاية، ولكن السيدة مومبي كانت ذات مقدرة عديمة الرحمة تجد من المتعة في سرد القصة للمرة التسعين بقدر ما تجدها في المرة الأولى.

"كان أرنولد قد وصل للتو، وكان يشكو من الروماتيزم..."

همهم كلوفيس: " هناك أشياء كثيرة يشكو منها المرء في هذا المنزل ولكن ما كان سيخطر لي أن أشتكي من الروماتيزم."

تابعت السيدة مومبي وهي تحاول أن تعطي صوتها، الذي سبق له أن عرف الكثير من النواح فراحت تتكلم بضغط مرتفع أيضاً، نبرة فاترة :" كان يشكو من الروماتيزم".

ومن جديد تمت مقاطعتها.

قالت الآنسة غيلبت: " لا يوجد شيء يسمى الروماتيزم". وقد قالت ذلك بلهجة التحدي الواعية التي يقول فيها نادل أن أرخص خمرة فرنسية في قائمة الخمور لم تعد متوفرة. لم تتابع كلامها على أي حال لتعرض بديلاً هو مثلاً مرض أكثر كلفةً، ولكنها أنكرت وجوده تماماً.

بدأ مزاج السيدة مومبي يومض عبر أساها.

"أفترض أنك ستقولين بالتالي إن الطفل لم يختف فعلاً."

أذعنت الآنسة غيلبت قائلة:" لقد اختفى، ولكن الأمر وما فيه هو أنك لا تتحلين بالإيمان الكافي بأنك ستجدينه. إن قلة الإيمان لديك هي التي تمنعه من أن يعود إليك سالماً معافى."

قال كلوفيس الذي كان ما يزال متشبثاً بكل حنان بنظرية الوحش البري: " ولكن لو التهمته ضبع في هذه الأثناء وهضمته جزئياً، فلا بدّ أن تكون بعض الآثار السيئة ملحوظة، أليس كذلك؟"

ترنحت الآنسة غيلبت بالأحرى من هذا التعقيد للمسألة.

قالت بضعف: " أشعر بكل إيمان أنه لم يلتهم من قبل ضبع."

" قد تكون الضبع على إيمان مساو لإيمانك بأنها قد فعلت ذلك. كما ترين، فقد تتحلى بالإيمان نفسه الذي لديك، وبمعرفة أكثر خصوصية عن مكان وجود الطفل في الوقت الحالي."

غلبت الدموع السيدة مومبي مجدداً. قالت بصوت باك ولكن بإلهام سعيد: " لو كان لديك الإيمان فلماذا لا تجدين لنا إيريك الصغير؟ أنا على ثقة من أن لديك قوى لا نتحلى نحن بها."

كانت روز- ماري غيلبت مخلصة في التزامها بمبادئ العلوم المسيحية. ونترك للعارفين أن يقرروا ما إذا كانت قد تفهمها أو تفسرها على النحو الصحيح. في حالتنا الحاضرة فقد كانت في مواجهة فرصة عظيمة، وبما أنها انطلقت في درب بحثها الغامض فقد استدعت لمساعدتها وبحماسة كل جزء من أجزاء الإيمان الذي كانت تتحلى به. مضت إلى الطريق الرئيسي الفارغ يتبعها تحذير السيدة مومبي:" لا فائدة من الذهاب إلى هناك، فقد سبق وبحثنا هناك دزينة من المرات." ولكن أذني ماري-روز كان قد سبق لهما وأصبحتا لا تسمعان أي شيء باستثناء تهنئة الذات. فقد كان يجلس هناك في وسط الطريق، وهو يلعب بسرور بالتراب وببعض أزهار الحوذان الذابلة، طفل في مئزر أبيض وكتلة من الشعر بلون الكتان ربطت عند أحد الصدغين بشريط أزرق فاتح. نظرت روز- ماري أولاً بالحذر النسائي المعهود لترى إن كان يمكن مشاهدة أي سيارة في الأفق البعيد وهي قادمة في هذا الاتجاه، ثم اندفعت نحو الطفل وحملته، رغم معارضته القوية، ودخلت عبر بوابات إلسينور. كان قد سبق لصرخات الطفل الغاضبة أن أعلنت عن حقيقة أنه

قد وجد بعد ضياع، وسرعان ما تسابق الأبوان المروعان عبر المرج ليلاقيا ابنهما المستعاد. وقد تشوهت القيمة الجمالية للمشهد إلى حد ما بسبب الصعوبة التي كانت روز -ماري تجدها في الإمساك بالطفل الذي كان يقاومها، والذي كانت تحمله من الجهة الخطأ لتسلمه لحضن أسرته القلق. صاح الزوجان من آل مومبي بصوت واحد: "لقد عاد إيريك الصغير إلينا." وبما أن الطفل كان يحشر قبضتيه في محجري عينيه وما كان ممكناً رؤية أي جزء من وجهه عدا فمه الفاغر إلى حد كبير، فإن تمييزه كان أيضاً شأناً من شؤون الإيمان.

دندنت السيدة مومبي: "هل هو سعيد بعودته إلى بابا وماما مجدداً؟ أما التفضيل الذي كان الطفل يعبّر عنه لصالح لهوه بالتراب وأزهار الحوذان فقد كان واضحاً تماماً بحيث أن المسألة بدت لكلوفيس كأنها أمر تعوزه اللباقة.

اقترح الأب بذكاء: "أركبوه على المحدلة"، طالما أن الصرخات استمرت دون أن يبدي الطفل أي علامة على أنه سيهدأ سريعاً. خلال لحظة، كان الطفل قد أركب منفرج الساقين فوق محدلة الحديقة وتم دفعها لتتحرك. ومن الأعماق الجوفاء للأسطوانة خرجت صرخة ألم ثاقبة أغرقت حتى الجهود الصوتية للطفل ذي المئزر الأبيض وكتلة الشعر ذات اللون الكتاني التي

ربطت عند أحد الصدغين بشريط أزرق فاتح. لم يكن هناك مجال للخطأ في تمييز ملامح القادم الجديد أو قوة رئتيه.

صرخت السيدة مومبي وهي تقفز نحوه وتكاد تخنقه بالقبلات: :صغيرنا إيريك الحبيب". هل خبأ نفسه في المحدلة ليخيفنا جميعاً إلى ذلك الحد؟"

كان ذلك هو التفسير الواضح لاختفاء الطفل الفجائي واكتشافه المفاجئ. وتبقت الآن على أي حال مشكلة الطفل المتطفل، الذي كان ينشج فوق المرج في إهمال بارد بقدر ما كانت حظوته السابقة لا تلاقي ترحيباً من جهته. حدق الزوجان مومبي إليه وهو يشق طريقه نحو عواطفهما قصيرة الأجل بتظاهر جبان وتافه. تلوّن وجه الآنسة غيلبت بلون رمادي وهي تحدق بعجز إلى الشكل المنحني الذي كان قبل لحظات في عينيها منظراً مثيراً للحبور.

قال كلوفيس في نفسه: "حين ينقضي الحب، فكم هو قليل ما يفهمه من الحب حتى العاشق."

كانت روز - ماري أول من حطم الصمت.

"إن كان هذا الذي بين ذراعيك هو إيريك، فمن هو ذاك؟"

قالت السيدة مومبي بتصلب:" ذاك، على ما أعتقد، أمر عليك أنت تفسيره."

قال كلوفيس: "من الواضح أنه نسخة طبق الأصل من إيريك استطاعت قوى إيمانك أن توجده. والسؤال هو: ما الذي ستفعلينه به؟"

أصبح اللون الرمادي في وجنتي روز- ماري أكثر قتامة. تشبثت السيدة مومبي بإيريك الأصلي وضمته إليها، وكأنها تخشى أن تقوم جارتها الخارقة للطبيعة لمجرد غضبها بتحويله إلى وعاء يسبح فيه السمك الذهبي.

قالت روز-ماري بصوت واهن:"وجدته في وسط الطريق."

قال كلوفيس: "لا يمكنك أن تعيديه إلى هناك وتتركيه في ذلك المكان. الطريق العام هو للسير، ولا يمكن استخدامه كغرفة سقيفة للمعجزات المهملة."

بكت روز- ماري. كان المثل القائل: "ابك تبك وحدك" قد أثبت عدم صحته كمعظم الأمثال . كان كلا الطفلين ينوحان بحزن، ولم يكن الأبوان مومبي قد شفيا إلا بالكاد من حالة البكاء. أما كلوفيس وحده، فقد حافظ على مرحه الهادئ.

سألت روز-ماري بروح الصدقة:" هل عليّ لأن أحتفظ به بشكل دائم؟"

قال كلوفيس بلجة مواسية: "ليس بشكل دائم. يمكنه أن يلتحق بسلاح البحرية حين يبلغ الثالثة عشرة." عادت روز- ماري لتبكي مجدداً.

أضاف كلوفيس: "طبعاً، قد لا تكون هناك نهاية للمشاكل المتعلقة بشهادة ميلاده. سيكون عليك أن تفسري الأمور للأدميرالية، والمسؤولون فيها ضيقو الأفق إلى حد مريع."

وقد شعر الجميع بالراحة بالأحرى حين وصلت مربية مبهورة الأنفاس من فيلا تشارلوتتبرغ من الجانب الآخر من الطريق وهي تعدو عبر المرج لتطالب بالطفل الصغير بيرسي الذي انسل خارجاً من البوابة الأمامية واختفى في طرفة عين من الطريق العام.

لقد وجد حتى كلوفيس أنه من الضروري الذهاب شخصياً إلى المطبخ للتأكد من مرق الهليون.

* * *

٨ - الموسيقى على التل

تناولت سيلفيا سلتون وجبة الفطور في غرفة الصباح في "ييسيني" بإحساس مبهج بالنصر المطلق، يشبه شعور آيرونسايد الحماسي في صباح يوم من أيام مباريات الملاكمة في مدينة وورسستر. لم يكن مزاجها من النوع المشاكس، ولكنها تنتمي إلى تلك الفئة من المقاتلين المشاكسين حسب الظروف. لقد أراد القدر أن تكون حياتها مشغولة بسلسلة من النزاعات الصغيرة، وفي العادة حين تكون الأرجحية ضدها، وعموماً كانت تنجح في الخروج منتصرة. وقد أحست الآن بأنها قد بذلت أقصى جهودها وخاضت أهم نزاعاتها مع الوصول إلى نتيجة ناجحة. وقد كان زواجها من مورتيمر سلتون، "مورتيمر الميت" كما كان أعداؤه الأكثر حميمية يسمونه، رغم العداء الصقيعي لأسرته، ورغم لا مبالاته الصادقة تجاه النساء، إنجازاً احتاج إلى بعض التصميم والمهارة. والبارحة، كانت قد وصلت بنصرها إلى مرحلة ختامية بأن انتزعت زوجها من المدينة ومجموعتها من المنتجعات المائية،

وجعلته "يستقر" كما أفادت بلغتها الخاصة ضمن هذه العزبة البعيدة المطوقة بالغابات التي كانت منزله الريفي.

كانت أمه قد قالت بلهجة انتقادية: "لن تستطيعي قط أن تجعلي مورتيمر يذهب إلى هناك، ولكن لو أنه ذهب مرة إلى هناك، فسوف يبقى. إن ييسيني ترمي بسحرها عليه كما المدينة. ويمكن للمرء أن يفهم ما الذي يشده إلى المدينة..." ثم هزت المرأة النبيلة العجوز كتفيها.

كان يطغى على ييسيني جوٌّ برّي كئيب ووحشي تقريباً ليس من المحتمل أن يعجب من له ذوق من تربى في المدينة، وكانت سيلفيا بغض النظر عن اسمها(١)، غير معتادة على ما هو أكثر من مدينة كنسينغتون ذات الأشجار المورقة الكثيرة. كانت ترى الريف كشيء ممتاز وصحي بأسلوبه الخاص، ومن الممكن أن يصبح مزعجاً إذا بالغت في تشجيعه. كان انعدام الثقة في حياة المدينة شيئاً جديداً عليها، أوجده زواجها من مورتيمر، وكانت تراقب بعين الرضا الاضمحلال التدريجي لما كانت تسميه "نظرة شارع جرمين" في عينيه حين راحت غابات ونباتات الخلنج في ييسيني تخيم عليهما الليلة الماضية. لقد هيمنت قوة إرادتها واستراتيجيتها. سيبقى مورتيمر هنا.

---

(١) سيلفيا Sylvia الاسم قريب من كلمة Silvan الإنكليزية التي تعني الأجمة أو ربة الآجام. (المترجم)

عبر نوافذ غرفة الصباح كان ممكناً مشاهدة منحدر مثلث من المروج، يمكن للمتساهل أن يسميه مرجة منزلية، وما وراء سياجها الخفيض المؤلف من شجيرات الفوشيا المهملة كان منحدر أعمق من نباتات الخلنج والسرخس يهبط إلى وديان ضيقة كهفية تغطيها أشجار السنديان والطقسوس. في وحشيتها البرية المكشوفة كان هناك رابط مختلس من متعة الحياة مع رعب الأشياء غير المرئية. ابتسمت سيلفيا برضا عن النفس وهي تحدق إلى المنظر الطبيعي بنظرة إعجاب فنية، ثم ارتعدت فجأة.

قالت لمورتيمر الذي انضم إليها:" المكان هنا شديد التوحش، حتى إنَّ المرء سيعتقد تقريباً أنه في مثل هذا المكان فإن عبادة "بان"[١] لم تنقرض".

قال مورتيمر:" لم تنقرض عبادة بان قطّ. كانت هناك آلهة أخرى أكثر جدة تجذب إليها عابديه بين الحين والآخر، ولكنه إله الطبيعة الذي على الجميع العودة إليه في النهاية. كان يسمى بـــ (أبي الآلهة)، ولكن معظم أولاده ولدوا ميتين. "كانت سيلفيا متدينة بطريقة صادقة وتعبدية على نحو غامض، ولم تكن تحب سماع معتقداتها يقال عنها إنها نمو متأخر، ولكن كان هناك على الأقل شيء جديد ومفعم بالأمل في أن تسمع "مورتيمر الميت" يتحدث بكل تلك الحيوية والقناعة عن أي موضوع.

---

(١) بان: إله الغابات والمراعي والرعاة عند الإغريق. (المترجم)

سألته غير مصدقة:" أنت لا تؤمن حقاً ببان، أليس كذلك؟"

قال مورتيمر بهدوء:" أنا أحمق في كثير من الأمور، ولكني لست أحمق إلى حد لا أؤمن فيه ببان وأنا هنا. وإن كنت تتمتعين بالحكمة فلا تكفري به على نحو شديد التباهي خلال وجودك في موطنه."

ولم يمرّ أسبوع بعد ذلك، وبعد أن كانت سيلفيا قد عرفت كل مفاتن مشاوير الغابة من حول ييسيني، أن تجرأت وقامت بجولة تفتيشية لأبنية العزبة. كان فناء المزرعة يوحي لها بمشهد من الجلبة المرحة، ووجود ممخضات وآلات درس يدوية وعاملات الملبنة المبتسمات، وأزواج من الجياد تشرب وقد غرقت حتى ركبها في برك ماء مليئة بالبط. ولكنها حين تجولت بين الأبنية الرمادية الكالحة لمزرعة ضيعة ييسيني فقد كان أول انطباع لها هو الهدوء والعزلة الساحقان، وكأنها دخلت منزلاً مهجوراً منعزلاً تُرك منذ زمن بعيد للبوم وبيوت العنكبوت. ثم جاء ذلك الشعور بالعداء اليقظ المختلس، ذلك الظل نفسه لأشياء غير مرئية كانت تبدو وكأنها تتلبث في تلك الوديان الضيقة الغابية والأيكات. ومن خلف أبواب ثقيلة ونوافذ محطمة كانت تأتي أصوات دوس الحوافر أو صريف السلاسل، وأحياناً الخوار المكتوم من حيوان مربوط . ومن زاوية بعيدة كان كلب أشعث يراقبها بعينين عدائيتين مصممتين. وحين اقتربت منه انسل بهدوء إلى وجاره، ثم انسل

مجدداً إلى خارجه بهدوء بعد أن مرت به. كما انسلت بضع دجاجات كانت تبحث عن الطعام تحت أحد الأكداس، مبتعدة تحت بوابة عند اقترابها. شعرت سيلفيا أنها لو صادفت أي بشر في هذه البرية المؤلفة من مخزن الحبوب والزريبة فإنهم كانوا سيهربون كالأشباح من تحديقتها. وأخيراً، وبينما كانت تدور من حول إحدى الزوايا بسرعة، صادفت شيئاً حياً لم يهرب منها. كان هناك خنزير ضخم متمدد في بركة من الوحل، وكانت ضخامته تتعدى أكثر حسابات هذه المرأة المدينية تطرفاً فيما يتعلق بلحم الخنزير، وكان في حالة من الاستعداد السريع للغضب بل وعند الضرورة صدّ هذا التطفل النادر. وكان الآن هو دور سيلفيا لتتراجع دون فضول. وبينما راحت تشق طريقها عبر فناءات الأكداس وزرائب البقر والجدران الخشبية الطويلة، أجفلت فجأة لسماع صوت غريب: كان صدى ضحكة صبي، ضحكة رنانة ملتبسة. كان "جان"، الصبي الوحيد المستخدم للعمل في المزرعة، وهو فلاح ذابل الوجه كتاني الشعر، رأته وهو يعمل في حقل للبطاطا في منتصف المسافة إلى أقرب سفح تلة، أما مورتيمر، فقد قال حين سألته أنه لا يعرف بوجود أي شخص يمكن أن يتسبب في تلك الضحكة الساخرة الخفية التي كمنت لسيلفيا خلال تراجعها. كانت ذكرى ذلك الصدى غير الممكن تقفي أثره قد أضافت إلى انطباعاتها الأخرى عن وجود "شيء ما" شرير وماكر يتجول في ييسيني.

لم تكن ترى مورتيمر كثيراً، كانت المزرعة والغابات وجداول سمك السلمون المرقط تبتلعه من الفجر وحتى الغسق. وفي إحدى المرات، وبعد أن اتبعت الاتجاه الذي رأته يسير فيه في الصباح، وصلت إلى مكان مفتوح ضمن أيكة من أشجار الجوز، وكانت أشجار الطقسوس الضخمة تطوق المكان فتجعله أكثر انغلاقاً، وفي المنتصف كانت هناك قاعدة فوقها تمثال برونزي صغير للإله بان الشاب. كانت منحوتة جميلة، ولكن اهتمامها تركز على نحو رئيسي على حقيقة أن عنقوداً من العنب قطف حديثاً قد وضع كقربان عند قدمي التمثال. لم يكن العنب متوفراً بكثرة في منزل الضيعة، واختطفت سيلفيا العنقود بغضب من على قاعدة التمثال. سيطر غضب مترع بالازدراء على أفكارها وهي تتمشى ببطء عائدة إلى البيت، ثم استسلمت لشعور حاد بشيء ما كان قريباً جداً من الخوف. فعبر كتلة متشابكة من الشجيرات النامية كان وجه صبي يعبس باتجاهها، وجه أسمر وجميل، وله عينان شريرتان على نحو لا يوصف. كان ممراً منعزلاً، وكانت جميع الممرات من حول ييسيني منعزلة فيما يخص تلك المسألة، وقد أسرعت في سيرها دون أن تنتظر حتى تتأمل في هذا الشبح المفاجئ. ولم تكتشف إلا بعد أن وصلت إلى المنزل أنها أسقطت عنقود العنب خلال هروبها.

قالت لمورتيمر في ذلك المساء: "لقد رأيت شاباً في الغابات هذا اليوم، كان أسمر الوجه ووسيماً بالأحرى، ولكن هيئته تدل على أنه وغد. ربما كان غجرياً."

قال مورتيمر: "نظرية معقولة، ولكن لا يوجد أي غجر في هذه الأرجاء في الوقت الحاضر." سألت سيلفيا:" من يكون إذن؟" وحين بدا على مورتيمر وكأنه دون نظرية خاصة به، تجاوزت الموضوع لتتحدث عن أنها وجدت قرباناً نذرياً.

قالت: "أفترض أن ذلك كان من فعلك، ولكنه عبارة عن عمل جنوني لا ضرر منه، ولكن الناس قد يعتقدون أنك أحمق إلى حد كبير لو عرفوا بالأمر."

سأل مورتيمر: "هل عبثت به بأي طريقة من الطرق؟"

قالت سيلفيا وهي تراقب وجه مورتيمر الهادئ لتستدل على وجود علامة من علامات الضيق: " لقد رميت بالعنب بعيداً. بدا الأمر شديد الحماقة".

قال مورتيمر بتأمل: "لا أعتقد أنك تصرفت بحكمة. لقد سمعت أن "آلهة الغابات" تتصرف على نحو رهيب في الواقع تجاه أولئك الذين يزعجونها".

أجابت سيلفيا: "ربما تتصرف كذلك تجاه أولئك الذين يؤمنون بها، ولكنك ترى أني لا أومن بها."

قال مورتيمر بلهجته الهادئة غير المنفعلة: "لو كنت في مكانك لتجنبت الغابات والبساتين، وابتعدت عن الحيوانات ذات القرون في المزرعة."

كان ذلك كله هراء بالطبع، ولكن في تلك البقعة المنعزلة المطوقة بالغابات بدا الهراء وكأنه قادر على استيلاد جنس هجين من القلق.

قالت سيلفيا فجأة: "مورتيمر، أعتقد أن علينا العودة إلى المدينة سريعاً."

لم يكن انتصارها كاملاً حسبما افترضت. لقد حملها ذلك الانتصار إلى مكان أصبحت تواقة إلى مغادرته.

قال مورتيمر: " لا أعتقد أنك ستعودين إلى المدينة قط." بدا وكأنه يعيد صياغة نبوءة أمه لنفسه.

لاحظت سيلفيا بانزعاج وبعض ازدراء للذات أن خط سير تجوالها في عصر اليوم التالي أخذها بعيداً عن شبكة الغابات. أما فيما يخص الماشية ذوات القرون، فلم تكن هناك حاجة ولو بسيطة إلى تذكر تحذير مورتيمر، فقد كانت تراها دائماً ذات حياد مشكوك به في أفضل الأحوال: لقد أفقدت مخيلتها أكثر البقرات اللبونة أمومة من أنوثتها وحولتها إلى ثيران قابلة لأن ترى "اللون الأحمر" في أية لحظة. أما الكبش الذي كان يرعى

في الحقل الصغير الضيق الواقع تحت البساتين، فقد حكمت عليه بعد تدقيق صارم ومسهب وحذر بأنه ذو مزاج وديع. ولكنها قررت هذا اليوم، على أي حال، أن تترك وداعته دون اختبار، فإن ذلك الحيوان الهادئ عادة كان يتجول بحركة تدل على القلق من إحدى زوايا المرج إلى الأخرى. كان هناك صوت عزف خفيض متقطع لمزمار، أشبه بصوت ناي قصبي، يأتي من أعماق أيكة مجاورة، وبدا وكأن هناك علاقة دقيقة بين السير القلق للحيوان والموسيقى المتوحشة القادمة من الغابة. التفتت سيلفيا بخطواتها باتجاه صاعد وتسلقت المنحدرات المغطاة بنبات الخلنج التي كانت تمتد في أكتاف ملتفة عالياً فوق بيسيني. كانت قد تركت ألحان المزمار خلفها، ولكن عبر الوديان الضيقة إلى الأسفل راحت الريح تجلب موسيقى من نوع آخر، إنه النباح المثير للتوتر لكلاب صيد في حالة المطاردة الشاملة. كانت بيسيني تقع على أطراف ريف ديفون- أند- سومرست، وكانت الطرائد من الأيائل تأتي من ذلك الاتجاه أحياناً. استطاعت سيلفيا أن ترى الآن جسماً داكناً، يقطع التلة إثر الأخرى متقدماً بصدره، ثم يختفي مرة بعد أخرى بعيداً عن الأنظار وهو يعبر الوديان الضيقة، بينما كانت تلك الجوقة عديمة الشفقة ما تزال تطارده بثبات، وبدأت تشعر بالتوتر من التعاطف المشوب بالإثارة الذي يشعر به المرء تجاه أي شيء مطارد إن لم يكن له

في اصطياده أي اهتمام مباشر. وأخيراً انطلق خارجاً من آخر خط من أشجار السنديان ونباتات السرخس ووقف يلهث في أرض مكشوفة، وكان أيلا ذكراً سميناً في آخر شهر من شهور الصيف (أيلول) ويحمل رأساً جيد التجهيز. كان مساره الواضح هو أن يهبط نحو البرك السمراء في أندركومب، ومن هناك يشق طريقه نحو البحر، الملاذ المفضل للأيائل الحمر، البحر. ولكنه، ويا لدهشة سيلفيا، التفت مع ذلك برأسه نحو المنحدر العالي وراح يتسلق بتصميم فوق نباتات الخلنج. فكرت: "سيكون الأمر مريعاً، ستوقعه كلاب الصيد أرضاً تحت نظري". ولكن موسيقى مجموعة كلاب الصيد بدت وكأنها قد توقفت لبرهة، وسمعت بدلاً عنها مجدداً صوت العزف المتوحش على المزمار، والذي راح يتصاعد الآن من هذا الجانب، ثم من الجانب الآخر، وكأنه يحث الأيل المتهالك على بذل جهد أخير. وقفت سيلفيا بعيداً عن المكان الذي سيمر به ضمن أيكة من شجيرات العنبية، وراحت تراقبه وهو يصعد بتصلب نحو الأعلى، ووخاصرتاه تبدوان داكنتين من العرق، والشعر الخشن على عنقه يلتمع بالضوء في تباين مع الخاصرتين. وفجأة أصبح عزف المزمار حاداً من حولها، وبدا وكأنه يأتي من الشجيرات التي عند قدميها، وفي تلك اللحظة نفسها، استدار الحيوان الضخم وانحدر باتجاهها. وخلال لحظة تحولت شفقتها تجاه

الحيوان المطارد إلى رعب مجنون من الخطر المحدق بها. عرقلت جذور الخلنج السميكة جهودها المذعورة للهرب، ونظرت باهتياج شديد نحو الأسفل بحثاً عن كلاب الصيد المطاردة. كانت القرون الهائلة للأيل على مسافة أمتار قليلة منها، وخلال ومضة من الخوف الخدر تذكرت تحذير مورتيمر، أن تبتعد عن الحيوانات ذات القرون في المزرعة. ثم وبنبضة فرح سريعة لاحظت أنها لم تكن وحيدة. ظهر شكل بشري على بعد خطوات منها، غارقاً حتى ركبتيه في شجيرات العنبية.

صرخت: "ادفعه بعيدا عني". ولكن الشكل البشري لم يتحرك مستجيباً لصرختها.

اندفعت قرون الأيل نحو صدرها مباشرة، وراح أنفها يشم الرائحة الحريفة للحيوان المطارد، ولكن عينيها كانتا مترعتان بالرعب من شيء ما شاهدته عدا الموت الوشيك. وفي أذنيها رنّ صدى ضحكة صبي، ضحكة رنانة وملتبسة.

*   *   *

٩- حكاية القديس فسبالوس

قالت البارونة، وهي تحدق بيأس إلى المطر الهاطل: "قصّ عليّ حكاية". كان المطر من ذلك النوع الخفيف الاعتذاري الذي يبدو وكأنه سينقطع في أي لحظة ولكنه يستمر معظم فترة ما بعد الظهر.

سأل كلوفيس، وهو يرمي بمضرب الكروكيت رمية وداعية: "أيّ نوع من الحكايات؟"

قالت البارونة: "ذلك النوع الواقعي إلى حد يكون فيه ممتعاً وليس واقعياً بما فيه الكفاية ليكون مضجراً."

أعاد كلوفيس ترتيب عدة وسائد ليجلس براحة ورضا. كان يعرف أن البارونة تحب أن يكون ضيوفها مرتاحين، وقد فكر أنه من المناسب احترام رغباتها في هذا الخصوص.

سألها:" هل سبق لي أن رويت لك حكاية القديس فسبالوس؟"

قالت البارونة: "لقد رويت لي حكايات عن غراندوقات ومروضي نمور وأرامل لرأسماليين ومدير للبريد في الهرسك،

وكذلك عن جوكي إيطالي ومربية أطفال هاوية ذهبت إلى وارسو، وحكايات عدة عن أمك، ولكن لم يسبق أن رويت لي واحدة عن قديس."

قال:" جرت هذه الحكاية قبل وقت طويل، في تلك الأيام المزعجة غير المتجانسة حين كان ثلث السكان وثنيين وثلثهم الآخر مسيحيين والثلث الأكبر والأخير يتبع أيّ دين يعترف به البلاط الملكي. كان هناك ملك يدعى "هكريكروس" وكان له مزاج مخيف، ولكنه كان دون عقبٍ يخلفه على العرش من صلبه. إلا أن أخته المتزوجة قد أمدته على أي حال بعدد كبير من أولاد الأخت الذين يمكن له أن يختار وريثاً من بينهم. وكان أكثرهم أهلية وقد نال الموافقة الملكية هو فسبالوس البالغ السادسة عشرة من العمر. كان الأكثر وسامة والأفضل بين الفرسان ورماة الرمح، كما كان يتمتع بتلك الموهبة الأميرية التي لا تقدر بثمن: قدرته على السير مروراً بشخص متوسل كأنه لم يره قط، إلا أنه يبدو مع ذلك وكأنه كان سيعطيه شيئاً ما لو كان يملكه. تتمتع أمي بتلك الموهبة إلى حد ما. فهي تستطيع أن تمر عبر سوق خيرية وهي تبتسم ودون أن تخسر شيئاً من مالها، ثم تقابل أولئك اللواتي نظمن السوق في اليوم التالي بهيئة من يقول: (لو أني كنت أعرف فحسب أنكن في حاجة إلى أموال)، وهذا بالواقع انتصار في مجال الوقاحة. إذن كان

هكريكروس وثنياً من الطراز الأول وذا حماسة دينية عالية، ويعبد الأفاعي المقدسة التي كانت تقطن في أيكة مقدسة تقع على تل قريب من القصر الملكي، عبادة تتحلى بحماسة دينية عالية. كان يسمح للعامة أن يختاروا الدين الخاص الذي يرتضونه، ضمن حدود التحفظ والحذر، ولكن لو أن أي موظف رسمي في خدمة البلاط تخلى عن دينه ليعتنق الدين الجديد لتعرض للازدراء، على نحو واقعي ومجازي، فالازدراء كان يمارس من الشرفة الخارجية التي تحيط بحفرة الدببة الملكية حيث سيرمى بذلك الذي تخلى عن دينه. لذلك، عمت الفضيحة والذعر حين ظهر فسبالوس الشاب في أحد الأيام في إحدى مراسيم البلاط وقد أقحم مسبحة في زناره، وأعلن رداً على الاستجوابات الغاضبة أنه قرر أن يصبح مسيحياً، أو أن يحاول ذلك على أي حال. ولو كان أي من أولاد أخت الملك الآخرين هو من فعل ذلك، لكان الملك سيأمر بإيقاع عقوبة عنيفة ضده كالجلد بالسوط والنفي، ولكن بما أن فسبالوس هو المعني، فقد قرر الملك أن ينظر إلى الأمر كله كما قد ينظر أب معاصر إلى نية ابنه المعلنة باختيار التمثيل المسرحي كمهنة له. وقد أرسل يطلب قيّم المكتبة الملكية. ولم تكن المكتبة الملكية في تلك الأيام بالشأن الكبير، وكان المسؤول عن الكتب الملكية يتمتع بالكثير من أوقات الراحة. وبالتالي، فقد كان الملك يطلبه باستمرار لتسوية

أمور الناس حين يضل هؤلاء طريقهم ويتخطون الحدود المعلومة أي يصبحون في النتيجة من العصاة.

"قال الملك: (عليك أن تقنع الأمير فسبالوس بالحجة وتؤكد له خطأ مسلكه. لا نستطيع أن ندع وريثاً للعرش يعطي مثل هذه الأمثولة الخطيرة لغيره).

"سأل قيم المكتبة: (ولكن أين سأجد الحجج الضرورية)؟ قال الملك: (أعطيك الإذن بأن تجد وتختار حججك في الغابات والأيكات الملكية. وإذا لم تستطع أن تجمع بعض الأحكام القاطعة والحجج اللاذعة الملائمة للمناسبة فأنت شخص قليل الحيلة).

"وهكذا مضى قيّم المكتبة إلى الغابات وجمع نخبة جيدة من القضبان والسياط ذات الحجج المقنعة جداً،، ثم تقدم ليحاجج فسبالوس بشأن حماقة وشرور سلوكه وعلى الأخص عدم ملاءمة ذلك السلوك. وقد تركت محاججته انطباعاً قوياً على الأمير الشاب، انطباعاً دام أسابيع كثيرة، لم يسمع خلالها أي شيء عن ذلك الوقوع المشؤوم في شرك المسيحية. ثم أثارت فضيحة أخرى ذات صفة مشابهة البلاط. ففي الوقت الذي كان يتوجب أن يكون فيه فسبالوس منهمكاً في التوسل على نحو مسموع طالباً الحماية والرعاية الكريمتين للأفاعي المقدسة، سمع وهو يترنم بترتيلة على شرف القديس أوديلو الكلوني. غضب الملك بشدة من هذا التمرد الجديد، وبدأ يتخذ مظهراً

كئيباً بسبب هذا الوضع. كان فسبالوس يبدي عناداً خطيراً في المثابرة على هرطقته. ولكن لم يكن يبدو عليه ما يبرر مثل هذا الانحراف. لم تكن لديه تلك العين الشاحبة التي يتميز بها المتعصبون أو تلك النظرة الباطنية للحالمين. بل العكس هو الصحيح، فقد كان ذلك الشاب يبدو في أفضل حالاته في البلاط. كان يتمتع بجسم قوي البنية وبشرة تدل على العافية وعينين بلون التوت الناضج جيداً وشعر داكن أملس ومعتنى به جيداً.

"قالت البارونة: (يبدو هذا وكأنه وصف لما تتخيل أنه كان شكلك وأنت في السادسة عشرة).

"قال كلوفيس: (ربما أرتك أمي بعضاً من صوري وأنا في ريعان الشباب.) لقد حول السخرية إلى مديح لنفسه، ثم استأنف الحكاية.

"أمر الملك بحبس فسبالوس في برج مظلم أياماً ثلاثة، فلا يقتات إلا على الخبز والماء ولا يستمع إلا إلى زعيق الخفافيش ورفرفة أجنحتها، ولا يرى سوى السحب التي تدفعها الرياح من خلال نافذة ما هي إلاّ مجرد شق صغير. بدأ ت تلك الشريحة من المجتمع المعادية للوثنية بالتكلم بإعجاب عن الفتى الشهيد. وكان الاستشهاد يتم تخفيفه فيما يتعلق بالطعام بإهمال حارس البرج، الذي ترك مرة أو مرتين قسماً من عشائه المؤلف من اللحم المشوي والفاكهة والنبيذ خطأً في زنزانة الأمير. وبعد

انقضاء العقوبة، وضع فسبالوس تحت المراقبة الجادة بحثاً عن أي عرض من أعراض الانحراف الديني، فقد كان الملك مصمماً على عدم تحمل المزيد من المعارضة في مثل هذا الأمر الهام، حتى لو صدرت عن ابن أخته المفضل. قال إنه لو جرى المزيد من هذا الهراء، سيبدل خليفته على العرش.

"مضت الأمور على نحو جيد مدة من الزمن. كان موعد مهرجان الألعاب الرياضية الصيفية يقترب، وكان فسبالوس الشاب منهمكاً جداً في منافسات المصارعة والجري ورمي الرمح بحيث لم يكن ليزعج نفسه بكفاح الأنظمة الدينية المتصارعة. ثم جاءت على أية حال المناسبة الختامية العظيمة لمهرجان الصيف، ألا وهي الرقصة الاحتفالية من حول بستان الأفاعي المقدسة، ولم يشارك فيها فسبالوس. كان التحدي للدين الرسمي للدولة شديد الجلاء للعموم وملفتاً للأنظار بحيث لا يمكن تجاهله، حتى لو كان الملك ينوي ذلك، ولم يكن الأمر كذلك إطلاقاً. وقد جلس يوماً ونصف يوم وحيداً وهو يفكر، وظن الجميع أنه يقلّب في نفسه مسألة موت الأمير الشاب أو العفو عنه. وفي الواقع كان يفكر فحسب في أسلوب موت الفتى. ولما كان الأمر محتوماً، وكان من شأنه أن يجذب قدراً هائلاً من الانتباه الجماهيري على أي حال، فلماذا لا يكون دراماتيكياً ومثيراً للعواطف إلى أكبر حد ممكن.

"قال الملك: (بمعزل عن ذوقه السيئ الطالع في الأديان، وعناده في الالتزام به، إلا أنه شاب لطيف ومبهج، لذلك من الملائم والمناسب أن يعدم من قبل رسل اللّطف المجنّحة).

"قال قيم المكتبة الملكية: (هل تعني جلالتك ....؟)

"قال الملك: (أعني أنه سيلدغ حتى الموت من قبل النحل. النحل الملكي بالطبع."

"قال قيم المكتبة: (إنها أكثر الميتات روعة).

" قال الملك: (رائع ودراماتيكي، ومؤلم بلا ريب. إنه يلبي جميع الشروط التي يمكن أن يرغب بها المرء).

"فكر الملك نفسه بجميع التفاصيل الخاصة باطقوس الإعدام. سيجرد فسبالوس من ملابسه وتوثق يداه إلى الخلف، ثم سيعلق في وضعية الاستلقاء مباشرة فوق ثلاث من أكبر خلايا النحل الملكية، بحيث أن اقل حركة من جسمه ستجعله في وضع تصادم معها. ويترك الباقي للنحل. وسوف تستغرق آلام الاحتضار كما حسبها الملك ما بين خمس عشرة إلى أربعين دقيقة، رغم أنه كان هناك انقسام في الرأي ورهان كبير بين أولاد الأخت الآخرين حول ما إذا كان الموت سيكون فورياً أو قد يؤجل ساعتين. وعلى أي حال، فقد اتفق الجميع على أنه كان من المفضل أن يرمى في حفرة الدببة كريهة الرائحة فتقوم تلك الحيوانات اللاحمة غير الكاملة بقتله بمخالبها وهرسه حتى الموت.

"ولكن ما جرى هو أن المسؤول عن خلايا النحل الملكيّة كان ميالاً إلى الدين المسيحي، وكان شديد التعلق بفسبالوس، شأن معظم موظفي البلاط. وفي الليلة السابقة ليوم الإعدام، أشغل هذا نفسه بإزالة إبر اللدغ من جميع النحل الملكي. كان تلك عملية طويلة ودقيقة، ولكنه كان خبير نحل ضليعاً، وبالعمل بجد طوال الليل فقد نجح في نزع سلاح جميع نحلات الخلية، أو جميعها تقريباً.

" قالت البارونة غير مصدقة: (لم أكن أعلم أنه من الممكن نزع إبرة اللدغ من نحلة حية).

"أجاب كلوفيس: لكل مهنة أسرارها. ولولا ذلك لما كانت مهنة. حسناً، حلّت لحظة الإعدام، واتخذ الملك وأفراد الحاشية أماكنهم ووجدت أماكن تكفي لجلوس كثير من السكان ممن رغبوا في مشاهدة تلك المناسبة غير العادية. ولحسن الحظ كانت ساحة تربية النحل الملكية واسعة جداً، وكانت تطل عليها الشرفات التي تحيط بالحدائق الملكية. وبشيء من الضغط وتركيب بعض المنصات كانت هناك أمكنة كافية لجلوس الجميع. حمل فسبالوس إلى الساحة المفتوحة أمام الخلايا، وقد احمر خجلاً وأصيب ببعض الاضطراب، ولكنه لم يكن منزعجاً قط من الاهتمام الذي كان مركزاً عليه.

"قالت البارونة: (يبدو أنه يشبهك في أمور أكثر من مجرد الشكل).

قال كلوفيس: "لا تقاطعي مرحلة حاسمة من الحكاية. فما أن وضع بعناية بالوضعية الموصوفة فوق الخلايا، وقبل أن يقوم السجانون بالرجوع إلى مسافة آمنة، رفس فسبالوس رفسة قوية وجيدة التصويب، مما جعل الخلايا الثلاث تنقلب الواحدة على الأخرى. وفي اللحظة التالية كان قد غطي من رأسه إلى قدميه بالنحل. كانت كل نحلة تدرك بمعرفة رهيبة ومذلة أنها في هذه الساعة الرهيبة من ساعات الكارثة لا تستطيع أن تلدغ، ولكن كانت كل واحدة تشعر أن عليها أن تدعي بأنها تلدغ. راح فسبالوس يزعق ويتلوى ضاحكاً، فقد كانت النحلات تدغدغه حتى الموت، وكان يرفس أحياناً بغضب ويشتم حين كانت إحدى النحلات القليلة التي لم تفقد سلاحها تلدغه. ولكن المشاهدين رأوا بدهشة أنه لم يظهر عليه ما يدل على أنه يصارع الموت، وحين وقع النحل المجهد بعيداً عن جسده، شوهد لحمه أبيض وناعماً كما كان من قبل تنفيذ الإعدام، مع لمعة صقيلة تركتها أقدام النحل كثيرة العدد الملوثة بالعسل، ولكن كان هنا وهناك بقعة حمراء صغيرة تركتها واحدة من تلك اللدغات النادرة. كان من الواضح أن معجزة قد حدثت لصالحه، وارتفعت همهمة عالية من الدهشة أو الجذل، من الجمهور المتفرج. أمر الملك أن ينزل فسبالوس لينتظر أوامر أخرى، ثم انسحب بصمت عائداً إلى وجبة منتصف النهار، وكان حريصاً أن يأكل بشهية

ويشرب بوفرة وكأنه لم يحدث أي شيء غير عادي. وبعد الغداء أرسل في طلب قيم المكتبة الملكية.

" سأله: (ما معنى هذا الإخفاق التام؟)

قال الموظف: "يا صاحب الجلالة، إما أن هناك خطأ أساسياً ما في النحل...)

"قال الملك بتعال: (لا خطأ في نحلي، إنه أفضل النحل.)

"قال قيم المكتبة: (أو أن الأمير فسبالوس على حق بشكل لا رجوع عنه).

"قال الملك: (إن كان فسبالوس على حق، فأنا على خطأ.)

"صمت قيم المكتبة للحظة. السرعة في الكلام من أسباب سقوط الكثيرين. أما الصمت غير المدروس فهو السبب في خراب موظف البلاط سيئ الحظ.

"اندفع الملك نحو قيّم الكتب الملكيّة، ناسياً التحفظ الذي تتطلبه منزلته، والقاعدة الذهبية التي توجب هدوء الفكر والجسم بعد وجبة ثقيلة، وضربه مراراً ودون تمييز على رأسه برقعة شطرنج من العاج، وإبريق نبيذ من القصدير وشمعدانٍ من النحاس. ثم دفعه بعنف ومرات عديدة على حاملة مصباح جدارية من الحديد كما لاحقه ثلاث مرات من حول غرفة المآدب برفسات سريعة حيوية.

وأخيراً، جره من شعر رأسه على امتداد ممر طويل ثم رماه من النافذة إلى الباحة التي في الأسفل.

"سألت البارونة: (هل تأذى كثيراً؟)

قال كلوفيس: "تأذى أكثر من أن يكون قد اندهش. كما ترين فإن الملك كان مشهوراً بمزاجه العنيف. وعلى أي حال، كانت تلك هي المرة الأولى التي يدع فيها نفسه يفقد كل سيطرته على نفسه بعد وجبة ثقيلة. بقي قيم المكتبة على قيد الحياة أياماً كثيرة: في الواقع، وحسب ما أعرف، فقد يكون قد شفي تماماً، إلا أن الملك هكريكروس مات في ذلك المساء نفسه. ولم يكن فسبالوس قد انتهى من التخلص من بقع العسل على جسمه إلا ووصل وفد مفوض ليضع زيت التتويج على رأسه. وإذا أخذنا في الحسبان المعجزة التي شهدها الناس جميعاً وتتويج ملك مسيحي، فلم يكن مدهشاً أن يحصل تدافع جمهور من المهتدين إلى الدين الجديد. تم تكريس أسقف على وجه السرعة وكان هذا مشغولاً جداً بعمليات التعميد العاجلة في كاتدرائية القديس أوديلو التي تم تحضيرها ارتجالياً. أما الفتى الذي كان يمكن أن يصبح شهيداً فقد تحول في المخيلة الشعبية إلى قديس شاب ملكي جذبت شهرته حشوداً من المتفرجين الفضوليين والورعين إلى العاصمة. لم يكن لدى فسبالوس، الذي كان منهمكاً في تنظيم الألعاب والمسابقات الرياضية التي كانت ستجري بمناسبة تتويجه، لم يكن لديه وقت

للانتباه إلى الحماسة الدينية التي كانت تتوهج من حول شخصيته. وكانت أول إشارة تلقاها عن الوضع الحالي للأمور حين جلب إليه حاجب الملك (وهي وظيفة أضيفت مؤخراً وبكل حماسة إلى الجالية المسيحية) طلباً للموافقة على الخطوط العامة للاحتفال بقطع أشجار أيكة الأفاعي المقدسة الوثنية.

"قال الموظف المتذلل: (سيكون صاحب الجلالة شديد السرور بأن يقطع أول شجرة بفأس مكرس خصيصاً للمناسبة.)

"قال فسبالوس بسخط: (سأقطع رأسك أولاً بأي فأس أجده في متناول يدي. هل تعتقد أني سأبدأ عهدي بالحكم بأن أتحدى الأفاعي المقدسة على هذا النحو المميت؟ سيكون ذلك أمراً جالباً لسوء الحظ الشديد.)

"صرخ الحاجب المذهول: (وماذا عن مبادئك المسيحية يا صاحب الجلالة) ؟

"قال فسبالوس : (لم يسبق أن كانت لدي مثل هذه المبادئ. لقد ادعيت أني تحولت إلى الدين المسيحي لأغيظ هكريكروس فحسب. كان من عادته أن يصاب بنوبات غضب لذيذة جداً. وكان أمراً مسلياً بالنسبة لي أن أجلد وأهان وأحبس في برج دون ذنب. أما فيما يخص اعتناقي الدين المسيحي بحقٍ، شأن ما يبدو أنكم تفعلونه أيها الناس، فأنا لا يمكنني أن أفكر في مثل هذا

الأمر. لقد ساعدتني الأفاعي المقدسة والمبجلة دائماً حينما كنت أصلي لها كي أفوز في مباريات الجري والمصارعة والقنص، كما أن شفاعتها المميزة هي التي جعلت النحل غير قادر على إيذائي بلدغاته. وسيكون من الجحود الشديد بالجميل أن أنقلب عن عبادتها في بداية عهدي. أكرهك لاقتراحك هذا الأمر.)

"فرك الحاجب يديه يائساً.

"أعول قائلاً: (ولكن يا صاحب الجلالة، الناس تبجلك كقديس، وهاهم النبلاء يتحولون إلى الدين المسيحي بالجملة، كما أن الحكام المجاورين من المسيحيين يرسلون مبعوثين خاصين ليرحبوا بك كأخ لهم. هناك كلام يدور عن جعلك القديس الراعي لخلايا النحل، كما أن لوناً أصفر عسلياً قد كرس باسم اللون الذهبي الفسبالوسي في بلاط الإمبراطور. لا يمكنك بالتأكيد أن تتخلى عن كل هذا.)

"قال فسبالوس: (لا يهمني إن كنت موضع التبجيل والترحيب والتشريف، ولا يهمني حتى أن أكرس كقديس طالما لا يتوقع مني أن أتمتع بصفات القديسين أيضاً. ولكني أرغب منك بوضوح وبشكل نهائي أن تفهم أني لن أتخلى أبداً عن عبادة الأفاعي المهيبة والميمونة).

"حين كان يتكلم كان هناك عالم غير منطوق من أهوال حفرة الدببة في طريقة لفظه لتلك الكلمات، كما أن العينين الداكنتين بلون التوت التمعتا على نحو يوحي بالخطر.

" قال الحاجب في نفسه: (عهد جديد، ولكن الطباع القديمة هي نفسها.)

"وأخيراً، وكضرورة تتعلق بالدولة، سويت مسألة الأديان . ففي فترات محددة كان الملك يظهر أمام رعاياه في الكاتدرائية الوطنية بشخصية القديس فسبالوس، كما كانت الأيكة الوثنية تتعرض تدريجياً للتقليم والتشذيب والبتر حتى اختفت تماماً. ولكن الأفاعي المقدسة والمبجلة نقلت إلى أرض خاصة مكسوة بالشجيرات في الحدائق الملكية، حيث كان فسبالوس الوثني وبعض أفراد أسرته يتعبدونها بكل خشوع واحترام. وربما يكون هذا هو السبب في أن الملك الفتى عرف في المسابقات الرياضية والقنص نجاحاً متواصلاً حتى نهاية حياته، وربما هو السبب أيضاً أنه رغم التقديس الشعبي لقداسته، إلا أنه لم يطوب رسمياً قط."

قالت البارونة: (لقد توقف المطر عن الهطول.)

* * *

١٠- الطريق إلى الملبنة

جلست البارونة وكلوفيس في زاوية يكثر التردد عليها من المنتزه وراحا يتبادلان الأسرار المتعلقة بالحياة الشخصية لسلسلة طويلة متتابعة من المارة.

سألت البارونة: "من أولئك الشابات اللواتي مررن للتو وتبدو عليهن الكآبة؟ لهن مظهر من انحنى أمام القدر للتو وليس واثقاً بعد من أن تحيته سيرد عليها بالمثل".

قال كلوفيس: "أولئك هن بنات آل برايملي بومفيلد. أستطيع أن أقول إنك كنت ستبدين كئيبة لو أنك مررت بمثل تجربتهن".

قالت البارونة: "أنا أمرّ دائماً بتجارب تسبب الكآبة، ولكني لا أدعها تظهر عليّ. هذا الأمر سيئ بقدر سوء أن تظهر المرأة بسنها الحقيقي. هيا واحك لي عن بنات آل برايملي بومفيلد".

قال كلوفيس: "حسناً، كانت بداية مأساتهن أنهن اكتشفن وجود خالة لهن. كانت الخالة موجودة هناك طوال الوقت، ولكنهن كن

قد نسين وجودها تقريباً حتى أنعش ذاكرتهن قريب بعيد القرابة حين ذكر اسمها بشكل متميز في وصيته. إن ما تستطيع تحقيقه قوة المُثل لأمر رائع. فالخالة التي كانت فقيرة دون أن يبدو عليها ذلك، أصبحت ثرية إلى حد مبهج تماماً، وفجأة أصبحت بنات آل برايملي بومفيلد مهتمات بالوحدة التي شابت حياتها ووضعنها تحت جناحهن الجماعي. كان لديها من حولها من الأجنحة آنذاك ما ذكر أنه كان من حول تلك الوحوش في سفر الرؤيا من العهد الجديد."

قالت البارونة:" حتى الآن لا أرى أي مأساة من وجهة نظر بنات آل برايملي بومفيلد."

قال كلوفيس:" لم نصل إليها بعد. لقد اعتادت الخالة على العيش ببساطة شديدة ولم تكن قد رأت مما ندعوه (حياة) أي شيء تقريباً، ولم تشجعها بنات أختها على القيام بالكثير للفت الأنظار إلى أموالها. وكان جزء كبير منها سيصبح من نصيبهن حين تموت، وهي امرأة متقدمة في السن. إلا أن ظرفاً واحداً ألقى بظلال الكآبة على الرضا الذي شعرن به لدى اكتشاف هذه الخالة المرغوبة واكتسابها: فقد أقرت بصراحة أن جزءاً وافياً من ثروتها الصغيرة ستخصص لابن أخ لها على الجانب الآخر من أسرتها. كان شخصاً يرثى له وبغيضاً، كما كان ممتازاً إلى حد ميئوس منه في طريقة بعثرته للمال، إلا أنه كان شريفاً

تقريباً في تعامله مع السيدة العجوز في الأيام التي كانت فيها منسية، وما كانت مستعدة لسماع أي شيء ضده. على الأقل ما كانت ستعير أي اهتمام لما قد تسمعه، ولكن بنات أختها كن حريصات على أنه سيكون عليها أن تصغي إلى كمٍّ كبير من الكلام في هذا الاتجاه. ويبدو أنه من المؤسف، كما كن يقلن بينهن و بين أنفسهن، أن يقع هذا المال الحقيقي بين يدي شخص تافه إلى ذلك الحد. وكن يتحدثن عادة عن ثروة خالتهن على أنها " مال حقيقي"، وكأن أموال خالات الناس الآخرين كانت زائفة.

"كن ينهمكن بشكل منتظم بعد سباق خيول دربي وسان ليجير ومناسبات سباق الخيل الهامة الأخرى في تخمين مسموع لمقدار ما بدّد ابن الأخ ذاك من المال في صفقات رهان سيئة الحظ.

"قالت كبرى بنات آل برايملي بومفيلد في أحد الأيام : (لا بدّ وأن نفقات سفراته قد وصلت إلى مبلغ كبير. يقولون إن يحضر كل اجتماع يتعلق بسباق للخيل في إنكلترا، إلى جانب اجتماعات أخرى في الخارج. ولن أستغرب لو أنه مضى حتى الهند ليشهد سباق الرهان على الخيل في كلكوتا الذي نسمع عنه الكثير) .

" قالت خالتها: (السفر يوسع الفكر، يا عزيزتي كريستين).

"وافقت كريستين قائلة: (أجل، يا خالتي العزيزة، ذلك هو السفر الذي يتم بالروح الصحيحة، ولكن السفر كوسيلة للمقامرة

والحياة المترفة من شأنه على وجه الاحتمال أن يقلص كيس الدراهم لا أن يوسع الفكر. وعلى أي حال، طالما كان روجر يمتع نفسه، فافترض أنه لا يبالي بالسرعة التي يبدد فيها المال أو يخسره، أو أين سيجد المزيد. يبدو ذلك مثيراً للشفقة، هذا كل ما في الأمر).

" كانت الخالة في ذلك الوقت قد بدأت تتحدث عن موضوع آخر، ومن المشكوك فيه أن يكون الدرس الأخلاقي الذي ألقته كريستين قد سُمع . وكانت ملاحظتها على أي حال - أعني ملاحظة الخالة- حول أن السفر يوسع الفكر، هو الذي أعطى صغرى بنات آل برايملي بومفيلد فكرتها العظيمة لفضح روجر.

"قالت: (لو أن خالتنا تستطيع فحسب أن تُصطحب إلى مكان ما لتراه وهو يقامر ويبذر الأموال، فهذا سيفتح عينيها على شخصيته بشكل أكثر فعالية من أي شيء نستطيع قوله).

"قال أختاها: (يا عزيزتنا فيرونيك، لا نستطيع أن نلاحقه إلى اجتماعات سباق الخيل).

قال فيرونيك: (بالطبع ليس إلى اجتماعات سباق الخيل، ولكن يمكننا أن نذهب إلى مكان ما يستطيع المرء فيه أن يتفرج على القمار دون أن يشارك فيه).

"سألتاها وقد بدأن يتوفزن من الفكرة: (هل تعنين مونتي كارلو)؟

" قالت فيرونيك: (مونتي كارلو مكان بعيد جداً، وله سمعة رهيبة. لن أقبل أن أقول لصديقاتنا إننا ذاهبات إلى مونتي كارلو. ولكني أعتقد أن روجر يذهب عادة إلى دييب في هذا الوقت من السنة، كما إن بعض الإنكليز المحترمين تماماً يذهبون إلى هناك أيضاً، والرحلة لن تكون مكلفة. لو استطاعت خالتنا أن تتحمل عبور القنال فإن تغيير المشهد قد يفيدها كثيراً).

"ومن هنا جاءت تلك الفكرة المشؤومة لبنات آل برايملي بومفيلد.

"منذ البداية خيمت الكارثة على الرحلة، كما تذكرن لاحقاً. ففي البداية، لم تشعر جميع بنات آل برايملي بومفيلد بأنهن على ما يرام خلال عبور القنال، بينما استمتعت الخالة بالهواء البحري وعقدت صداقات مع جميع أنواع رفاق السفر الغرباء. ثم، وبرغم سنوات كثيرة مضت منذ أن زارت القارة لآخر مرة، حيث كانت مارست تدريباً عملياً جداً كوصيفة مدفوعة الأجر، إلا أن معرفتها بالفرنسية المحكية فاقت معرفتهن بحيث توقفن عن استخدامها. وقد اصبح أمراً في منتهى الصعوبة وعلى نحو متزايد إبقاء شخص يعرف ما يريد وقادر على أن يطلبه ويتأكد من حصوله عليه، إبقاءه تحت جناحهن. أما فيما يخص روجر، فقد تفقدنه في جميع أرجاء دييب دون أن يجدنه. ثم تبين أنه كان مقيماً في بورفيل، وهو منتجع مائي صغير يبعد ميلاً أو اثنين

إلى الغرب. واكتشفت بنات آل برايملي بومفيلد أن دييب كانت شديدة الازدحام وتافهة، فأقنعن السيدة العجوز بالترحال إلى بورفيل الهادئة المعزولة بالمقارنة مع دييب.

"أكدن لها: (لن تجديها مملة، كما تعرفين، فهناك كازينو صغير ملحق بالفندق، وتستطيعين أن تراقبي الناس وهم يرقصون ويبذرون أموالهم على الجياد الصغيرة."

"كان ذلك قبل استبدال تلك الجياد الصغيرة وإحلال لعبة (البول) محلها.

"لم يكن روجر مقيماً في الفندق نفسه، ولكنهن عرفن أن الكازينو سيكون موضع اهتمامه معظم فترة ما بعد الظهر والأمسيات.

"في المساء الأول من زيارتهن تجولن في أنحاء الكازينو بعد عشاء مبكر جداً، ثم حومن حول مناضد القمار. كان برتي فان تان يقيم هناك في ذلك الحين، وقد وصف لي الحادثة كلها. أبقت بنات آل برايملي بومفيلد عيونهن مثبتة على الأبواب وكأنهن كن يتوقعن أن يدخل شخص ما، وأصبحت الخالة أكثر استمتاعاً واهتماماً بمراقبة الجياد الصغيرة وهي تدور من حول اللوح مرة إثر أخرى.

" قالت لكريستين: (هل تعرفين، الجواد الصغير رقم ثمانية لم يربح في آخر اثنتين وثلاثين دورة. أنا أقوم بالعد منذ فترة. سيكون علي بالفعل أن أضع خمسة فرنكات لتشجيعه.)

"قالت كريستين بعصبية : (تعالي نتفرج على الرقص). لم يكن ضمن استراتيجيتهن أن يدخل روجر فيجد السيدة العجوز وقد أغرمت بمنضدة الجياد الصغيرة.

" قالت الخالة: (انتظرن ريثما أضع الفرنكات الخمسة على الرقم ثمانية.) وخلال لحظة أخرى كانت النقود على المنضدة. بدأت الجياد بالدوران. كان سباقاً بطيئاً هذه المرة، وزحف الرقم ثمانية حتى النهاية مثل شيطان ماكر ووضع أنفه قبل الرقم ثلاثة بمسافة قصيرة جداً، وكان هذا يبدو وكأنه سيربح السباق بسهولة. تم اللجوء إلى القياس، وأعلن عن فوز الرقم ثمانية. ربحت الخالة خمسة وثلاثين فرنكاً. وبعد ذلك، كان على بنات آل برايملي بومفيلد استخدام القوة الموحدة لجعلها تبتعد عن مناضد القمار. وحين ظهر روجر كانت قد ربحت اثنين وخمسين فرنكاً . وكانت بنات أختها يحومن حولها بحزن في الخلفية، مثل دجاجات صغيرات فقست بطة عنهن البيض ورحن يراقبن بيأس أمهن وهي تلهو ضمن بيئة خطرة وغير ملائمة. وكان حفل العشاء الذي أصر روجر على إقامته في تلك الليلة على شرف عمته وبنات آل برايملي بومفيلد الثلاث رائعاً من حيث المرح العفوي لاثنين من المشاركين والكآبة الجنائزية للضيفات الباقيات.

"أسرت كريستين لاحقاً لصديقة عادت لتسر مجدداً لبرتي فان تان: (لا أعتقد أني سأكون قادرة قط على لمس الطبق المسمى " باتيه دو فوا غراس" مرة أخرى. فهذا من شأنه أن يجلب لي ذكريات تلك الأمسية الرهيبة.)

"خلال اليومين أو الثلاثة التي تلت، خططت بنات الأخت للعودة إلى إنكلترا أو الانتقال إلى منتجع آخر ليس فيه كازينو. كانت الخالة منهمكة في وضع نظام للربح خاص بلعبة الجياد الصغيرة. كان الرقم ثمانية، حبها الأول، غير كريم معها، فقامت بسلسلة من المراهنات على الرقم خمسة ولكنه كان أسوأ من سابقه.

" أعلنت بمرح على مائدة الغداء في المساء الرابع من زيارتهن: (أتعلمن أني أسقطت أكثر من سبعمائة فرنك على المناضد عصر هذا اليوم؟)

"(ماذا يا خالتي! ثمانية وعشرون جنيهاً! وكنت تخسرين في الليلة الماضية أيضاً.)

" قالت الخالة بتفاؤل: (أوه، سأستردها، ولكن ليس هنا. هذه الجياد الصغيرة الحمقاء ليست جيدة. سأذهب إلى مكان آخر حيث يستطيع المرء أن يلعب الروليت براحة. لا حاجة إلى أن تبدين مصدومات إلى هذا الحد. لقد شعرت على الدوام، أنه لو أتيحت

لي الفرصة، لأصبحت مقامرة متمكّنة، والآن أتحتن لي هذه الفرصة يا حبيباتي. وعليّ أن أشرب نخب صحتكن. أيها النادل، أحضر زجاجة "بونتيه كانيه". آه، إنها على الرقم سبعة على لائحة النبيذ. سألعب على الرقم سبعة الليلة. لقد ربح أربع مرات عصر هذا اليوم حين كنت أدعم ذلك الرقم السخيف: خمسة).

" لم يكن الرقم سبعة في مزاج الربح في تلك الليلة. اقتربت بنات آل برايملي بومفيلد، اللواتي تعبن من مراقبة الكارثة من بعيد، من المنضدة التي كانت خالتهن الآن ضيفاً مألوفاً عليها، وحدقن بحزن إلى الانتصارات المتتالية للأرقام واحد وخمسة وثمانية وأربعة، والتي اكتسحت "المال الحقيقي" من محفظة تلك المؤيدة العنيدة للرقم سبعة. وقد وصلت خسارة ذلك اليوم إلى ما يقارب ألف فرنك.

"قال روجر ممازحا لهن حين وجدهن قرب المناضد: (يا لكنّ من مقامرات عنيدات.)

"قالت كريستين ببرود شديد: (لسنا نلعب، بل نتفرج فقط.)

قال روجر عن معرفة: (لا أظن ذلك بالطبع. طبعاً أنتن نقابة والخالة تغامر بمصيركن جميعاً. ويمكن لأي شخص أن يعرف من مظهركن كلما ربح الحصان الخطأ أنكن تفكرن بمصيركن).

" في تلك الليلة تناولت الخالة وابن أخيها العشاء وحيدين، أو على الأقل كانا سيفعلان ذلك لولا أن برتي انضم إليهما. كانت جميع بنات آل برايملي بومفيلد يعانين من الصداع.

"قادتهن الخالة جميعاً إلى دييب في اليوم التالي وراحت تحاول بمرح استرداد بعض خسائرها. كان حظها متنوعاً. في الواقع، حققت بعض الأرباح، ولكن بما يكفي لإبقائها في حالة من الاستمتاع بتسليتها الجديدة. ولكنها كانت خاسرة إجمالاً. شننت بنات آل برايملي بومفيلد هجوماً جماعياً من الاعتراض العصبي في اليوم الذي باعت فيه كمية من الأسهم في خطوط السكة الحديد الأرجنتينية. قلن الواحدة للأخرى بحزن: (لن يُسترد ذلك المال قط).

" وأخيراً لم تعد فيرونيك تستطيع الاحتمال أكثر من ذلك، وعادت إلى الوطن. فكما ترين كانت هي التي اقترحت جلب الخالة إلى هذه الحملة الكارثية، ورغم أن أختيها لم تلوماها لفظياً في وجهها، إلا أنه كان هناك عتاب كامن في أعينهما أقسى من اللوم الفعلي. وتخلفت الأختان الأخريان، وهن يحرسن ببؤس خالتهن حتى يحين الوقت الذي ينتهي فيه موسم السياحة في دييب فتعود إلى الوطن والسلامة. وقد قامتا بحسابات قلقة عن مقدار (المال الحقيقي) الذي تم تبديده مع بعض النجاح المعقول في هذه الأثناء. ولكن حساباتهن ضلت الطريق: لقد جعل انتهاء موسم دييب الخالة تفكر في البحث عن منتجع آخر ملائم للقمار. (عليك

فقط أن تري الهرة الطريق إلى الملبنة...) نسيت كيف أنهي هذا المثل، ولكنه يلخص الوضع فيما يخص خالة بنات آل برايملي بومفيلد. لقد تم تعريفها على مسرات لم تكتشفها من قبل، ووجدت أنها تلائم مزاجها، ولم تكن متعجلة للتخلي عن ثمار معرفتها المكتسبة حديثاً. كما ترين كانت تلك أول مرة في حياتها تمتع بها تلك العجوز نفسها. كانت تخسر النقود، ولكنها كانت تنال الكثير من المتعة والإثارة خلال تلك العملية، وكان قد تبقى لديها ما يكفي لتعيش ببحبوحة . وبالفعل، فإنها كانت تتعلم للتو كيف تفهم فن إمتاع الذات. كانت مضيفة ذات شعبية، ورداً على ذلك كان زملاؤها من المقامرين جاهزين دائماً لدعوتها إلى الغداء والعشاء حين يكون الحظ إلى جانبهم. أما بنتا أختها اللتان بقيتا في خدمتها، رغم معارضتهما الكئيبة الأشبه بمعارضة طاقم سفينة كنز آخذة بالغرق، مغادرتها، على أمل أن أنه يمكن قيادتها إلى ميناء السلامة، فقد كن لا يجدن سوى متعة قليلة في تنتلك الاحتفالات البوهيمية. إن مشاهدة (المال الحقيقي) ينفق بإسراف وبذخ لإمتاع دائرة غريبة من المعارف لن يكون بينهم من قد يكون مفيداً من الناحية الاجتماعية لهما، لم تكن لتجعلهما تنسجمان مع روح العربدة والقصف. وكانتا تتجحان في الاعتذار من المشاركة في عربدات خالتهما المستهجنة. لقد أصبح صداع بنتي آل برايملي بومفيلد ذا شهرة كبيرة.

" وفي أحد الأيام وصلت بنتا الأخت إلى الاستنتاج بأنه، كما عبرتا عن ذلك، لا فائدة ترجى من عنايتهما بقريبة حررت نفسها تماماً من الحماية الواقية لأجنحتهما. وقد استقبلت الخالة إعلانهما بالمغادرة بابتهاج كان محبطاً لهما تقريباً.

"كان تعليقها على الوضع كما يلي: (لقد حان وقت ذهابكما إلى الوطن لتعرضا نفسيكما على طبيب اختصاصي لمعالجة ذلك الصداع).

" كانت رحلة عودة بنتي آل برايملي بومفيلد إلى الوطن تقهقراً حقيقياً من موسكو[1]، وما جعله أكثر مرارة كان حقيقة أن التقهقر من موسكو، في هذه الحالة، لم تكن تربكه النار والرماد، بل تربكه المعرفة المفرطة بإسراف.

" فمن الأصدقاء والمعارف المشتركين كن يحصلن أحياناً على لمحات عما يجري لقريبتهن المبذرة، التي كانت قد تحولت نهائياً إلى مجنونة مولعة بالمقامرة، وتعيش على ما يمكن استرداده من الدخل مما يتركه لها الدائنون تحت تصرفها.

أنهى كلوفيس كلامه قائلاً: "إذن، ليس عليك أن تصابي بالدهشة لو أنهن بدون كئيبات في العلن."

سألته البارونة: "أيهن فيرونيك؟"

قال كلوفيس: "أكثر الثلاث كآبة."

---

(١) يقصد تقهقر نابوليون عام ١٨١٢ (المترجم).

١١- سلام ماوزل بارتون

جلس كريفتون لوكِير براحة، وهي راحة في الجسم والروح على حد سواء، وذلك في تلك البقعة الصغيرة من الأرض، التي هي نصف بستان ونصف حديقة، والتي تتاخم فناء المزرعة في ماوزل بارتون. وبعد إجهاد وضجيج سنوات طويلة من حياة المدينة، فإن راحة وسلام بيت الآباء والأجداد المحاط بالتلال قد نزلا على حواسه بكثافة دراماتيكية تقريباً. بدا الزمان والمكان وكأنهما يفقدان معناهما وفجاءتهما. راحت الدقائق تنزلق بعيداً متحولة إلى ساعات، والمروج والأرض المراحة تنزلق إلى مسافة وسطى، بنعومة ودون إدراك بالحس. كانت الأعشاب البرية لنبات الوشيع تمتد دون اتساق إلى حديقة الزهور، كما كان المنثور وشجيرات الحديقة تقوم بغزوات مضادة على فناء المزرعة والممر الضيق. كانت دجاجات ناعسات وبطات رزينات يتصرفن كمن هو في بيته سواء في الفناء أو على الدرب؛ فلم يكن هناك شيء ينتمي بشكل محدد لأي مكان. وحتى

البوابات لم تكن موجودة بالضرورة على مفصلاتها. وقد حلّ فوق المشهد كله حسّ بالسلام كانت له تقريباً صفة السحر. في وقت العصر تشعر وكأن الوقت كان دائماً هو العصر، ويجب أن يبقى كذلك. في الغسق، تعرف أنه ما كان ممكناً له أن يكون سوى الغسق. جلس كريفتون لوكير براحة في المقعد المصنوع من أغصان الشجر تحت أغصان شجرة المشملة العتيقة، وقرر أن هذا هو مرسى الحياة الذي كان ذهنه يتصوره بشغف والذي كانت حواسه المتعبة والمصدومة تتوق إليه. سيجعل مسكنه الدائم بين هؤلاء الأشخاص البسيطين الودودين، ويزيد تدريجياً من أسباب راحته المتواضعة التي يود أن يحيط نفسه بها، والتي تنسجم بقدر الإمكان مع أسلوب معيشتهم.

وبينما راح يُنضِّج قراره على نار هادئة في ذهنه، وصلت امرأة عجوز تعرج بطريقة غير واثقة عبر البستان. وقد ميزها على أنها عضو في أسرة المزرعة، أو ربما حماة السيدة سبيرفيلد، مالكة الأرض الحالية، وصاغ بسرعة عبارة لطيفة ليقولها لها. ولكنها سبقته.

"هناك بعض الكتابة بالطباشير على الباب الذي هناك. ما هي؟"

تكلمت بأسلوب بليد مجرد، وكأن السؤال كان على شفتيها منذ سنين والأفضل التخلص منه. ولكن عينيها كانتا تنظران

على أي حال إلى باب حظيرة صغيرة تشكل قاعدة أمامية لصفّ منتشر دون نظام من أبنية المزرعة.

كانت الكتابة التي قرأها كريفتون بعد تمحيص هي "مارثا بيلامون ساحرة عجوز"، وقد تردد للحظة قبل أن يعلن لها ما قرأه. فقد تكون مارثا نفسها هي المرأة التي يخاطبها. ربما يكون بيلامون هو كنية السيدة سبيرفيلد قبل الزواج. كما إن المرأة العجوز النحيلة الذاوية إلى جانبه قد تكون هي الساحرة العجوز المعنية حسب الشروط المحلية السائدة.

شرح لها بحذر: "إنه شيء ما يتعلق بامرأة تسمى مارثا بيلامون".

" وما الذي يقوله ذلك الشيء؟"

قال كريفتون: "إنه أمر تشوبه قلة الاحترام، إذ يقول إنها ساحرة. لا ينبغي كتابة مثل هذه الأمور في العلن."

قالت المرأة برضا كبير: "هذا صحيح، كل كلمة منه". ثم أضافت بلهجة وصفية خاصة بها: "يالها من ضفدعة عجوز".

وبينما راحت تتابع سيرها وهي تعرج مبتعدة عبر فناء المزرعة صرخت بصوت حاد: "مارثا بيلامون ساحرة عجوز!"

"هل سمعت ما قالته"، همهم صوت ضعيف غاضب في مكان ما خلف ظهر كريفتون. التفت بسرعة، فرأى عجوزاً شمطاء

أخرى، نحيلة ذات وجه أصفر ومجعد، ومن الواضح أنها كانت منزعجة جداً. لا شك أن هذه كانت مارثا بيلامون شخصياً. بدا البستان وكأنه المنتزه المفضل لعجائز هذه المنطقة.

تابع الصوت الضعيف يقول: " إنه مجرد أكاذيب، أكاذيب آثمة. الساحرة العجوز هي بتسي كروت. هي وابنتها، يا لهما من واشيتين قذرتين. سألقي سحراً عليهما، تينك العجوزين البغيضتين."

وبينما تابعت طريقها وهي تعرج، شاهدت الكتابة بالطباشير على باب الحظيرة.

سألت وهي تلتفت إلى كريفتون: " ما الذي كتب هناك؟"

أجاب بالجرأة المتوسلة لصانع السلام الممارس:" صوّتوا لصالح سوركر".

نخرت المرأة العجوز واختفت همهماتها وشالها الأحمر الباهت تدريجياً بين جذوع الأشجار. نهض كريفتون فوراً وشق طريقه نحو دار المزرعة. على نحو ما، فإن مقداراً كبيراً من السلام بدا وكأنه قد تبخر في الجو.

راح الهرج المرح الذي كان يسود موعد تقديم الشاي في مطبخ المزرعة القديمة، والذي كان كريفتون قد وجده شديد اللطف في مناسبات سابقة، يبدو له اليوم وكأنه قد فسد متحولاً

إلى كآبة قلقة. كان هناك صمت مملّ بطيء يلف المائدة والشاي نفسه حين تذوقه كريفتون، فقد وجده مزيجاً عديم النكهة فاتراً من شأنه أن يطرد روح المرح من أي كرنفال.

قالت السيدة سبيرفيلد بسرعة، بينما كان ضيفها يحدق بتساؤل مهذب إلى فنجانه:" لا فائدة من التذمر بشأن الشاي. رفض الإبريق أن يغلي، هذه هي حقيقة الأمر."

التفت كريفتون إلى الموقد، حيث كانت نار ضارية إلى حد غير معهود تلتهب تحت إبريق أسود كبير، كان يرسل إكليلاً رقيقاً من البخار من بزبازه، ولكنه يبدو خلاف ذلك وكأنه يتجاهل مفعول اللهيب الهادر تحته.

قالت السيدة سبيرفيلد:" إنه فوق النار منذ أكثر من ساعة" ثم أضافت بأسلوب التفسير الشامل:" ولكنه لا يغلي. لقد سُحرنا."

أعلنت الأم العجوز :" لقد فعلتها مارثا بيلامون. سأنتقم من الضفدعة العجوز. سأسحرها."

احتج كريفتون وهو يتجاهل اقتراحات التأثيرات الشريرة: "لا شك أنه سيغلي في الوقت الملائم. ربما كان الفحم رطباً."

قالت السيدة سبيرفيلد:" لن يغلي في وقت العشاء، ولا عند الإفطار غداً صباحاً، ولن يغلي حتى لو أبقيت النار مشتعلة طوال الليل." وهذا ما جرى بالفعل. اضطر أهل البيت إلى تناول

الأطباق المقلية والمخبوزة، كما إنّ إحدى الجارات غلت لهم الشاي وأرسلته إليهم دافئاً بعض الشيء.

قالت السيدة سبيرفيلد عند الإفطار:" أفترض أنك ستغادرنا بعد أن أصبحت الأمور تخلو من الراحة. هناك أشخاص يتخلون عن كل شيء ما إن تحل المشاكل."

سرعان ما أنكر كريفتون أي تغيير في خططه. ولكنه لاحظ، على أي حال، أن الود السابق الذي ساد المنزل قد هجره إلى حد كبير. لقد أصبحت نظرات الشك والصمت الكئيب أو الكلام الحاد هي الأمور السائدة اليوم. أما فيما يخص الأم العجوز، فقد كانت تجلس في المطبخ أو الحديقة طوال اليوم، وهي تهمهم بالتهديدات والتعاويذ ضد مارثا بيلامون. كان هناك شيء مروع ومثير للشفقة في منظر تلك الهياكل البشرية شبه الفانية والتي تكرّس آخر قدراتها المتلاشية لمهمة تبادل زرع البؤس والشقاء في حياة الآخرين. بدا الكره وكأنه القدرة الوحيدة المتبقية بحماسة وكثافة لم تفترا، بينما انهار كل شيء آخر على نحو منتظم ومتسق. أما الجزء الخارق للطبيعة من الأمر فكان أن هناك قوة مروعة وكريهة بدت وكأنها قد قطّرت من حقدهن ولعناتهن. ما كان يمكن لأي مقدار من التفسير الشكاك أن يشرح السبب في حقيقة أنه لا إبريق الشاي ولا القدر كانا سيصلان إلى مرحلة الغليان

مهما كانت النار قوية. تشبث كريفتون ما أمكنه ذلك بنظرية وجود خطأ ما في الفحم، ولكن نار الحطب أعطت النتيجة نفسها، وحين أظهر إبريق الشاي الصغير الذي يعمل على الكحول والذي قام بطلبه بواسطة البريد الرفض العنيد نفسه للسماح لمحتوياته بالوصول إلى درجة الغليان، شعر أنه على احتكاك مباشر بمظهر لا يمكن إدراكه وشرير إلى أقصى حد من مظاهر قوة خفية. على مبعدة أميال وعبر فتحة في الجبال، استطاع أن يلمح طريقاً كانت تعبره السيارات أحياناً، ولكن حتى في هذا المكان غير البعيد جداً عن شرايين المدنية الحديثة، هاهو منزل تسكنه الخفافيش، يجتاحه شيء هو دون شك كالسحر.

اجتاز كريفتون حديقة المزرعة في طريقه إلى الممرات الضيقة التي خلفه، وراح يأمل أن يستعيد ذلك الإحساس المريح بالسلام الذي افتقده كثيراً في أرجاء المنزل والموقد- وخاصة الموقد – وإذ به يرى الأم العجوز جالسة على المقعد تحت شجرة المشملة وهي تهمهم لنفسها. "فلتغرق وهي تسبح، فلتغرق وهي تسبح"، هكذا كانت تكرر لنفسها مرة إثر أخرى، كما يكرر طفل درساً لم يحفظه جيداً. وبين الحين والآخر كانت تضحك بشكل فجائي، بلهجة مترعة بالشر لم تكن لطيفة على السماع. سرّ كريفتون حين وجد نفسه بعيداً عن مرمى السمع، في هدوء

وعزلة الممرات الضيقة الخفيضة المكسوة بالعشب التي بدت وكأنها لا تؤدي إلى أي مكان. وقد جذب أحد الممرات الأضيق والأخفض من البقية خطواته، وكاد يشعر بالانزعاج حين وجد أن ذلك الممر كان أشبه بطريق مصغر إلى مسكن للبشر. كان كوخ بائس له حديقة مهملة من نباتات الملفوف وبعض أشجار التفاح الهرمة قد بني على طرف جدول متدفق، يتسع مجراه متحولاً إلى بركة كبيرة قبل أن يكمل طريقه مسرعاً عبر أشجار الصفصاف التي كانت تعيق طريقه. اتكأ كريفتون على جذع شجرة وراح ينظر عبر المويجات المدوّمة للبركة إلى الكوخ المتواضع الصغير الذي كان أمامه. كانت الإشارة الوحيدة إلى وجود حياة موكباً من البطات القذرات المظهر اللواتي كن يتمشين في رتل واحد نحو حافة البركة. هناك دائماً شيء جذاب بالأحرى في الطريقة التي تنتقل بها البطة فجأة من مشيتها البطيئة المضطربة على الأرض لتتحول إلى سباحة رشيقة مرحة في الماء، وانتظر كريفتون باهتمام كبير ليراقب قائدة الرتل وهي ترمي بنفسها إلى سطح البركة. كان في الوقت نفسه مدركاً وجود غريزة تحذير عجيبة تفيده بأن شيئاً ما غريباً ومزعجاً كان على وشك الحدوث. رمت البطة بنفسها بثقة في الماء، وانقلبا فوراً تحت السطح. برز رأسها للحظة ثم اختفى مجدداً مخلفاً سلسلة من الفقاعات، بينما راح جناحاها وساقاها

يخفقان في الماء ضمن دوامة يائسة من الخفقان والرفس. كانت البطة تغرق بشكل جليّ. ظنّ كريفتون في البداية أنها قد علقت ببعض الأعشاب أو هاجمتها من الأسفل سمكة كراكي أو أحد جرذان الماء. ولكن لم تطف أي دماء على السطح، وراح الجسم المدوّم يدور من حول البركة دون أن يعيقه أي شيء. كانت بطة أخرى قد رمت بنفسها في البركة أيضاً، وراح جسم آخر يكافح ويدور ويلتوي تحت السطح. كان هناك شيء مثير للشفقة على نحو غريب في مشهد المناقير الفاغرة طلباً للهواء والتي كانت تبرز بين الحين والآخر فوق الماء، وكأنها في احتجاج مروع على هذه الخيانة من قبل عنصر موثوق ومألوف. حدق كريفتون بشيء أشبه بالذعر حين توقفت بطة ثالثة عند الحافة ورمت بنفسها في الماء، لتشارك البطتين الأخريين مصيرهما.

كاد يشعر بالراحة حين توقف باقي السرب بعد أن تلقّى إنذاراً متأخراً من حركة الأجسام الآخذة بالغرق، ومدت البطات أعناقهن بتوتر ثم ابتعدن عن مشهد الخطر، وهن يصحن مرتاعات. وفي تلك اللحظة نفسها أصبح كريفتون واعياً بأنه لم يكن الكائن البشري الوحيد الذي يرى ذلك المشهد. كانت امرأة عجوز ذاوية محنية الظهر، ميزها فوراً على أنها مارثا بيلامون، ذات السمعة الشريرة، تعرج هابطة على امتداد ممر الكوخ نحو حافة الماء وراحت تحدق بثبات إلى الأجسام الملتوية

البشعة للطيور المُحتضَرة التي كانت تدور من حول البركة في موكب رهيب. وسرعان ما رن صوتها بحدة بغضب راجف:

" لقــد فعلتها بتسي كروت. سأسحرها، وانتظــروا لتروا إن لم أفعل".

انزلق كريفتون مبتعداً، وهو غير واثق إن كانت المرأة العجوز قد لاحظت أم لم تلاحظ وجوده. وحتى قبل أن تعلن أن بتسي كروت هي المذنبة، فإن تعويذة هذه الأخيرة " فلتغرق وهي تسبح" التمعت بشكل غير مريح في ذهنه. ولكن كان التهديد الأخير بتعويذة انتقامية هي التي ازدحمت في ذهنه مع هاجس استثناء جميع الأفكار والصور الأخرى. لم تكن قدرته على التفكير قادرة بعد ذلك على أن تستطيع صرف النظر عن تهديدات تينك الساحرتين العجوزين على أنهما مجرد تبادل للشتائم الفارغة. هاهو المنزل في ماوزل بارتون وقد وقع فريسة لغضب امرأة عجوز محبة للانتقام بدت قادرة على تجسيد نكاياتها الشخصية بأسلوب عملي جداً، ولم يكن هناك مجال لمعرفة أي شكل آخر من أشكال الانتقام يمكن أن يتخذه انتقامها بعد ما حدث للبطات الثلاث الغارقات. وكواحد من أفراد المنزل، وجد كريفتون نفسه خاضعاً لعقاب كريه جداً ينزله به غضب مارثا بيلامون. كان يعرف بالطبع أنه يستسلم أمام خيالات عجيبة، ولكن سلوك إبريق مصباح الكحول والمشهد

التالي عند بركة البط قد أفقداه أعصابه. كما أضاف الغموض الذي اكتنف ذعره إلى دواعي قلقه. فحين تأخذ ذات مرة "المستحيل" في حساباتك، تصبح إمكانياته دون حدود عملياً.

نهض كريفتون في ساعة مبكرة كعادته في صباح اليوم التالي، بعد واحدة من أكثر الليالي قلقاً التي قضاها في المزرعة. كانت حواسه التي أصبحت حادة قد كشفت بسرعة ذلك الجو الرقيق الذي يوحي بأن الأمور ليست على ما يرام في هذا المنزل المبتلى بالكوارث. كانت البقرات قد حلبت ولكنهن كن يقفن محتشدات في الساحة، ينتظرن بنفاد صبر أن يؤخذن إلى الحقل، كما حافظت الدواجن على ذكرى مثيرة للشجار وملحّة بسبب تأجيل موعد إطعامها. أما مضخة الساحة، التي تقوم عادة بعزف موسيقى متنافرة النغمات في أوقات متعددة خلال الصباح الباكر، فقد صمتت اليوم بشكل يدعو للتشاؤم. في المنزل نفسه، كان هناك صوت خطوات الذهاب والإياب وصمت طويل قلق. أنهى كريفتون ارتداء ملابسه وشق طريقه إلى رأس الدرج الضيق. لم يستطع سماع صوت كئيب متذمر، صوت زحف إليه سكون مصاب بالرعب. ميّز الصوت على أنه صوت السيدة سبيرفيلد.

كان الصوت يقول:" سيرحل، لا شك في ذلك، هناك أولئك الذين يهربون بعيداً ما إن تظهر البلية."

شعر كريفتون أنه كان على الأرجح واحداً من "أولئك"، وأن هناك لحظات يكون فيها مستحسناً ألا يخالف المرء ما هو المفروض فعله من قبل شخص من نمطه.

زحف عائداً إلى غرفته، لملم أغراضه القليلة وحزمها، ووضع المبلغ الذي يدين به لقاء إقامته على الطاولة، ثم شق طريقه خارجاً من باب خلفي إلى الساحة. اندفع نحوه حشد من الدواجن. أبعدها عنه وأسرع يمشي محتمياً بحظيرة الأبقار وحظيرة الخنازير وأكوام التبن حتى وصل إلى الطريق في مؤخرة المزرعة. بعد أن سار بضع دقائق، وقد أعاقته حقيبة السفر عن العدو الصريح، وصل إلى الطريق الرئيسية، حيث سرعان ما مرت الحافلة المبكرة وأسرعت به نحو البلدة المجاورة. عند منعطف الطريق ألقى نظرة أخيرة على المزرعة. كانت الأسقف العتيقة ذات الجملون والحظائر ذات الأسقف المغطاة بالقش والحقل الممتد وشجرة المشملة ومقعدها الخشب، تبرز بوضوح شبحي تقريباً في نور الصباح الباكر، ومن فوقها كان يحل جو من الاستحواذ السحري ظنه كريفتون ذات مرة سلاماً.

فتنته جلبة وهدير محطة القطار في بادينغتون بتحية وقائية مرحب بها.

قال زميل سفر له:" لكم هي مضرّة بأعصابنا كل هذه الجلبة والإسراع. امنحني سلام وهدوء الريف."

تخلى كريفتون ذهنياً عن هذه السلعة المرغوب فيها. كانت قاعة للموسيقى مزدحمة وشديدة الإضاءة تعزف فيها مقطوعة "١٨١٢" من قبل أوركسترا حماسية هي أقرب ما تكون إلى نموذجه المثالي عن مهدئ للأعصاب.

* * *

١٢- كلاب القـدر

في النور المتلاشي لعصر يوم خريفي كئيب حبيس الهواء شق مارتين ستونر طريقه بتثاقل على امتداد طرق موحلة ودروب عربات حززتها العجلات والتي تؤدي إلى جهات لا يعرفها. تخيل أنه في مكان ما أمامه، كان البحر، وقد كانت خطواته تقوده نحو البحر على نحو ملح. لماذا كان يناضل متقدماً في سيره المتعب نحو ذلك الهدف؟ لم يكن يدري إلا بالكاد، ما لم تكن تتملكه الغريزة نفسها التي توجه الأيل المطارد عن كثب نحو أعلى نقطة في جرف. في حالته كانت "كلاب القدر " تدفعه بالتأكيد وبإلحاح متواصل لا يلين: وكان الجوع والتعب واليأس الكامل قد خدرت دماغه، ولم يستطع إلا بالكاد أن يستجمع ما يكفي من الطاقة ليتساءل عن الدافع الكامن الذي كان يدفعه نحو الأمام. كان ستونر واحداً من أولئك الأفراد سيئي الحظ الذي يبدون وكأنهم قد جربوا كل شيء. وكان الكسل الطبيعي مع التبذير قد تدخلا دائماً لإفساد أي فرصة في نجاح

معتدل، وهاهو الآن قد وصل إلى آخر المطاف، ولم يعد هناك ما يحاوله. لم يكن اليأس قد أيقظ فيه أي احتياطي كامن من الحيوية، بل العكس هو الصحيح، فقد نما خدر ذهني من حول حظه العاثر. راح مارتين ستونر يتقدم في سيره بحس متبلد، في الملابس التي كان يرتديها ولا يملك غيرها، ونصف بنس في جيبه، دون أي أصدقاء أو معارف يلوذ بهم، ولا أمل في سرير يقضي فيه الليل أو وجبة ليوم الغد. كان يمشي بين سياجات من الشجيرات الرطبة وتحت أشجار تقطر منها حبات المطر، وذهنه فارغ تقريباً، باستثناء أنه كان مدركاً دون وعي أنه في مكان ما أمامه يقع البحر. كما أن وعياً آخر كان يبرز بين الحين والآخر : معرفته بأنه جائع إلى حد البؤس. والآن توقف عند بوابة مفتوحة تؤدي إلى حديقة مزرعة واسعة إنما مهملة. كان هناك القليل من الأدلة على الحياة في ذلك المكان، وبدا منزل المزرعة في آخر الحديقة بارداً وغير مضياف. كان رذاذ المطر يهطل، وفكر ستونر بأنه قد يجد هنا مأوى لبضع دقائق ويشتري كوباً من الحليب بآخر قطعة نقود في حوزته. التفت ببطء وتعب نحو الحديقة واتبع ممراً ضيقاً ومرصوفاً بالحجر اللوحي يؤدي إلى باب جانبي. وقبل أن يتاح له أن يقرع على الباب، فتح هذا وتنحى رجل عجوز محني الظهر وذاوي الجسم جانباً كأنما ليسمح له بالدخول .

بدأ ستونر يقول: "هل لي أن أدخل وأحتمي من المطر؟" ولكن الرجل العجوز قاطعه.

"أدخل يا سيد توم. كنت أعرف أنك ستعود في يوم من الأيام".

ترنح ستونر وهو يجتاز العتبة ووقف محدقاً دون فهم إلى الرجل الآخر.

قال الرجل العجوز بلهفة تشوبها الرجفة: " اجلس بينما أجهز لك بعض العشاء." تهاوت ساقا ستونر من الإرهاق وغرق في الكنبة التي دفعت نحوه. وخلال دقيقة أخرى كان يلتهم اللحم البارد والجبن والخبز مما وضع أمامه على المائدة.

قال الرجل العجوز بصوت بدا لستونر وكأنه آت من حلم بعيد وغير منطقي: " لقد تغيرت قليلاً هذه السنوات الأربع، ولكنك ستجدنا وقد تغيرنا كثيراً. ليس هناك في هذا المكان من هو كما كان حين غادرته. ليس هناك سواي وسوى عمتك العجوز. سأذهب لأقول لها إنك عدت. لن ترغب في رؤيتك، ولكنها ستسمح لك بالبقاء حقاً. كانت تقول دائماً إنك لو عدت فهي لن تراك أبداً أو تكلمك مجدداً."

وضع الرجل العجوز كوزاً من الجعة على المائدة أمام ستونر ثم سار وهو يعرج على امتداد الممر الطويل. كان الرذاذ قد تحول إلى هطول جنوني أشبه بضرب السياط، وراح المطر

يضرب بعنف على الباب والنوافذ. فكر المتجول برعدة بما يمكن أن يبدو عليه شاطئ البحر تحت وابل هذا المطر، وظلام الليل يهبط من جميع الأرجاء. أنهى الطعام والجعة وجلس وهو ينتظر دون مبالاة عودة المضيف الغريب. ومع دقات الساعة تعلن مرور الدقائق في الزاوية بدأ أمل جديد يخفق وينمو في ذهن الشاب. كان ذلك مجرد تضخم لرغبته الملحة السابقة في الطعام وراحة بضع دقائق وقد تحولت إلى إيجاد ملجأ ليلي تحت هذا السقف الذي يبدو مضيافاً. سمع جلبة وقع خطوات على امتداد الممر مما بشره بعودة خادم المزرعة العجوز.

" لن تراك السيدة العجوز. يا سيد توم، ولكنها تقول إنه يمكنك البقاء. هذا أمر فيه ما يكفي من العدل، فالمزرعة ستكون من نصيبك حين ستصبح هي تحت التراب. لقد أشعلت لك ناراً في غرفتك، يا سيد توم، كما وضعت الخادمات شراشف نظيفة على السرير. لن تجد أي تغيير هناك. ربما تكون مرهقاً وتود أن تذهب إلى هناك الآن."

ودون أي كلمة نهض مارتين ستونر بتثاقل على قدميه ولحق بالملاك الحارس على امتداد ممر ثم صعوداً على درج ذي صرير، ثم على امتداد ممر آخر، ثم دخولاً إلى غرفة كبيرة تنيرها نار متقدة على نحو مبهج. لم يكن فيها سوى القليل من الأثاث البسيط عتيق الطراز ومن النوع الجيد. كانت الزينة

الوحيدة سنجاباً محنطاً ضمن صندوق زجاجي وتقويماً جدارياً يعود إلى أربع سنوات مضت. ولكن ستونر لم يكن يريد أن يرى سوى السرير، ولم يكد يستطيع أن ينتظر حتى يخلع ملابسه بسرعة ويتمتع بترف التعب في أعماقه المريحة. بدا وكأن كلاب القدر قد تم صدّها للحظة قصيرة.

في النور البارد للصباح ضحك ستونر دون مرح وهو يدرك ببطء الحال التي وجد نفسه فيها. ربما يكون عليه أن يحوز على بعض طعام الإفطار اعتماداً على الشبه الذي بينه وبين ذاك الشخص الشرير الآخر، ثم سيبتعد بأمان قبل أن يتم اكتشاف أمر التزييف الذي فرض عليه. في الغرفة التي في الطابق الأرضي وجد الرجل العجوز مستعداً بطبق من لحم الخنزير والبيض المقلي من أجل إفطار السيد توم، بينما كانت خادم عجوز ذات وجه قاسي الملامح تجلب إبريق الشاي وتصب له فنجاناً. وبينما كان يجلس إلى المائدة دخل كلب سبنيلي وراح يتودد إليه.

قال الرجل العجوز مفسراً، والذي نادته الخادم العجوز باسم جورج: " هذا جرو بوكر العجوز. كانت مولعة بك. ولم تكن في حال جيدة بعد رحيلك إلى أستراليا. لقد ماتت منذ حوالي السنة. هذا جروها".

وجد ستونر أنه من الصعب عليه أن يأسف لموتها. وكشاهدة على تشخيص هويته كانت ستترك شيئاً ما يكون مرغوباً.

كان العرض التالي المفاجئ من الرجل العجوز كما يلي:" هل تريد أن تذهب في جولة على الحصان؟ لدينا جواد أغبر صغير يناسب الركوب. (بيدي) العجوز أصبح متقدماً جداً في السن، رغم أنه ما يزال صالحاً للركوب، ولكني سأطلب أن يسرجوا لك الجواد الأغبر ويجلبوه لك حتى الباب."

تلعثم المنبوذ وهو يضحك تقريباً وينظر إلى بزته الوحيدة المهترئة:" ليس لدي ملابس للركوب."

قال الرجل العجوز بحماسة، وتقريباً بلهجة من تعرض للإهانة: "يا سيد توم، كل أغراضك موجودة حيث تركتها. القليل من التهوية أمام النار وستكون على ما يرام. سيكون في تجوالك على الحصان وقنص بعض البط البري بعض التسلية لك مجدداً. ستجد أن الناس في هذه الأرجاء يحملون تجاهك أفكاراً قاسية ومريرة. هم لم ينسوا ولم يغفروا. لن يقترب منك أحد،، لذلك يفضل أن تنال من اللهو ما تستطيعه مع الحصان والكلب. وهما سيكونان رفيقين جيدين لك".

ابتعد جورج العجوز وهو يعرج ليعطي الأوامر، أما ستونر الذي راح يشعر، كما لم يسبق له من قبل، أنه في حلم، فصعد إلى

الطابق العلوي ليبحث عن خزانة ملابس السيد توم. كان ركوب الجياد واحداً من المتع الأعزّ على قلبه، وكان هناك بعض الحماية من الاكتشاف الفوري لانتحاله للشخصية في فكرة أنه ليس من المحتمل أن يقوم أي من رفاق توم السابقين بالتدقيق فيه عن كثب. وحين أقحم المتطفل نفسه في ملابس الركوب المصنوعة من القيطان والتي جاءت وفق مقاسه إلى حد معقول تساءل بغموض ما هو الفعل الشرير الذي قام به توم حتى جعل الريف بأكمله يعاديه. قاطع وقع الحوافر السريعة التواقة على الأرض المبللة تأملاته. كان الجواد الأغبر قد جلب إلى الباب الجانبي.

فكر ستونر في نفسه، والجواد يخب على طرق موحلة كان قد سار كمتشرد عليها في الأمس كمنبوذ رث الملابس: "ما ذا عن شحاذ على ظهر حصان!". ثم أبعد التأمل عن ذهنه بكسل ومنح نفسه متعة الراكب الماهر الذي يخب على ظهر الجواد على امتداد طريق سوي نمت على جانبه نباتات الخث. عند بوابة مفتوحة، خفف من سرعته ليسمح لعربتين أن تلتفّا لتدخلا حقلاً. وجد الشابان اللذان كانا يقودان العربتين من الوقت ما يكفي ليحدقا إليه مطولاً، وحين تابع السير سمع صوتاً مستثاراً ينادي:" إنه توم برايك! لقد عرفته عل الفور. هاهو يظهر نفسه هنا مجدداً، أليس كذلك؟".

من الواضح أن الشبه الذي فرض نفسه عن كثب على رجل عجوز واهن كان قوياً إلى حد أنه ضلل أعيناً أكثر شباباً على مسافة قصيرة.

خلال جولته على الجواد وجد دلائل كافية لتؤكد ما قيل عن أن السكان المحليين لم ينسوا ولم يغفروا الجريمة السابقة التي ورثها عن توم الغائب. كانت النظرات العابسة والهمهمات والوكزات في استقباله كلما شاهد أشخاصاً. أما جرو بوكر الذي كان يهرول بهدوء إلى جانبه، فبدا وكأنه عنصر الود الوحيد ضمن عالم من العداء.

وحين ترجل عند الباب الجانبي شاهد بلمحة خاطفة امرأة كهلة نحيلة تحدق إليه من خلف ستارة نافذة علوية. من الواضح أن هذه كانت عمته بالتبني.

عبر وجبة الغداء الوافرة التي كانت مهيأة له، تمكن ستونر من مراجعة إمكانيات حالته الاستثنائية. فتوم الحقيقي، بعد سنوات من الغياب، قد يعود فجأة إلى المزرعة، أو قد تصل رسالة منه في أي لحظة. ومن جديد، في شخصيته الجديدة كوريث للمزرعة، يمكن أن يطلب إلى توم المزيف أن يوقع على وثائق، وسيكون في ذلك مأزق محرج له. أو قد يصل قريب ما ومن شأن هذا ألا يسلك سلوك العمة في الابتعاد عنه.

كل هذه الأمور ستؤدي إلى كشفه بشكل مخز. ومن ناحية أخرى، فإن البديل كان السماء المفتوحة والطرقات الموحلة التي تؤدي إلى البحر. كانت المزرعة تعرض عليه، على أي حال، ملجأ مؤقتاً من العوز. كما كانت الزراعة واحدة من أمور كثيرة "جربها" سابقاً، وسيتمكن من العمل إلى حد ما رداً على الضيافة التي لا يكاد أن يكون مؤهلاً لها.

سألته الخادم ذات الملامح القاسية: "هل تريد لحم خنزير بارد من أجل عشائك، أم هل تريد تسخينه؟"

قال ستونر: "ساخناً مع البصل." كانت تلك هي المرة الأولى في حياته اتخذ فيها قراراً سريعاً. وبينما كان يعطي الأمر، عرف أنه كان ينوي البقاء.

بقي ستونر ملتزماً بصرامة بتلك الأجزاء من المنزل التي بدت مخصصة له ضمن معاهدة صارمة محددة. وحين شارك في أعمال المزرعة فقد عمل كشخص يتلقى الأوامر ولم يصدرها قط. كان رفاقه الوحيدين هم جورج العجوز والجواد الأغبر وجرو بوكر ضمن عالم كان عدا ذلك صامتاً ومعادياً بشكل جليدي. لم ير سيدة المنزل قط. ومرة حين عرف أنها مضت إلى الكنيسة، قام بزيارة مختلسة إلى قاعة الاستقبال في المزرعة في محاولة لنيل بعض المعرفة الجزئية عن الشاب

الذي اغتصب هو محله، والذي كانت سمعته السيئة قد حلت به. كانت هناك صور كثيرة معلقة على الجدران، أو موضوعة في إطارات أنيقة، ولكن الشبيه الذي بحث عنه لم يكن موجوداً. وأخيراً، وجد ألبوم صور أقحم في مكان بعيد عن الأنظار، فشاهد فيه ما كان يريده. كانت هناك سلسلة كاملة من الصور، معنونة بكلمة "توم": طفل قصير وبدين في سن الثالثة، ضمن كنزة صوفية فانتازية، وصبي مرتبك في حوالي الثانية عشرة، يحمل مضرب لعبة الكريكيت وكأنه يكرهه، ثم شاب وسيم بالأحرى في الثامنة عشرة بشعر أملس ومفروق باستواء، وأخيراً شاب بتعبير متهور فظ. نظر ستونر إلى هذه الصورة الأخيرة باهتمام خاص: كان الشبه أمراً لا تخطئه العين.

ومن شفتي جورج العجوز الذي كان ثرثاراً بما فيه الكفاية فيما يتعلق بمواضيع كثيرة، حاول مجدداً ثم ثانية أن يعرف شيئاً عن طبيعة الجريمة التي جعلته شخصاً مجتنباً ومكروهاً من قبل الأشخاص الآخرين إلى هذا الحد.

سأل جورج في أحد الأيام بينما كانا يسيران إلى البيت من حقل بعيد:" ما الذي يقوله الناس في هذه الأرجاء عني؟"

هز الرجل العجوز رأسه.

"إنهم يشعرون بالمرارة منك، مرارة مميتة. أجل، هذا أمر محزن، أمر محزن".

ولم يستطع قط أن يجعله يقول أي شيء آخر أكثر توضيحاً.

وفي إحدى الأمسيات الصافية الجليدية، قبل أيام قليلة من عيد الميلاد، وقف ستونر في زاوية من البستان التي كان يمكن منها مشاهدة الريف جيداً. كان يستطيع أن يرى هنا وهناك النقاط المضيئة لمصباح أو شمعة تدل على وجود مساكن للبشر حيث كان الرضا والمرح الخاصين بهذه المناسبة في أوجهما. ومن خلفه كان يقبع منزل المزرعة الكئيب الصامت، حيث لم يكن هناك من يضحك، وحيث قد تعتبر حتى المشادة أمراً مبهجاً. وحين التفت ليلقي نظرة على الواجهة الطويلة الرمادية للبناء المكلل بالكآبة، فتح أحد البواب وجاء جورج العجوز مسرعاً. سمع ستونر اسمه المتبنى ينادى به بلهجة القلق المتوتر. وعلى الفور، عرف أن شيئاً ما غير سار قد جرى، وبردة فعل سريعة من الارتقاب أصبح ملاذه في نظره مكاناً للأمان والرضا، وكان يخشى أن يطرد منه.

قال الرجل العجوز بهمسة مبحوحة: : سيد توم، عليك أن تبتعد بهدوء من هنا لبضعة أيام. لقد عاد مايكل لي إلى القرية، وهو يقسم على قتلك حين يراك. اهرب تحت ستار الليل، وابتعد أسبوعاً أو نحوه، وهو لن يبقى هنا فترة أطول من ذلك."

تلعثم ستونر وقد أصيب بعدوى رعب الرجل العجوز الذي كان واضحاً: " وأين سأذهب"؟

"اذهب على امتداد الشاطئ إلى بنتشفورد واختبئ هناك. وحين يكون مايكل قد رحل بأمان، سأركب على الجواد الأغبر إلى نزل التنين الأخضر في بنتشفورد. وحين ترى الجواد في إسطبل التنين الأخضر فهذه علامة على أنك تستطيع العودة.

بدأ ستونر بدأ يقول بتردد:" ولكن... "

قال الآخر: "لا تهمك مسألة النقود. وافقت السيدة العجوز على أن تفعل ما أقوله لك وقد أعطتني هذه."

أخرج الرجل العجوز ثلاث جنيهات ذهبية وبعض النقود الفضية.

شعر ستنور أنه غشاش أكثر من أي وقت مضى وهو يتسلل مبتعداً في تلك الليلة من البوابة الخلفية للمزرعة مع نقود المرأة العجوز في جيبه. وقف جورج العجوز وجرو بوكر يراقبانه في وداع صامت من الباحة. لم يكد يستطيع أن يتخيل إلا بالكاد أنه سيعود البتة، وشعر بوخز الضمير تجاه هذين الصديقين اللذين سينتظران عودته. ربما سيعود توم الحقيقي في أحد الأيام، وسيكون هناك تساؤل مجنون بين سكان المزرعة البسطاء هؤلاء عن شخصية ذلك الضيف المبهم الذي آووه تحت سقفهم.

أما ما يخص مصيره الخاص، فلم يشعر بأي قلق فوري. كانت ثلاثة جنيهات ذهبية أمراً غير قليل في هذا العالم حين لا يكون هناك شيء وراءها، أما بالنسبة لشخص كانت موارده تعد بالبنسات فبدا أن هذا مبلغ جيد كبداية. لقد أسعفه الحظ على نحو غريب منذ أن طرق هذه الدروب كمغامر يائس، وقد يكون هناك بعد فرصة إيجاد عمل والبدء بانطلاقة جديدة. ومع ابتعاده عن المزرعة بدت روحه المعنوية بالانتعاش. كان هناك حس بالراحة في أن يعود ليكتسب مجدداً شخصيته المفقودة، وأن يتوقف عن أن يكون شبحاً قلقاً لشخص آخر. ولم يكترث بأن يفكر في العدو العنيد الذي هبط من اللامكان إلى حياته. وبما أن تلك الحياة كانت وراءه الآن، إلا أن عنصراً واحداً إضافياً غير حقيقي ما كان يمثل فرقاً كبيراً. ولأول مرة منذ شهور عديدة، بدأ يهمهم بلحن مرح لا مبال. ثم خرج من ظل شجرة سنديان متدلية الأغصان رجل يحمل بندقية. لم تكن هناك حاجة إلى التساؤل عمن يكون. كان نور القمر الهابط على وجهه الأبيض المصمم يكشف عن توهج لحقد بشري لم يسبق لستونر أن رآه من قبل خلال تجواله الطويل. قفز جانباً في جهد ضار للمرور عبر سياج كان يحد الطريق، ولكن الأغصان الخشنة القوية صدته. كانت كلاب القدر في انتظاره في تلك الدروب الضيقة، وفي هذه المرة لم تكن ستحرم من تحقيق إرادتها.

١٣- إعادة قولبة غروبي لينغتون

" قل لي من تصاحب أقل لك من أنت"

في غرفة الصباح في منزل زوجة أخيه، راح غروبي لينغتون يتململ مقضِّياً الدقائق المتبقية بالقلق الرزين الذي يميز الكهولة المتقدمة. كان ينبغي أن يمضي حوالي ربع الساعة قبل أن يقول وداعاً ويمضي في طريقه عبر مرج القرية نحو المحطة، ترافقه مجموعة منتخبة من أولاد الأخ وبناته. كان رجلاً طلق المحيا عذب المزاج، ومن الناحية النظرية فقد كان يستمتع بتلك الزيارات الدورية التي يقوم بها لزوجة وأولاد أخيه المتوفي ويليام. من الناحية العملية، كان يفضل بشكل غير محدود راحة وعزلة بيته وحديقته، ورفقة كتبه وببغائه، على تلك الغزوات غير ذات المغزى والمرهقة لدائرة الأسرة، والتي ليس له معها سوى القليل من الأمور المشتركة. ولم يكن ما يدفعه إلى القيام بتلك الرحلة القصيرة بالقطار لزيارة أقربائه هو ضميره الذي يحثه على ذلك فيتصرف بتنازل وطاعة لما هو

ملحّ، إنما الضمير الغيري لأخيه، الكولونيل جون، الذي كان من شأنه أن يتهمه بإهمال أسرة ويليام المسكين. وكان غروبي ينسى بالعادة أو يتجاهل وجود جيرانه حتى يحين ذلك الوقت الذي يتم تهديده فيه بزيارة من الكولونيل، وعندها فإنه كان يضع الأمور في نصابها الصحيح بحجّ سريع عبر تلك الأميال القليلة من الريف الفاصل بينه وبينهمم ليجدد معرفته بالصغار ويدعي الاهتمام اللطيف إنما الإجباري بأحوال زوجة أخيه. وفي هذه الزيارة، كان قد وقّت زيارته التبريئية مع حضور الكولونيل جون، بحيث أنه سيكون قد وصل إلى بيته قبل موعد وصول هذا الكولونيل مباشرة. وعلى أي حال، كان غروبي قد أنهى الزيارة، وقد تمر ستة أو سبعة أشهر بشكل لائق قبل أن تدعو الحاجة مجدداً إلى التضحية بدواعي راحته ورغباته على مذبح توثيق أواصر المودة العائلية. كان يميل إلى المرح الظاهر وهو يتقافز في أنحاء الغرفة، يلتقط أولاً هذا الشيء ثم شيئاً غيره، ويخضع كل واحد منها إلى تمحيص موجز أشبه بما تفعله الطيور.

وقد تغير قلقه المرح في الوقت الحاضر وبحدة متحولاً إلى موقف انتباه مغيظ. ففي دفتر ألصقت عليه بعض الرسمات وصور الكاريكاتير ويخص أحد أبناء أخيه، رأى رسمة تخطيطية ذكية إنما غير لطيفة تجمعه هو وببغاءه، وهما يواجهان واحدهما الآخر في وضعيات من الجدية والاسترخاء المضحكين، وكلاهما

يشبه الآخر بحيث أن الفنان قد بذل أقصى جهده في تصوير ذلك بدقة. وبعد مرور أول نوبة احمرار في الوجه من الغضب، ضحك غروبي بطيبة واعترف بينه وبين نفسه بمهارة الرسمة. ثم عاد شعور الامتعاض ينتابه مجدداً، الامتعاض ليس من رسام الكاريكاتير الذي جسّد الفكرة بالقلم والحبر، ولكن من الحقيقة الممكنة التي تمثلها الفكرة. هل صحيح أن البشر يصبحون مع مرور الزمن على شبه بالحيوانات المدللة التي يحتفظون بها؟ وهل أصبح هو دون معرفة منه أكثر فأكثر شبهاً بالطائر الرزين إلى حدٍّ مضحك والذي كان رفيقه الدائم؟ بقي غروبي صامتاً على غير عادته وهو يمشي إلى محطة القطار مع مرافقيه من أبناء وبنات أخيه الثرثارين، وخلال تلك الرحلة القصيرة بالقطار كان ذهنه أكثر انهماكاً بالقناعة الاستبطانية بأن وجوده قد ترسخ تدريجياً ليتحول إلى نوع من الوجود الببغائي. وما الذي قاده إليه روتينه اليومي المعتاد سوى إلى أن يتسكع برصانة وينقر ويجثم في حديقته بين أشجار فاكهته في كرسيه الخيزران فوق المرج، أو قرب المدفأة في مكتبه؟ وما كان يا ترى النتاج الإجمالي لمحادثاته مع جيرانه الذين يواجههم بالصدفة؟ "إنه يوم ربيعي حقيقي، أليس كذلك؟" " أو "يبدو كأنها ستمطر." أو " يسرني أن أراك مجدداً، عليك أن تعتني بنفسك." أو" كيف ينمو الصغار بسرعة، أليس كذلك؟" إنها سلسلة من الملاحظات الغبية المحتومة

الروتينية التي تطرأ على ذهنه، ملاحظات لم تكن بكل تأكيد التبادل الذهني بين مجموعة من أصحاب للذكاء البشري، ولكن مجرد كلام ببغائي فارغ. إذن يمكن للمرء أيضاً أن يحيّي معارفه حقاً بعبارات مثل:" ببغاء جميل" أو "بس بس مياو!" بدأ غروبي يغضب ضد صورة نفسه كطائر أحمق ذي ريش كما اقترحته رسمة ابن أخيه أول الأمر، تلك الصورة التي كانت مخيلته تملؤها بتفاصيل غير مرضية.

قال ممتعضاً: "سأتخلى عن ذلك الطائر البغيض"، رغم أنه كان يعرف في الوقت نفسه أنه لن يفعل ذلك. سيبدو الأمر غريباً جداً أن يحاول ويجد للببغاء بيتاً جديداً بعد كل تلك السنين التي احتفظ فيها به وأعطاه كل تلك الأهمية.

سأل السائس الشاب الذي وصل بالعربة التي تجرها الفرس لاصطحابه: "هل وصل أخي؟"

" أجل يا سيدي، وصل بقطار الساعة الثانية والربع. ببغاؤكم مات." تلفظ السائس بالعبارة الأخيرة بالمتعة التي يجدها أفراد طبقته لدى التبليغ عن كارثة.

قال غروبي: "ببغائي مات؟ ما سبب موته؟"

قال السائس بإيجاز: "القرد".

سأله غروبي :" القرد، أي قرد؟"

وصل الجواب المزعج: "القرد الذي أحضره الكولونيل معه".

سأل غروبي: "هل تعني أن أخي مريض؟ هل هو مرض معد؟"

قال السائس: "الكولونيل في أفضل حال." ولم يصل منه شرح آخر، فاضطر غروبي إلى التحلي بصبر ملغز حتى وصوله إلى البيت. كان أخوه في انتظاره عند الباب.

سأله أخوه على الفور:" هل سمعت بما جرى للببغاء؟ أقسم بروحي أني آسف جــداً. ففي اللحظة التي رأى فيها السعدان الذي جلبته كمفاجأة لك، زعق بصوت حاد: "كلامك فارغ يا سيدي!"، فقام السعدان المبارك بقفزة تجاهه، أمسك به من عنقه ولوح به كخشخيشة. وقد مات ما أن أنقذته من براثن الشحاذ الصغير. كان على الدوام ودوداً ذلك الوحش الصغير، ولم يخطر لي أن أراه يغضب بهذا الشكل. لا أستطيع أن أقول لك كم أشعر بالأسف تجاه ما حصل، وطبعاً أنت لن تتحمل الآن رؤية السعدان".

قال غروبي بإخلاص:" لا يهم إطلاقاً." قبل ساعات قليلة، كان من شأن تلك النهاية المأساوية التي حلّت ببغائه أن تمثل مصيبة بالنسبة إليه. والآن أحس بها كأنها عمل لطيف من أعمال القدر.

ومضى قائلاً وهو يفسر قلة أسفه اللائق على طيره المدلل: "كان ذلك الطائر قد أخذ يشيخ، كما تعلم، وكنت قد بدأت أتساءل

إن كانت مسألة تركه يعيش حتى يقتله الهرم مسألة فيها لطف خاص." وحين قُدم له الحيوان المجرم أضاف: " يا له من سعدان صغير فاتن!"

كان القادم الجديد سعداناً صغيراً طويل الذيل أحضر من نصف الكرة الغربي، ويتمتع بسلوك لطيف نصف خجول نصف واثق سرعان ما أستحوذ على ثقة غروبي. وقد يكون من شأن أي دارس للشخصية القردية أن يلاحظ في النور الأحمر المتقطع لعينيه إشارة ما للمزاج الكامن، والذي اختبره الببغاء بكل ذلك الاندفاع، فكان أن انتهى ذلك الاختبار إلى تلك النتائج المأسوية. أما الخدم الذين كانوا قد اعتادوا على اعتبار الطائر الميت واحداً من أهل البيت، ولم يكن يسبب في الكثير من المشاكل، فقد صدموا حين رأوا هذا المعتدي المتعطش للدماء يحل محله كحيوان البيت المدلل المحترم.

كان الحكم السلبي الذي نطق به الخدم في المطبخ كما يلي:" قرد وثني كريه لا يقول شيئاً معقولاً ومبهجاً شأن بولي المسكين."

* * *

في صباح يوم من أيام الأحد، بعد اثني عشر أو أربعة شهر من زيارة الكولونيل جون ومأساة الببغاء، جلست الآنسة ويبلي

باحتشام في مقصورتها في كنيسة الأبرشية، مباشرة أمام تلك المقصورة التي يحتلها غروبي لينغتون. كانت قد وصلت حديثاً إلى ذلك الحي، نسبياً، كما كانت على معرفة بزميلها في العبادة في الكرسي الذي وراءها. ولكن في السنتين الأخيرتين كان قداس يوم الأحد قد جعل كل منهما يدخل في مجال وعي الآخر. ودون أن تنتبه بشكل خاص إلى الموضوع، ربما كانت قادرة على معرفة طريقة لفظه لبعض الكلمات الواردة في ترتيله للردود التي ينطق بها الكاهن بالشكل الصحيح، بينما كان هو على وعي بالحقيقة التافهة، حقيقة أنه علاوة على كتاب صلواتها ومنديلها، كانت علبة صغيرة ورقية تحوي السكاكر التي تطهر الحنجرة موضوعة دائماً على المقعد المجاور لها. نادراً ما كانت الآنسة ويبلي تتناول أياً من سكاكرها، ولكن في حال أصيبت بنوبة سعال، كانت ترغب في أن يكون العلاج متوافراً في الوقت الملائم. في يوم الأحد هذا بالذات، شكلت السكاكر تلهية غير معتادة في المسار الروتيني لعبادتها، وكانت أكثر إثارة للإزعاج لها شخصياً من نوبة مطولة من السعال. فحين نهضت لتشارك في إنشاد أول ترتيلة، تخيلت أنها رأت يد جارها، الذي كان وحيداً في المقصورة التي خلفها، يقوم بعملية اختطاف مختلسة لعلبة السكاكر التي على المقعد. لدى الالتفات بحدة إلى الخلف رأت أن العلبة قد اختفت، ولكن لم يكن يبدو على السيد

لينغتون سوى الانتباه الرصين الموجه إلى كتاب التراتيل. لم يكن من شأن أن تحديق استجوابي من جهة السيدة المسلوبة أن يسبب في أي ظل من ظلال علامات الذنب على وجهه.

قالت لاحقاً لعدد من مستمعيها من الأصدقاء والمعارف: "كان الأسوأ سيحل لاحقاً. ما أن ركعت لأصلي حتى أزّت حبة سكاكر، واحدة من سكاكري أنا، وهي تدخل إلى مقصورتي، تحت أنفي مباشرة. التفت إلى الخلف وحدقت، كان السيد لينغتون قد أغلق عينيه بينما شفتاه تتحركان وكأنه منهمك في تلاوة الصلوات. وما أن استأنفت طقوسي إلا ووصلت حبة سكاكر أخرى وهي ترنّ، ثم أخرى. لم أفعل شيئاً لبعض الوقت، ثم التفتّ فجأة في الوقت الذي كان فيه ذلك الرجل الكريه على وشك أن يرمي حبة سكاكر أخرى باتجاهي. وقد تظاهر بسرعة أنه كان يقلب صفحات كتابه، ولكني لم أكن هدفاً له في تلك المرة. لقد عرف أن أمره قد اكتشف فلم يعد يرمي أي سكاكر. وبالطبع، فقد كنت قد بدلت بمقصورتي مقصورة أخرى."

قالت إحدى المستمعات :" لا يمكن لأي رجل مهذب أن يسلك هذا السلوك المشين، ومع ذلك فإن السيد لينغتون كان دائماً موضع احترام من الجميع. يبدو أنه تصرف وكأنه تلميذ صغير قليل التهذيب."

قالت الآنسة ويبلي: "تصرف مثل السعادين".

وقد كان لحكمها السلبي صدى في أماكن أخرى في الوقت نفسه تقريباً. لم يكن غروبي لينغتون بطلاً قط في عيون خدمه، ولكنه كان قد شارك ببغاءه الميت الاستحسان الذي كان يمنح له كشخص مرح جيد المزاج لا يتسبّب في أي مشاكل. أما في الأشهر الأخيرة، على أي حال، فإن هذه الشخصية ما عادت تنال الاستحسان من خدم المنزل. فعامل الإسطبل متبلد الحس، الذي أبلغه بالنهاية المأساوية لطيره المدلل، كان بين أول من عبّر بالكلمات عن همهمات الاستنكار التي انتشرت وأصبحت عامة بين الخدم، وكانت لديه أسباب معقولة تماماً ليعبر عن استهجانه. ففي موجة عنيفة من حرّ الصيف كان قد حصل على إذن ليستحم في بركة ذات حجم متواضع في البستان، وإلى هناك مضى غروبي عصر ذات يوم، تجذبه اللعنات الصاخبة الصادرة عن غضب ممزوج بالهذر الحاد الخاص بلغة السعادين. رأى خادمه الصغير ممتلئ الجسم لا يرتدي سوى صدريته وجوربيه فقط، وهو يحاول دون نجاح الانقضاض على السعدان الذي كان يجلس فوق غصن خفيض من شجرة تفاح، ويعبث شارداً بما تبقى من ملابس الفتى، التي وضعها بعيداً عن متناول الفتى.

انتحب الفتى قائلاً بانفعال من هم من طينته حين يشرحون ما هو واضح وجلي: "القرد سرق ملابسي". كان النقص في ملابسه يحرجه، ولكنه رحّب بوصول غروبي على أنه وعد بدعم أخلاقي ومادي له في جهوده لاستعادة ملابسه المسروقة. كان السعدان قد توقف عن هذره المتحدي، وكان سيعيد ما سرقه بكلمات لطيفة من سيده.

اقترح غروبي: "سأرفعك، وسوف تتمكن من الوصول إلى الملابس".

وافق الفتى، وأمسك به غروبي بقوة من صدريته ورفعه عن الأرض، ولم يكن هناك أي شيء آخر يمكن إمساكه منه عدا صدريته. ثم وبأرجحة بارعة دفعه ليصطدم بقوة بمجموعة من شجيرات القراص العالية التي أحاطت به من كل جانب. لم يكن الفتى الضحية قد تربى في مدرسة تعلمه أن يكبح انفعالاته: أي لو حاول ثعلب أن ينهش أعضاءه الأساسية لكان سيسرع ليشتكي إلى أقرب لجنة صيد لا أن يتخذ موقف اللامبالاة الاجتماعية. في هذه المناسبة، كان حجم الصوت الذي أطلقه بدافع الألم والغضب والدهشة هائلاً ومتواصلاً، ولكن كان يمكن أن نسمع الهذر المنتصر لعدوه فوق الشجرة أعلى من صوته، أما غروبي فكان قد أطلق سلسلة صاخبة من الضحك.

حين أنهى الفتى نصف دورة القديس فيتوس[1] التي كان من شأنها أن تجلب له الشهرة على ألواح الكوليزيوم[2]، والتي نالت بالفعل تقديراً وتصفيقاً جاهزين من غروبي لينغتون الذي تراجع عائداً إلى المنزل، فقد وجد أن السعدان قد رحل أيضاً سراً بينما كانت ملابسه منثورة على العشب تحت الشجرة.

همهم بغضب: " كلاهما قرد، هذه هي حقيقتهما." ولو كان حكمه عنيفاً، فإنه قال ما قاله تحت لذع الإغاظة الشديدة.

وقد حدث بعد أسبوع أو اثنين، أن استقالت خادمة الردهة، بعد أن روّعت إلى حد ذرف الدموع بسبب انفجار السيد من الغضب بسبب لحم الكستلاته غير الناضج. قالت لجمهور المستمعين المتعاطفين في المطبخ: "لقد صرّ بأسنانه تجاهي، لقد فعل ذلك حقاً."

قالت الطباخة بتحد: "أود لو أراه يتحدث بتلك الطريقة إليّ، أود ذلك حقاً. "ولكن طبخها تحسّن بشكل ملحوظ منذ تلك اللحظة.

---

(١) القديس فيتوس: هو القديس راعي الرقص والراقصين. كما أن هناك مرضاً يسمى باسم هذا القديس يصيب الأطفال قبل البلوغ ويتجلى باضطراب عصبي مع عدم استقرار عاطفي. (المترجم)

(٢) الكوليزيوم: هو المدرج الأثري الشهير في روما. (المترجم)

كان من النادر أن يقوم غروبي لينغتون بالتخلي عن عاداته المألوفة إلى حد الذهاب للمشاركة في حفل منزلي، كما لم يشعر بالاستياء لأن السيدة غلندوف - صاحبة الحفل- قد وضعته في الجناح القديم من المنزل من طراز الملك جورج، وكان إلى جواره في الغرفة المجاورة لينارد سبابينك عازف البيانو المرموق.

كانت شهادة المضيفة الحماسية عنه كما يلي: "إنه يعزف ألحان الموسيقار ليست كملاك."

وكان تعليق غروبي الذهني :"فليعزفه كسمكة الترويت فهذا لا يهمني." "ولكني لن أهتم في أن أراهن على أنه يشخر في نومه. إنه من ذلك النوع والشكل الذي يشخر. ولو سمعته يشخر عبر تلك الجدران الرقيقة المضحكة، ستقع المشاكل."

وقد كان يشخر فعلاً وجرت مشاكل.

تحمل غروبي الشخير مدة دقيقتين وربع، ثم شق طريقه عبر الممر إلى غرفة سبابينك. وبفضل تحركات غروبي القوية جلس جسم عازف البيانو المترهل البدين في السرير في نصف استفاقة تشوبها الحيرة، فكان أشبه بمثلجات تم تدريبها على الشحاذة. نخسه غروبي حتى استفاق تماماً، ولكن عازف البيانو النكد المغرور استشاط غضباً فضرب زائره المستبد على يده. وخلال لحظة أخرى كان سبابينك قد تعرض للخنق تقريباً إذ كان غطاء

الوسادة قد كمم فمه وربط بشدة من حول رأسه، بينما كانت أعضاؤه السمينة المغطاة بالبيجامة قد برزت من السرير وراحت تضرب وتقرص وترفس في عملية مصارعة فوق أرض الغرفة، باتجاه حوض الاستحمام الصغير الضحل المملوء بالماء والذي راح غروبي يحاول إغراقه فيه بإصرار. مرت لحظات قليلة كان الظلام يسود فيها الغرفة تقريباً: كانت شمعة غروبي قد انقلبت في مرحلة مبكرة من الصراع، ولم يكن وميضها يكاد يصل إلى حيث كان الماء المتناثر والضربات والصرخات المكتومة والغمغمات وهذر أشبه بهذر قرد غاضب يدل على صراع كان يحتدم على شواطئ حوض الاستحمام. بعد لحظات قليلة كانت المعركة وحيدة الجانب قد أنيرت بنور قوي أتى من الستائر المشتعلة وألواح الجدران الخشبية سريعة الاشتعال.

حين استفاق ضيوف الحفل بسرعة وهرعوا إلى المرج، كان الجناح من طراز الملك جورج لا يزال يقذف كتلاً من الدخان. ولكن مرت بضع لحظات قبل أن يظهر غروبي وعازف البيانو نصف الغارقين ذراعيه، بعد أن كان قد تذكر وجود مرافق أفضل لإغراق ضحيته توفرها له البركة في آخر المرج. إلا أن نسيم الليل البارد خفف من غضبه، وحين وجد أنه نال التصفيق ببراءة على أنه البطل المنقذ للينارد سبابنيك المسكين، والإطراء لسرعة بديهته إذ ربط خرقة مبللة حول رأسه لحمايته من

الاختناق بالدخان، فقد تقبل الوضع وقدم بالتالي وصفاً حياً لاكتشافه للعازف نائماً وشمعته منقلبة إلى قربه وقد بدأ الحريق بالانتشار. أما سبابينك فقد روى الحكاية من وجهة نظره بعد بضعة أيام، بعد أن تعافى جزئياً من العقاب والإغراق اللذين نالهما في منتصف الليل، ولكن الابتسامات اللطيفة المشفقة والتعليقات المتملصة التي قوبلت فيها حكايته حذرته من أن الأذن العمومية لم تكن تحت تصرفه. وقد رفض، على أي حال، أن يحضر الحفل الرسمي الذي انعقد في "الجمعية الملكية الإنسانية" لمنح غروبي ميدالية إنقاذ الحياة.

في ذلك الحين تقريباً، وقع سعدان غروبي المدلل فريسة مرض يصيب الكثير من بني جنسه حين يتعرضون لتأثير مناخ المناطق الشمالية. وقد بدا على سيده الحزن الشديد لفقدانه، ولم يستعد أبداً ذلك المستوى من المرح الذي كان قد توصل إليه في الفترة الأخيرة. وفي صحبة السلحفاة التي أهداها إليه الكولونيل جون في زيارته الأخيرة، راح يسير ببطء في أرجاء المرج وحديقة المطبخ في منزله دون أي علامة من علامات الحيوية والنشاط السابقين. أما أبناء وبنات أخيه فكانوا على حق تماماً حين أمسوا يدعونه بـــ "العم غروبي العجوز".

١٤- الذئبـة

كان لينارد بيلسيتر واحداً من أولئك الذين لم يستطيعوا أن يجدوا العالم جذاباً أو مثيراً للاهتمام، والذين سعوا إلى التعويض في "عالم غير مرئي" من صنع تجربتهم أو مخيلتهم: أو ابتكارهم. ويفعل الأطفال مثل هذا الأمر بنجاح، إلا أن الأطفال يكتفون بإقناع أنفسهم، ولا يبتذلون معتقداتهم بأن يحاولوا إقناع الأشخاص الآخرين بها. كانت معتقدات لينارد بيلسيتر موجهة لـــ "القلة"، أي لأي شخص يصغي إليه.

قد لا تكون اشتغالاته في اللامرئي قد حملته أبعد من التفاهات المعتادة لأشخاص حالمين في غرف الاستقبال، لولا أن الحادثة عززت من سمعة معرفته التقليدية في مجال الطقوس السرية. لقد قام بصحبة صديق له، كانت له حصة في شركة للتنقيب عن المعادن في الأورال، برحلة عبر أوروبا الشرقية في الوقت الذي كان فيه إضراب عمال سكة الحديد الروسية قد تحول من تهديد إلى واقع. وقد اندلع الإضراب وهو في طريق

العودة، في مكان ما من الجهة الأقصى من "بيرم"، وقد حدث خلال انتظاره نحو يومين في محطة جانبية في حالة من السفر المُرجأ، أن تعرف إلى تاجر يمارس تجارة عُدَدِ الجياد والخردوات المعدنية، والذي استغل بشكل رابح ضجر التوقف الطويل بأن راح يعلم رفيق سفره الإنكليزي نظاماً غير مترابط من الفولكلور الذي تعلمه من تجّار ومواطنين قادمين مما وراء بحيرة بايكال. عاد لينارد إلى موطنه وراح يثرثر أمام معارفه عن تجاربه الروسية خلال فترة الإضراب تلك، ولكنه كان متحفظاً بقوة فيما يخص بعض الأمور الغامضة الشريرة التي كان يلمح إليها باسم العنوان الباهر "السحر السيبيري". ولكن التحفظ بدأ يتلاشى خلال أسبوع أو اثنين تحت تأثير افتقار كامل للفضول العام، وبدأ لينارد يعطي تلميحات مفصلة عن القدرات الهائلة التي يمكن أن تتمتع بها هذه القلة التي اطلعت على هذه القوة الخفية وتعرف كيف تستغلها. ولكن خالته، سيسيليا هوبس، التي كانت تحب الأنباء المثيرة أكثر من محبتها للحقيقة على الأرجح، فقد راحت تروج له، وهي تحدث جلبة يمكن أن يتمناها أي امرئ، بأن تروي كيف استطاع أن يحول حبة كوسا إلى حمامة مطوقة أمام عينيها مباشرة. وكبرهان عن امتلاكه قوى فوق طبيعية، فقد قوبلت القصة بالشك في بعض الدوائر بسبب الاحترام الذي كانت تلقاه قوى التخيل لدى السيدة هوبس.

وبغض النظر عن مدى انقسام الرأي بشأن مسألة وضع لينارد كصانع للمعجزات أو كمحتال، إلا أنه وصل بالتأكيد إلى الحفل المنزلي الذي دعت إليه ماري همبتون وهو يتحلى بسمعة البروز في حقل أو أكثر من حقول تلك الحرف، ولم يكن من النوع الذي يميل إلى تجنب مثل هذه الدعاية التي قد تكون من نصيبه. كانت القوى الخفية وتلك الاستثنائية تحتل حيزاً واسعاً في أي حوار يشارك فيه هو أو خالته، وكانت إنجازاته الماضية والمستقبلية، موضوعاً لتلميحات غامضة وإقرارات خفية.

قالت مضيفته على مائدة الغداء في يوم وصوله: "أتمنى أن تحوّلني إلى ذئب يا سيد بيلسيتر".

قال الكولونيل همبتون: "يا عزيزتي ماري، لم يسبق لي أن عرفت لك توقاً في ذلك الاتجاه".

استأنفت السيدة همبتون الكلام قائلة: "أعني إلى ذئبة بالطبع. سيكون أمراً مربكاً أن يغير المرء جنسه ونوعه في لحظة واحدة".

قال لينارد: "لا أعتقد أن على المرء أن يمزح في مثل هذه المواضيع".

" لا أمزح، فأنا جادة تماماً، كما أستطيع أن أؤكد لك. ولكن لا تفعلها اليوم. ليس لدينا الليلة سوى ثمانية لاعبين للبريدج،

وستكون إحدى طاولات اللعب ناقصة واحدة من اللاعبات. غداً، سيكون لدينا حفل أكبر. غداً في الليل، بعد العشاء..."

" في فهمنا الحالي الناقص لتلك القوى الخفية أعتقد أن على المرء أن يقاربها بتواضع وليس بسخرية"، هذا ما قاله ليناردبحسم مما جعل الحوار حول الموضوع ينتهي فجأة .

جلس كلوفيس سانغريل صامتاً على غير عادته خلال النقاش حول إمكانيات السحر السيبيري . وبعد الغداء، فقد انفرد باللورد بابهام في العزلة النسبية لغرفة البلياردو وتحرر من سؤال دقيق كان يلح عليه:

" هل لديكم ذئبة يا ترى ضمن مجموعتكم من الحيوانات البرية؟ ذئبة ذات مزاج لطيف؟"

فكر اللورد بابهام ثم قال: "هناك لويزا، وهي بالأحرى عينة رائعة من ذئاب الغابات. لقد حصلت عليها قبل عامين إذ بادلتها بثعالب قطبية. معظم الحيوانات تصبح أليفة ما إن تبقى معي فترة ليست بالطويلة. أستطيع القول إن لويزا تتحلى بمزاج ملائكي. ولكن لم تسألني؟"

قال كلوفيس بتلك العناية الخالية من الهم التي يطلب بها المرء أن يستعير قبة قميص أو مضرباً من مضارب الكرة: "كنت أتساءل إن كنت تستطيع أن تعيرني إياها لليلة الغد".

"ليلـــة الغـــد؟"

قال كلوفيس بلهجة من حسب حساب كل شيء سلفاً: " أجل، الذئاب حيوانات ليلية، لذا فإنها لو سهرت حتى ساعة متأخرة فلن يضيرها ذلك. يمكن لأحد رجالك أن يحضرها من حديقة بابهام بعد الغسق، وبمساعدة قليلة يمكنه أن يستطيع تهريبها إلى المستنبت الزجاجي في اللحظة نفسها التي تخرج فيها ماري همبتون بشكل عادي".

حدق اللورد بابهام إلى كلوفيس لبرهة في حيرة تستحق العفو. ثم ضحك حتى تحول وجهه إلى شبكة من التجعدات.

" أوه، هذه لعبتك، أليس كذلك؟ ستقوم بحيلة سحرية سيبيرية على حسابك. وهل توافق السيدة همبتون على أن تكون زميلتك في المؤامرة؟"

" تعهدت ماري بأن تسير معي حتى النهاية إن ضمنت أنت مزاج لويزا".

قال اللورد بابهام: "أنا ضامن للويزا".

في اليوم التالي كان حضور الحفل المنزلي قد تضخم كثيراً، وكانت غريزة بيلسيتر الطامحة إلى الدعاية الشخصية قد توسعت أيضاً تحت تأثير الجمهور الأكبر. عند العشاء في ذلك المساء، كان قد تحدث مطولاً عن موضوع القوى الخفية وتلك التي لم

تجرب بعد، وكان تدفق بلاغته المثيرة للإعجاب قد استمر دون توقف خلال تقديم القهوة في غرفة الاستقبال قبل انتقال الجميع إلى غرفة لعب الورق. كانت خالته قد ضمنت إصغاء وقوراً لكلماته، ولكن روحها المحبة للأشياء المثيرة كانت تتوق إلى شيء أكثر دراماتيكية من مجرد التعبير الصوتي.

ناشدته قائلة: " ألن تفعل شيئاً (يقنعهم) بقدراتك يا لينارد؟ أن تحول شيئاً إلى شكل آخر. يستطيع ذلك، كما تعرفون، لو أنه أراده فحسب. " هذا ما قالته للحضور.

قالت مافيس بلينغتون بجدية: " أوه، ذلك فعلاً"، وقد أيد طلبها جميع الحضور تقريباً. وحتى أولئك الذين لم يكونوا قابلين للاقتناع رغبوا في أن تتم تسليتهم بعرض سحري يقوم به أحد الهواة.

شعر ليناردد أنه كان مطلوباً منه القيام بشيء محسوس.

سأل ليناردد: " هل لدى أحد من الحاضرين قطعة ثلاثة بنسات أو شيء صغير لا قيمة له..."

قال كلوفيس بلهجة يشوبها الازدراء: " لن تقوم بالتأكيد بجعل القطع النقدية تختفي أو تفعل شيئاً بدائياً من ذلك النوع؟"

قالت ماري همبتون وهي تعبر المكان نحو المستنبت الزجاجي لتطعم ببغاواتها "الماكو " حصتها من صحون الحلوى.

قال لينارد بوقار: " لقد سبق ونبهتكم إلى خطر معاملة هذه القوى بروح السخرية."

قالت ماري باستفزازية من المستتبت الزجاجي: "لا أعتقد أنك تستطيع القيام بذلك. أتحداك أن تفعله إن كنت تستطيع. أتحداك أن تحولني إلى ذئبة."

وبينما كانت تقول ذلك احتفت عن الأنظار خلف مجموعة من نباتات الأزاليا.

بدأ لينارد يقول بجدية زائدة: "يا سيدة همبتون... "ولكنه توقف عن الكلام. بدا وكأن نسمة من الهواء البارد راحت تتدفع عبر الغرفة، وفي الوقت نفسه فإن ببغاوات الماكو راحت تزعق بأصوات تصم الآذان.

صاح الكولونيل همبتون: "ما الذي جرى لتلك الطيور اللعينة يا ماري؟" في تلك اللحظة نفسها صدرت صرخة أكثر حدة من مافيس بلينغتون مما جعل جميع الحاضرين يقومون من مقاعدهم، ثم راحوا يواجهون وهم في وضعيات متنوعة من الرعب اليائس أو الدفاع الغريزي، وحشاً رمادي اللون شرير المظهر طفق يحدق إليهم على خلفية من نباتات السرخس والأزاليا.

كانت السيدة هوبس أول من استرد نفسه ضمن تلك الفوضى العامة من الخوف والارتباك.

صرخت بصوت حاد مخاطبة ابن أختها: " لينارد! أعدها لتكون السيدة همبتون فوراً! يمكنها أن تهاجمنا في أي لحظة. أعدها إلى ما كانت عليه!"

تلعثم ليناردالذي بدا أكثر رعباً ووجلاً من أي شخص آخر من الحضور: " لا ... لا أعرف كيف أفعل ذلك."

صاح الكولونيل همبتون: " ماذا! لقد أبحت لنفسك تلك الحرية الكريهة فحولت زوجتي إلى ذئبة، والآن تقف هناك بهدوء وتقول إنك لا تستطيع إعادتها إلى ما كانت عليه!"

وحتى لا نظلم ليناردن، فإن الهدوء لم يكن تلك الصفة التي كانت تميز سلوكه في تلك اللحظة.

قال محتجاً: " أؤكد لكم أني لم أحول السيدة همبتون إلى ذئبة. لم تكن تلك نيتي على الإطلاق".

سأل الكولونيل: " أين هي إذاً، وكيف دخل هذا الحيوان إلى المستنبت الزجاجي؟"

قال كلوفيس بلهجة مهذبة: " بالطبع علينا أن نقبل تأكيدك بأنك لم تحول السيدة همبتون إلى ذئبة، ولكنك توافق على أن المظاهر لا تؤيد كلامك."

أعولت مافيس ساخطة: " هل سيكون علينا إلقاء كل هذه التهم بينما الوحش واقف هناك مستعد لتمزيقنا إرباً؟"

اقترح الكولونيل همبتون: " لورد بابهام، أنت تعرف الكثير عن الحيوانات البرية..."

قال اللورد بابهام: "الوحوش البرية التي عرفتها كانت تصلني مع أوراق التعريف الملائمة الخاصة بها من تجار معروفين، أو تمت تربيتها في معرض الوحوش خاصتي. ولم يسبق لي أن واجهت حيواناً يخرج باطمئنان من شجيرات الأزاليا تاركاً خلفه مضيفة فاتنة ومحبوبة من الجميع دون أن نعرف مصيرها. أما فيما يخص قدرتنا على الحكم من الصفات الخارجية فإن له مظهر أنثى كاملة النمو من جنس الذئب الغابي لأمريكا الشمالية، وهو صنف من النوع الشائع المسمى "كانيس لوبوس" (الذئب الكلبي)."

صاحت مافيس بينما راح الوحش يتقدم خطوة أو اثنتين إلى داخل الغرفة: " أوه، لا يهم اسمها اللاتيني، ألا تستطيع أن تغريها بالابتعاد بالطعام مثلا، وأن تغلق عليها الباب بحيث لا تؤذي أحداً؟"

قال كلوفيس: " لو كانت هي السيدة همبتون حقاً والتي سبق لها للتو وتناولت وجبة عشاء جيدة جداً، فلا أفترض أن الطعام سيكون مغريا لها بشدة."

توسلت السيدة هوبس بعينين دامعتين: " لينارد، حتى لو كان هذا ليس من صنعك، ألا تستطيع استخدام قدراتك العظيمة

لتحويل هذا الشيء المخيف إلى شيء غير مؤذ قبل أن يعضنا جميعاً... إلى أرنب مثلاً أو شيء من هذا القبيل."

قاطع كلوفيس قائلاً: " لا أعتقد أن الكولونيل همبتون سيقبل بأن تتحول زوجته إلى تعاقبٍ للحيوانات الخيالية وكأننا كنا نلعب لعبة تبادل معها."

هدر الكولونيل : " أرفض ذلك رفضاً باتاً."

قال اللورد بابهام: "معظم الذئاب التي لديّ تحب السكر بشكل جامح. إن كنتم تحبون، فسوف أحاول تأثيره مع هذه الذئبة."

تناول قطعة سكر من صحن فنجان قهوته ورماها إلى لويزا المنتظرة التي انقضت عليها لتلتهمها وهي طائرة. كانت هناك تنهيدة ارتياح من الحضور. فالذئبة التي تأكل السكر بينما كانت تستطيع على الأقل أن تمزق الببغاوات إلى أشلاء، قد سبق لها وتنازلت عن بعض الرعب الذي يمكن أن تثيره. وقد تعمقت التنهيدة متحولة إلى شكر حين احتال اللورد بابهام على الذئبة وأخرجها من الغرفة بسخاء مزعوم من مزيد من السكر. جرى اندفاع فوري إلى المستنبت الزجاجي. لم يكن هناك اثر للسيدة همبتون باستثناء الطبق الذي كان يحوي عشاء الببغاوات.

صاح كلوفيس الذي قام بإدارة المفتاح بمهارة وهو يتظاهر بأنه يختبره: " الباب مقفل من الداخل!"

التفت الجميع نحو بيلسيتر.

قال الكولونيل همبتون: " لو أنك لم تحول زوجتي إلى ذئبة.. هل لك أن تتلطف وتشرح لنا أين اختفت، بما أنها لم تكن لتستطيع الخروج من باب مقفل؟ لن أضغط عليك لتعطي تفسيراً لظهور ذئبة غابية أمريكية شمالية فجأة في المستنبت الزجاجي، ولكني أعتقد أنه يحق لي أن أسأل عما جرى للسيدة همبتون."

ولكن إنكار بيلسيتر المكرر قوبل بهمهمة عامة من عدم التصديق مع نفاد الصبر.

صرحت مافيس بيلينغتون: "أرفض أن أبقى ساعة أخرى تحت هذا السقف."

قالت السيدة هوبس : " إن كانت مضيفتنا قد فقدت فعلاً شكلها البشري،، فلا يمكن لأي من السيدات الحاضرات أن تبقى هنا على الإطلاق. أرفض تماماً أن تكون مضيفتي ذئباً."

قال كلوفيس مواسياً: " بل ذئبة."

لم تكن قواعد التشريفات الملائمة التي يجب اتباعها بموجب تلك الظروف الاستثنائية تحتاج إلى المزيد من التوضيح. فالدخول المفاجئ لماري همبتون حرم النقاش من موضوعه الآني.

صاحت بغضب: "لقد نوّمني أحدهم تنويماً مغناطيسياً. وجدت نفسي في مخزن حفظ لحوم الطرائد، بين كل الأماكن الأخرى،

وقد أطعمت السكر من قبل اللورد بابهام. أكره التنويم المغناطيسي وقد منعني الطبيب من تناول السكر.

وقد تم تفسير ما جرى لها هذا إن كان يمكن تسمية ذلك تفسيراً.

صاحت باستثارة: "إذن، فقد حولتني فعلاً إلى ذئبة يا سيد بيلسيتر؟"

ولكن لينارد كان سبق له وأحرق المركب الذي كان من شأنه أن يبحر فيه في بحر المجد. كل ما استطاع فعله كان أن هز رأسه بضعف.

قال كلوفيس: " لقد كنت أنا من فعل ذلك، كما ترون، فقد سبق لي أن عشت عامين في شمال شرقي روسيا، ولديّ معرفة تزيد عن معرفة السياح بمهنة السحر في ذلك الإقليم. لا يكترث المرء بالتحدث عن القوى العجيبة، ولكن حين يسمع المرء الكثير من الهراء عنها، فقد يدفعه الإغراء لإظهار ما يمكن للسحر السيبيري يمكن أن ينجزه بين يدي شخص يستطيع فهمه فعلاً. وقد استسلمت لذلك الإغراء. هل لي ببعض البراندي؟ لقد جعلني الجهد الذي بذلته أشعر بالدوار."

لو استطاع لينارد بيلسيتر في تلك اللحظة أن يحول كلوفيس إلى صرصار ثم أن يدهسه بحذائه لفعل الأمرين معاً بسعادة غامرة.

١٥- لاورا

سألت أماندا: "أنت لا تحتضرين بالفعل، هل تحتضرين؟"

قالت لاورا: " لديّ إذن من الطبيب بأن أعيش حتى يوم الثلاثاء القادم."

شهقت أماندا: "ولكن اليوم هو السبت. هذه مسألة جدية."

قالت لاورا: " لا أعرف مدى جديتها. ولكن اليوم هو السبت بكلِّ تأكيد."

قالت أماندا: " الموت شيءٌ جديٌّ دائماً."

" لم يسبق لي أن قلت إني سأموت. من المفترض أن أتوقف عن كوني لاورا، ولكني سأستمر في الوجود على شكل شيء ما آخر. ربما نوع من الحيوانات، كما أفترض. كما ترين، حين لا يكون الإنسان صالحاً في حياته التي عاشها للتو، فإنه يتناسخ متحولاً إلى عضوية أقلّ أهمية. وأنا لم أكن صالحة جداً، هذا إذا ما تأمل المرء بالمسألة. لقد كنت ضيقة الأفق وخسيسة ومحبة للانتقام وكل تلك الأمور حين سمحت لي الظروف."

قالت أماندا بسرعة: "ولكن الظروف لا تسمح قط بمثل تلك الأمور".

قالت لاورا: " إذا كنت لا تنزعجين مما سأقوله، فإن إغبرت ظرفٌ يسمح بأي كمية من تلك الأمور. أنت متزوجة منه، هذا أمر مختلف. لقد أقسمت أن تحبيه وتكرميه وتتحمليه: أما أنا فلا."

احتجت أماندا قائلة: " لا أرى وجه الخطأ في إغبرت."

أقرت أماندا بهدوء: "أوه، أجرؤ على القول إن الخطأ كان من جانبي أنا،، أما هو فكان مجرد ظرفٍ ملطفٍّ. لقد أثار جلبة من النوع الرقيق النكد، مثلاً، حين أخرجت جراء الكولي من المزرعة لتمارس الركض في ذلك اليوم."

" لقد طاردت تلك الجراء دجاجات السسكس المبقعة الفتية ودفعت الدجاجاتِ الحواضن بعيداً عن أعشاشها كما أنها راحت تعدو فوق أحواض الزهور".

" على أي حال، ما كان عليه أن يستمر في ذكر ذلك طوال المساء ثم أن يقول: (فلنتوقف عن ذكرها) وذلك حين كنت قد بدأت الاستمتاع بالنقاش. "وهنا أضافت لاورا بضحكة تخلو من الندم: "عندها أتى واحد من أفعال الانتقام الخاصة بي. لقد أطلقت كامل أسرة السسكس المبقع في سقيفة شجيراته في اليوم اللاحق ليوم حادث الجراء."

صاحت أماندا: " وكيف استطعت ذلك؟"

قالت لاورا: " لقد جرى الأمر بسهولة، إذ تظاهرت دجاجتان بأنهما تبيضان في ذلك الوقت، ولكني كنت حازمة."

" ونحن الذي ظننا أن الأمر كان مجرد حادث. "

استأنفت لاورا الكلام فقالت: "لدي فعلاً من الأسباب ما يجعلني أفترض أن تجسدي القادم سيكون بشكل كائن حي أدنى مرتبة. سأكون حيواناً من نوع ما. من ناحية أخرى، فلم أكن شريرة بطريقتي الخاصة، لذلك أظن أني سأكون حيواناً لطيفاً، حيواناً رائعاً ونشطاً، محباً للمرح. ربما قضاعة.

قالت أماندا: "لا أستطيع تخيلك بشكل قضاعة".

قالت لاورا: " حسناً، لا أفترض أنك تتخيلينني ملاكاً، لو صح الأمر."

صمتت أماندا. ولكنها لم تستطع التخيّل.

استأنفت لاورا الكلام: " شخصياً، أعتقد أن حياة القضاعة ستكون من النوع الممتع، فهناك سمك السلمون لتناوله على مدار العام، وذلك الرضا المتأتي من القدرة على صيد سمك التروتة في موطنه دون الاضطرار إلى الانتظار لساعات حتى يتنازل فيصعد للطعم الذي تدلينه له: وهناك أيضاً ذلك الجسم الرشيق الرائع..."

قاطعتها أماندا قائلة: "فكري في الكلاب التي تصيد القضاعات، وكم سيكون مريعاً أن تطاردي وتنهكي ثم يتم عضك حتى الموت!"

"سيكون ذلك أمراً مسلياً مع نصف سكان الحي وهم يتفرجون عليك، وعلى أي حال لن يكون ذلك أسوأ من هذا الانتظار للموت بوصة إثر أخرى من السبت إلى الثلاثاء. ومن ثم سأتحول إلى شيء آخر بعد ذلك. إن كنت قضاعة طيبة بشكل معقول كما أفترض، فربما أعود إلى شكلي البشري مجدداً ولكن على نحومختلف؛ ربما بشكل بدائي بالأحرى... صبي نوبي أسمر صغير عار من الثياب، على ما أفترض."

تنهدت أماندا وقالت: "أتمنى أن تكوني جادة، فإن عليك فعلاً أن تكوني كذلك إن كنت ستعيشين حتى الثلاثاء فحسب."

وقد حدث في الواقع أن توفيت لاورا يوم الاثنين.

اشتكت أماندا لعم زوجها، السير للويرث كواين": "أمر مزعج إلى حد رهيب. لقد دعوت أشخاصاً كثيرين هناك للعب الغولف وصيد السمك، كما أن نباتات الوردية تبدو في أفضل حالاتها."

قال السير للويرث: " كانت لاورا متهورة على الدوام، فقد ولدت خلال أسبوع سباق السيارات في غودوود، بينما كان هناك سفير في المنزل يكره الأطفال الصغار."

قالت أماندا: "كان لديها أكثر أنواع الأفكار جنوناً. هل تعرف إن كان هناك أي حالات جنون في أسرتها؟"

"جنون؟ كلا، لم يسبق أن سمعت بمثل ذلك. يعيش أبوها في ويست كنسينغتون، ولكني أعتقد أنه عاقل في جميع الموضوعات الأخرى كافة."

قالت أماندا: "كانت لديها فكرة بأنها ستتناسخ بشكل قضاعة".

قال السير للويرث: " يقابل المرء مثل هذه الأفكار عن التناسخ كثيراً حتى في الغرب، بحيث لا يستطيع المرء أن يصنفها على أنها جنونية. ولاورا كانت شخصاً عديم المسؤولية إلى حد كبير في هذه الحياة إلى حد أني لا أحب أن أضع أحكاماً محددة تتعلق بما ستفعله في حالتها اللاحقة."

سألت أماندا: "هل تعتقد أنه من الممكن أن تكون استنسخت متحولة إلى شكل حيوان ما؟" لم تكن من النوع الذي يشكل أفكاره بشكل جاهز من وجهة نظر أولئك الذين من حوله.

في تلك اللحظة دخل إغبرت غرفة الفطور، وقد بدا عليه الحزن إلى درجة تفوق حزنه على موت لاورا.

صاح: "قتلت أربع من دجاجاتي السسكس المبقعة، تلك الأربع بالذات التي كانت ستذهب إلى المعرض يوم الجمعة. وقد سحبت إحداها وأكلت في منتصف حوض القرنفل ذاك الذي تكبدت كل ذلك العناء وبذلت كل ذلك المال من أجله. إنَّ أفضل أحواض الزهور لدي وأفضل طيوري يتم استفرادها بقصد تدميرها. يبدو وكأن ذلك الوحش الذي ارتكب هذه الفعلة يتحلى

بمعرفة خاصة تؤهله ليكون مدمراً أشد التدمير ضمن فترة قصيرة من الزمن."

سألت أماندا: " هل تظن أنه كان ثعلباً؟"

قال السير للويرث: " يبدو وكأن الفاعل ابن عرس نتن."

قال إغبرت: "كلا، كانت هناك علامات أقدام مكففة في جميع أرجاء المكان، وقد اتبعنا آثار الأقدام حتى الجدول في أسفل الحديقة. إنها قضاعة بشكل واضح."

نظرت أماندا بسرعة وخلسة إلى السير للويرث."

كان إغبرت مستثاراً إلى حد لم يستطع معه أن يتناول أي فطور، وقد خرج للإشراف على تدعيم دفاعات باحة الدواجن.

قالت أماندا بصوت مروع: " أعتقد أنه كان عليها على الأقل أن تنتظر حتى انتهاء مراسم الجنازة."

قال السير للويرث: "إنها جنازتها هي، كما تعلمين. هذه ناحية لطيفة تتعلق بالبروتوكول وإلى أي حد ينبغي على المرء أن يظهر الاحترام لجثمانه الخاص."

ولكن عدم احترام التقاليد الجنائزية بولغ فيه أكثر في اليوم التالي، فخلال غياب الأسرة في مراسم الدفن ذبح ما تبقى من دجاجات سسكس المبقعة. كان خط تراجع السارق قد مر على معظم أحواض الزهور في المرجة، ولكن أحواض الفريز في الحديقة السفلى عانت أيضاً من التخريب.

قال إغبرت بلهجة قاسية: " سأحضر كلاب صيد القضاعات إلى هنا في أقصر وقت ممكن."

صاحت أماندا: " إياك أن تفعل ذلك. إياك أن تحلم به. أعني أن ذلك لن يفيد مباشرة بعد مراسم الجنازة التي جرت في البيت."

قال إغبرت: " إنها حالة ضرورة. ما أن تعتاد القضاعة على هذا النوع من الأمور فهي لن تتوقف."

اقترحت أماندا: " ربما ستذهب إلى مكان آخر الآن حيث لم تعد طيور أخرى هنا."

قال إغبرت: " تجعلين المرء يفكر في أنك تريدين أن تحمي ذلك الوحش."

اعترضت أماندا قائلة: " لم يتبق في الجدول سوى القليل من المياه مؤخراً، ولا يبدو لي الأمر على علاقة بالروح الرياضية أن تذهب لتصطاد حيواناً وهو لا يملك سوى فرصة ضئيلة في اللجوء إلى أي مكانٍ للهرب."

قال إغبرت غاضباً: "يا للرب الرحيم! أنا لا أفكر في الرياضة. أريد أن أقتل ذلك الحيوان بأسرع وقت ممكن."

وحتى معارضة أماندا ضعفت حيث أن القضاعة شقت طريقها، خلال فترة الصلاة في يوم الأحد التالي، نحو المنزل، فقضت على

نصف أسماك السلمون من مخزن حفظ اللحوم ثم نهشتها وتركت البقايا المحرشفة فوق السجادة الفارسية في مرسم إغبرت.

قال إغبرت: "سرعان ما ستكون تحت أسرتنا وهي تنهش قطعاً من أصابع أقدامنا. ومما عرفته أماندا عن تلك القضاعة بالذات، فقد شعرت أن الإمكانية لم تكن بعيدة.

في المساء السابق على اليوم المحدد للصيد أمضت أماندا فترة لوحدها امتدت ساعة من الزمن وهي تمشي على ضفاف الجدول، وهي تصدر ما تصورت أنه نباح كلب من كلاب الصيد. وقد افترض أولئك الذين سمعوا أداءها بالصدفة – وبكل ترفق- أنها كانت تتمرن على تقليد أصوات الحيوانات من أجل الحفل الذي كانت القرية ستقيمه قريباً.

وقد جلبت لها أخبار الصيد صديقتها وجارتها أورورا باريت.

" إنه لأمر مؤسف أنك لم تكوني في الخارج. لقد كان يوماً جيداً. وجدناها على الحال، في البركة التي تحت حديقتنا مباشرة".

سألت أماندا: " هل قتلتموها؟"

" أجل. قضاعة أنثى جميلة. وقد أصيب زوجك بعضة قوية وهو يحاول تعقبها. يا لها من مسكينة تلك القضاعة، لقد شعرت بالأسف عليها، فقد كانت لها نظرة بشرية في عينيها وهي تقتل. ستقولين إني حمقاء، ولكن هل تعرفين بمن ذكرتني نظرتها؟ يا عزيزتي، ما المسألة؟"

حين استردت أماندا وعيها إلى حد معين من نوبة انهيارها العصبي، اصطحبها إغبرت إلى وادي النيل لاسترداد عافيتها. سرعان ما سبب السفر لها أن تسترد صحتها وتوازنها العقلي. كانت عمليات فرار قضاعة محبة للمغامرة بحثاً عن تنويع في الطعام قد وضعت في مكانها الصحيح. عاد مزاج أماندا الهادئ عادة إلى وضعه الطبيعي. وحتى ذلك الإعصار من السباب بصوت مرتفع القادم من حجرة لبس زوجها وبصوت زوجها، ولكن دون أن يستعمل مفرداته المعتادة إلا بالكاد، لم يستطع أن يجعلها تفقد هدوءها وهي تزيّن نفسها في إحدى الأمسيات في فندق من فنادق القاهرة.

سألت بفضول ممزوج باللهو: "ما الحكاية؟ ما الذي جرى؟"

" الوحش الصغير رمى بكل قمصاني النظيفة في حوض الاستحمام! انتظر حتى أمسك بك، أيها ...الصغير ."

سألت أماندا وهي تكبح رغبة في الضحك: "أي وحش صغير"؟ ولكن لغة إغبرت كانت غير ملائمة إلى حد ميئوس منه في التعبير عن مشاعره الغاضبة.

غمغم إغبرت: "وحش صغير عبارة عن صبي نوبي أسمر عار".

والآن أصبحت أماندا مريضة بشكل خطير.

١٦- المسمى "البروغ"

كان موسم الصيد قد انقضى، ولم يكن آل ماليت قد نجحوا في بيع "البروغ". كان هناك نوع من التقليد في الأسرة في السنوات الثلاث أو الأربع الماضية، نوع من الأمل الجبري، بأن البروغ سيجد شارياً قبل انقضاء موسم الصيد؛ ولكن الموسم حلّ ومضى دون أن يحدث أي شيء لتسويغ مثل هذا التفاؤل الواهي. كان الحصان قد سمي بـــ "برسركر" في المراحل الأولى من عمله. ثم أعيدت تسميته لاحقاً فمنح اسم "بروغ"[١] اعترافاً بحقيقة أنه ما إن تم اقتناؤه حتى أصبح من الصعب التخلص منه. وقد تفتق ظرف الجيران اللئيم عن اقتراح بأن الحرف الأول من الاسم كان زائداً[٢]. وقد وصف البروغ بشكل متنوع في كاتالوغ البيع على أنه "حصان خفيف الوزن صالح للصيد" و" حصان رشيق لركوب السيدات"، وكذلك بشكل أبسط

(١) تعني الكلمة بالإنكليزية "حذاء أيرلندي غليظ"

(٢) وهكذا يصبح اسمه Rogue وتعني "الوغد"

إنما مع لمسة من التخييل، على أنه "فرس مخصي كميت مفيد، يبلغ ارتفاعه ١٥,١". كان "توبي ماليت" قد ركبه في أربعة مواسم صيد في ويست ويسكس، وأنت تستطيع ركوب أي نوع من الخيول إذا شاركت في موسم صيد ويست ويسكس طالما كان ما تركبه حيواناً يعرف ذلك الريف. كان البروغ على معرفة حميمة بالريف، فهو الذي شق شخصياً معظم الفجوات التي يمكن أن يقابلها المرء في الضفاف والأسيجة على امتداد أميال كثيرة. كانت عاداته وصفاته غير مثالية في ميدان الصيد، ولكنه كان على الأرجح أكثر أماناً للركوب إلى حد ما في المطاردة مع كلاب الصيد من ركوبه للسير به على الدروب الريفية. ووفقاً لأسرة ماليت، فهو لم يكن في الواقع يجفل على الطريق، ولكن كان هناك شيء أو شيئان يكرههما مما يحدث لديه نوبات مفاجئة سماها "توبي" بـــ "مرض الانحراف". كان يعامل السيارات والدراجات بتجاهل يشوبه التسامح، أما الخنازير وعربات اليد وأكوام الحجارة وعربات الأطفال في شوارع القرى والبوابات المطلية باللون الأبيض إلى حد عدائي، وأحياناً، وليس دائماً، النوع الأحدث من خلايا النحل، فقد كانت تجعله ينطلق مبتعداً عن مساره في تقليد حيوي للمسار المتعرج للبرق المتشعب. ولو أن طائراً من طيور التدرج نهض بصخب من الجانب الآخر من أحد ألأسيجة، كان البروغ يقفز في الهواء في اللحظة نفسها،

وربما كان هذا يعود إلى رغبة في أن يكون حلو المعشر. كانت أسرة ماليت تكذب التقرير الواسع الانتشار الذي يفيد بأن الحصان كان – بشكل مؤكد - يحب عض مهاد الأطفال.

وقد جرى في الأسبوع الثالث من شهر أيار (مايو) أن السيدة ماليت، أرملة المرحوم سيلفستر ماليت، وأم توبي وباقة من البنات، أن هاجمت كلوفيس سانغريل في أطراف القرية ببيان لاهث عن الأحداث المحلية. صاحت قائلة: " أتعرف جارنا الجديد السيد بنريكارد؟ إنه غني إلى حد مرعب، ويملك المناجم في كورنوول، كهل وهادئ بالأحرى. وقد استأجر (المنزل الأحمر) لفترة طويلة وأنفق الكثير من المال على التعديلات والتحسينات. حسناً، لقد باعه توبي البروغ!"

بقي كلوفيس للحظة أو اثنتين وهو يهضم الخبر المدهش. ثم انفجر مهنئاً المرأة بقوة. ولو كان ينتمي لعرق أكثر عاطفية لربما كان قد قبّل السيدة ماليت.

"لكم أنتم محظوظون في النجاح أخيراً رغم المصاعب! والآن تستطيعون شراء حيوان لائق. كنت أقول دائماً إن توبي ماهر. تهانيّ الحارة جداً."

قالت السيدة ماليت بلهجة دراماتيكية: "لا تهنئني. فهذا أتعس أمر كان يمكنه أن يحدث! "

حدق كلوفيس إليها في دهشة.

قالت السيدة ماليت وهي تخفض صوتها إلى ما تصورت أنه همس مؤثر، رغم أنه كان يشبه بالأحرى زعيقاً أبح مترعاً بالإثارة: "السيد بنريكارد كان قد بدأ للتو بالاهتمام بـــ (جيسي). كان الاهتمام ضئيلاً في البداية ولكنه أصبح الآن من النوع الذي لا تخطئه العين. كنت حمقاء لأني لم أستطع الانتباه لذلك في وقت أبكر. البارحة، في الحفل الذي أقيم في حدائق بيت القسيس، سألها عن الزهور المفضلة لديها، فقالت القرنفل، واليوم وصلتنا كومة بحالها من القرنفل، أكباش القرنفل والمالميزون والقرنفل الأحمر الداكن والزهور الخاصة بالمعارض وعلبة من الشوكولا التي يبدو أنه جلبها خصيصاً من لندن. كما طلب منها أن تتمشى معه على طول النهر غداً. والآن، في هذه اللحظة الحاسمة، ذكر له توبي الحيوان. يالها من مصيبة!"

قال كلوفيس: "ولكنكم كنتم تحاولون التخلص من الحصـــان منذ سنوات."

قالت السيدة ماليت: "لديّ بيت مليء بالبنات، وكنت أحاول... حسناً ألا أتخلص منهن بالطبع، ولكن زوجاً أو اثنين لن يكونا بالأمر الخطأ بسبب كثرة عددهن. لديً ست منهن كما تعرف."

قال كلوفيس: "لا أعرف. لم يسبق لي أن عددتهن، ولكني أتوقع أنك على حق من حيث العدد. الأمهات يعرفن عادة مثل هذه الأمور".

تابعت السيدة ماليت همسها التراجيدي قائلة: "والآن، وحين وصل زوج ثري يلوح على الأفق بشكل واضح، هاهو توبي يذهب ويبيعه ذلك الحيوان البائس. ربما سيقتله لو حاول أن يركبه. وعلى أي حال، فسوف يقتل أي عاطفة قد يكون شعر بها تجاه أي عضو من أعضاء أسرتي. ما الذي ينبغي فعله؟ لا نستطيع أن نسترد منه الحصان. كما ترى، فقد مدحناه له كما يجب حين كنا نفكر في وجود فرصة لبيعه له، وقلنا إنه الحصان الملائم له بالضبط."

اقترح كلوفيس: "ألا تستطيعون سرقة الحصان من إسطبله وإرساله ليرعى العشب في مزرعة بعيدة مسافة أميال بعيدة؟ اكتبوا عبارة (صوتوا للنساء) على باب الإسطبل، وسوف تمر الحادثة على أنها تعبير عن غضب صادر عن المناديات بحق المرأة في التصويت. ليس هناك شخص يعرف الحصان ويشك على الأرجح في أنكم تريدون استعادته."

قالت السيدة ماليت: " ستنشر كل صحيفة في البلد الخبر. ألا تستطيع أن تتخيل المانشيت؟ (جواد صيد ثمين يسرق من قبل أنصار حق المرأة في التصويت)؟ ستقوم الشرطة بتقليب الريف كله حتى تجد الحصان".

" حسناً، يمكن لجيسي أن تحاول استرداده من بنريكارد على أساس أنه حيوان عجوز أثير . تستطيع أن تقول إنه لم يبع إلا

لأن الإسطبل كان سيهدم بسبب شروط عقد إيجار قديم بغرض الترميم، والآن تم التمديد له مدة عامين آخرين قبل الهدم."

قالت السيدة ماليت: "سيكون أمراً شاذاً أن تطلب استعادة حصان بعد بيعه مباشرة، ولكن ينبغي فعل شيء ما وأن يتم ذلك فوراً. ليس الرجل معتاداً على ركوب الخيل، وأعتقد أني قلت له إن الحصان وديع كالحمل. وعلى أي حال، فإنه حتى الحملان ترفس وتتلوى لو كانت مخبلة، أليس كذلك؟"

قال كلوفيس مسلماً بصحة ما قالته: " للحمل صفة سيئة تماماً فيما يخص الرزانة."

عادت جيسي من المشوار على أطراف ملعب الغولف في اليوم التالي وهي في حالة من الابتهاج الممزوج بالقلق.

أعلنت: "جرى الأمر بشكل جيد فيما يخص عرضه الزواج عليّ. لقد طرح الموضوع عند الحفرة السادسة. وقلت له إن علي أن أحصل على مهلة للتفكير. وقد قبلت به عند الحفرة السابعة."

قالت أمها: "يا عزيزتي، أعتقد أنه كان من الأفضل لك أن تبدي بعض التحفظ والتردد اللائقين بالعذراوات، فأنت لا تعرفينه إلا منذ وقت قصير. كان يمكنك الانتظار حتى الحفرة التاسعة."

قالت جيسي: "السابعة حفرة طويلة جدا، كما أن التوتر كان يجعلنا كلانا نتوقف عن اللعب. وما أن وصلنا إلى التاسعة حتى

كنا قد سوينا الكثير من الأمور. سنقضي شهر العسل في كورسيكا، مع زيارة سريعة إلى نابولي لو شعرنا بالرغبة في ذلك، وسوف نقضي أسبوعاً في لندن في النهاية. سيطلب من اثنتين من بنات أخيه أن تكونا اشبينتين للعروس، ومع أخواتي سيكون عدد الإشبينات سبعاً وهو بالأحرى رقم محظوظ. سترتدين ثوبك الرمادي اللؤلؤي مع أي كمية من تخريمات هونيتون يمكن أن توضع عليه. وبالمناسبة، سيحضر هذا المساء ليطلب موافقتكم على كل هذه الأمور. حتى الآن، كل شيء يسير بشكل حسن، أما فيما يخص البروغ فتلك مسألة مختلفة. حكيت له تلك الأسطورة عن الإسطبل، وكم نتوق إلى أن نشتري الحصان منه مجدداً، ولكنه يبدو تواقاً بالدرجة نفسها إلى الاحتفاظ به. قال إن عليه أن يتمرن على ركوب الحصان في الوقت الحالي بما أنه يعيش في الريف. وأنه سيبدأ التمرين غداً صباحاً. لقد سبق له وركب بضع مرات في "الرو" حصاناً كان معتاداً على حمل شيوخ في الثمانينات من أعمارهم وأشخاص يخضعون لعلاجات الراحة، وهذه هي كل خبرته في ركوب السرج... أوه، كما ركب فرساً ذات مرة في نورفولك، حين كان في الخامسة عشرة والفرس في الرابعة والعشرين. وغداً سيركب البروغ! سأصبح أرملة قبل أن أتزوج، وأنا أتوق بشدة إلى رؤية كورسيكا فهي تبدو مضحكة جداً على الخريطة."

تم استدعاء كلوفيس على عجل، وشرحت له تطورات الوضع.

قالت السيدة ماليت: "لا يمكن لأي شخص ركوب ذلك الحيوان ويكون آمناً، باستثناء توبي، فهذا يعرف من خبرته الطويلة ما الذي يجفله ويدبر أمر الانحراف به بعيداً في الوقت الملائم."

قالت جيسي: " لقد ألمحت للسيد بنريكارد- كان ينبغي أن أقول فنسنت - بأن البروغ لا يحب البوابات البيضاء".

صاحت السيدة ماليت: "بيضاء! هل ذكرت مدى تأثير الخنازير عليه؟ سيكون عليه المرور بجانب مزرعة لوكيير للوصول إلى الطريق العالي، ولا شك أنه سيكون هناك خنزير أو اثنين يقبعان في الممر الضيق بين الأسيجة."

قال توبي: " مؤخراً اصبح يكره الديكة الرومية."

قال كلوفيس: " من الواضح أن بنريكارد ينبغي ألا يسمح له بركوب ذلك الحيوان، على الأقل ليس قبل أن تتزوج جيسي منه ثم شعورها بالملل منه. أقول لكم ماذا تفعلون: اطلبوا منه أن يذهب في نزهة غداً، بدءاً من ساعة مبكرة. هو ليس من النوع الذي يركب الجياد قبل الفطور. وفي اليوم التالي سأجعل القسيس يأخذه في عربته قبل الغداء ليرى مستشفى الكوخ الجديد الذي يقومون ببنائه هناك. سيبقى البروغ في الإسطبل ويمكن لتوبي أن يعرض أن يمرنه قليلاً. ثم يمكن للحصان أن تندس حصوة

في حدوته أو أي شيء من هذا القبيل ويصبح أعرج بشكل ملائم. ولو عجلتم في أمر الزفاف قليلاً، فإن حكاية العرج يمكن أن تستمر حتى ينتهي الاحتفال بسلام."

كانت السيدة ماليت تنتمي إلى عرق عاطفي، فقبلت كلوفيس.

لم تكن تلك غلطة أي شخص حين هطل المطر غزيراً صباح اليوم التالي، مما جعل النزهة استحالة فانتازية. ولم تكن تلك غلطة أي شخص، ولكن مجرد سوء حظ حين صحا الجو بشكل كاف في فترة العصر مما أغرى السيد بنريكارد بأن يقوم بمحاولته الأولى مع البروغ. لم يكونا قد وصلا حتى إلى خنازير مزرعة لوكيير. فقد كانت بوابة بيت القسيس مطلية بلون أخضر باهت غير مثير، ولكنها كانت بيضاء قبل عام أو اثنين، ولم ينس البروغ قط أنه كان من عادته أن يقوم بانحناءة عنيفة وتراجع وانحناءة في هذا المكان بالذات من الطريق. وبالتالي، حين لم تعد خدماته مطلوبة، فقد اقتحم بستان بيت القسيس حيث وجد دجاجة رومية في خم. وقد وجد زوار لاحقون للبستان الخم سليماً تقريباً ولكنهم لم يجدوا أنه قد تبقى إلا القليل من الدجاجة.

أما السيد بنريكارد الذي داخ وترنح قليلاً وعانى من كدمة في ركبته وبعض الإصابات الخفيفة الأخرى، فقد عزا الحادث

بطيبة خاطر إلى قلة خبرته في الركوب ومعرفته بالطرق الريفية، وقد سمح لجيسي أن تمرّضه حتى تعافى تماماً وعاد أهلاً للعب الغولف خلال أقل من أسبوع.

وضمن قائمة هدايا العرس التي نشرتها الصحيفة المحلية بعد أسبوعين أو نحوه، فقد ظهر البند التالي:

"حصان ركوب كميت (البروغ) هدية العريس إلى العروس."

قال توبي ماليت: " وهذا يظهر أنه لم يكن يعلم شيئاً."

قال كلوفيس: "أو أنه يتمتع بخفة دم تبعث على السرور إلى حد كبير".

* * *

١٧- الدجاجة

قالت السيدة سانغريل: "ستأتي دورا بيتثولز يوم الخميس."

سأل كلوفيس: " هذا الخميس القادم؟"

أومأت أمه برأسها علامة الموافقة.

ضحك كلوفيس ضحكة خافتة وقال: " لقد فعلتها حقاً، أليس كذلك؟ لم يمر على وجود جين مارتلت سوى خمسة أيام هنا فقط، ولم يسبق لها أن بقيت أقل من أسبوعين، حتى حين تطلب بالتحديد بقاء أسبوع واحد. لن تستطيعي إخراجها من المنزل يوم الخميس".

سألت السيدة سانغريل: "ولم عليّ أن أفعل ذلك؟ هي ودورا صديقتان حميمتان، أليس كذلك؟"

"لقد كانتا فيما مضى، وهذا مما يجعلهما أكثر مرارة الآن. إذ تشعر كل واحدة منهما أنها ربت أفعى خبيثة في صدرها. لا شيء يهيج لهيب الكره البشري مثل اكتشاف أن صدر المرء قد استخدم كمصحة لأفعى."

" ولكن ما الذي جرى؟ هل كانت إحداهما تمارس الأذى؟"

قال كلوفيس: " ليس بالضبط، ولكن حالت دجاجة بينهما".

" دجاجة؟ أي دجاجة؟"

" كانت دجاجة برونزية اللون من صنف لغهورن أو من صنف غريب آخر، وباعتها دورا إلى جين بسعر غريب بالأحرى. فهما كلتاهما مولعتان بالدواجن، كما تعرفين، وظنت جين أنها ستستعيد مالها من خلال أسرة كبيرة من الفراريج الأصيلة. وقد تبين أن الدجاجة كانت من النوع الممتنع عن وضع البيض، وقيل لي إن الرسائل التي تبودلت بين المرأتين كانت كشفاً في مدى مقدرة الإنسان على أن يمارس الذم والقدح على صفحة من الورق."

قالت السيدة سانغريل: " يا للسخف! ألم تستطع بعض صديقاتهما تهدئة حدة الشجار؟"

قال كلوفيس: "حاولت بعضهن، ولكن لا بد وأن الأمر كان بالأحرى أشبه بتهدئة الموسيقى العاصفة لـــ "الهولندي الطائر"[١]. كانت جين راغبة في الاعتذار عن بعض عباراتها التشهيرية لو أن دورا ستستعيد الدجاجة، ولكن دورا قالت إنها ستسيء إلى نفسها، وأنت تعرفين أنها غير مستعدة لفعل ذلك."

---

(١) أوبرا من تأليف ريشارد فاغنر. (المترجم)

قالت السيدة سانغريل: " هذا وضع محرج جداً. هل تفترض أنهما لن تتبادلا الكلام مرة أخرى؟"

"بل العكس هو الصحيح، فالصعوبة ستكون في جعلهما تتخليان عن تبادل الكلام. إن تعليقات الواحدة منهما عن سلوك الأخرى وشخصها أمر تتحكم فيه حقيقة أن أربع أونصات من الكلام البسيط فحسب يمكن أن يرسل عبر البريد مقابل بنس واحد."

قالت السيدة سانغريل: " لا يمكنني أن أؤجل موعد قدوم دورا، فقد سبق لي أن أجّلت زيارتها مرة، ولا شيء أقل من معجزة سيجعل جين تغادر قبل انقضاء الأسبوعين اللذين خصت بهما نفسها."

قال كلوفيس: " المعجزات من اختصاصي أنا بالأحرى. لا أستطيع أن أتظاهر بأني أستطيع تقديم الكثير من المساعدة، ولكني سأبذل قصارى جهدي."

اشترطت عليه أمه قائلة: "طالما أنك لن تورطني في المسألة..."

* * *

همهم كلوفيس وهو يجلس في غرفة التدخين بعد الغداء، وهو يتحدث حديثاً متقطعاً مع جين مارتلت في الفترات الفاصلة بين مزج مواد الكوكتيل الذي كان قد سجله لنفسه كاختراع وأسماه

على نحو يخلو من الاحترام باسم: "إيلا ويلر ويلكوكس"[١]: "الخدم بغيضون". وكان الكوكتيل مؤلفاً من البراندي المعتق وشراب الكيوراسو[٢]. كانت هناك بعض المكونات الأخرى، ولكنه لم يبح بسرها لأحد.

صاحت جين: "الخدم بغيضون!" وهي تدخل في الموضوع بالاندفاع الحيوي لحصان الصيد حين يترك الطريق العامة ويشعر بالتراب تحت حوافره. "أعتقد أنهم كذلك! وتكاد أن لا تصدق المشاكل التي اعترضتني حتى استطعت إيجاد خدم ملائمين هذا العام. ولكني لا أرى ما الذي لديك لتشتكي منه... إذ إنّ أمك محظوظة بشكل رائع بخدمها. مثلاً: إن ستريدج يخدمكم منذ سنوات طويلة، وأنا على ثقة من أنه أنموذج لما يجب أن يكون عليه كبير الخدم."

" هنا تكمن المشكلة. فحين يكون الخدم قد بقوا معك لسنوات طويلة يتحولون إلى شيء بغيض فعلاً وبشكل خطير. أما ذلك الصنف (الذي يكون هنا اليوم ويرحل غداً) لا يهم، فما عليك

(١) شاعرة أمريكية (١٨٥٨ - ١٩١٩) كانت تنظم الشعر الشعبي وصدرت لها مجموعتان شعريتان. (المترجم)

(٢) شراب مسكر منكّه بقشر نوع من البرتقال المجفف (المترجم).

سوى استبدالهم. أما الذين هم من النوع الذي يبقى ويكون مثالياً فهم الذين يدعون للقلق."

" ولكن لو كانوا يرضونك.."

" هذا لا يمنعهم من الإزعاج. والآن، وقد ذكرت لي ستريدج... إنه ستريدج الذي كنت أفكر فيه على نحو خاص حين تلفظت بتلك الملاحظة عن الخدم وكونهم بغيضين."

" ستريدج الممتاز بغيض! لا أصدق ذلك."

"أعرف أنه ممتاز، ونحن لا نستطيع تدبير أمورنا دونه. إنه العنصر الموثوق في هذا المنزل العشوائي. ولكن هذا النظام بالذات قد أثر فيه. هل سبق لك أن أخذت في حسابك كيف يمكن أن تكون الأمور حين يكون عليك أن تقومي بالشيء الصحيح نفسه دون توقف وبالأسلوب الصحيح في المحيط نفسه معظم أيام حياتك؟ إن معرفة وتحديد والإشراف على وبالضبط أي أدوات فضية وأي كؤوس وأي فوط ستستخدم وتوضع في أي مناسبة، وأن يكون قبو الخمور وحجرة حفظ الأطعمة الباردة وخزانة الأطباق تحت إدارة دقيقة التصميم دون أن يحاد عنها ولو قيد شعرة، وأن يكون المرء هادئاً غير محسوس وحاضراً في كل مكان في جميع الأوقات، وأن يكون فيما يتعلق بقسمك، عليماً بكل شيء؟"

قالت جين بقناعة: " لا بد أني سأجنّ؟"

قال كلوفيس بتأمل وهو يبتلع كوكتيله المسمى إيلا ويلر ويلكوكس: " بالضبط."

قالت جين مع ارتعاش استفساري في صوتها: "ولكن ستريدج لم يجنّ؟"

قال كلوفيس: " في معظم الأمور هو عاقل وموثوق تماماً، ولكنه يخضع في بعض الأحيان لأكثر الأوهام عناداً، وفي تلك الحالات لا يصبح مجرد شيء بغيض بل ويكون إحراجاً متعمداً."

" أي نوع من الأوهام؟"

" لسوء الحظ فإنها تتمحور عادةً حول واحد من ضيوف الحفل المنزلي، وهنا يسود الإحراج. مثلاً، لقد تصور أن ماتيلدا شيرينغهام هي النبي إيليا، وبما أن كل ما يتذكره عن حكاية إيليا هو حادثة الغربان في البرية، فقد امتنع عن التدخل بما تصور أنه تدابير ماتيلدا الخاصة بالطعام، فلم يعد يسمح بإرسال أي فنجان شاي إليها في الصباح؛ وإن كان يخدم على المائدة فقد كان يمر بها دون أن يخدمها خلال تقديم الأطباق."

" لكم هذا مزعج. وما الذي فعلتموه بهذا الشأن؟"

قال كلوفيس مع بعض التشديد: " أوه، حصلت ما تيلدا على الطعام بأسلوب ما، ولكن كان القرار الأفضل لها أن تقطع

زيارتها وترحل مبكراً. وكان ذلك حقاً هو الشيء الوحيد الممكن فعلـــه".

قالت جين: "ما كنت لأفعل ذلك. كنت سأمازحه بطريقة ما أو بأخرى. ما كنت لأرحل حقاً."

عبس كلوفيس.

" ليس من الحكمة دائماً المزاح مع الناس حين تكون لديهم مثل تلك الأفكار في رؤوسهم. لا نعرف أبداً رد فعلهم لو أننا شجعناهم."

سألت جين ببعض القلق: " أنت لا تعني أنه يمكن أن يصبح خطيراً، أليس كذلك؟"

قال كلوفيس: " لا يمكن للمرء أن يكون واثقاً، فبين الحين والآخر قد يتصور فكرة ما عن أحد الضيوف فينتهي الأمر نهاية بائسة. هذا بالضبط ما يقلقني في الوقت الحاضر."

سألت جين بهياج: " ماذا؟ هل أولع بشخص ما هنا؟ لكم هذا مثير! قل لي من هو."

قال كلوفيس باختصار: " أنت."

"أنـــا؟"

أومأ كلوفيس برأسه.

" ومن يعتقد أني أكون بحق السماء؟"

"الملكة آن"، هكذا جاء الرد غير المتوقع.

" الملكة آن! يا لها من فكرة. ولكن على أي حال، لا شيء خطيراً فيما يتعلق بها. إنها شخصية لا لون لها وحيادية."

سأل كلوفيس بحزم: " ما الذي تقوله ذرية الملكة عنها الآن بشكل رئيسي؟"

قالت جين: " الشيء الوحيد الذي أتذكره عنها هو القول بأن الملكة آن ميتة..."

قال كلوفيس وهو يحدق إلى الكأس الذي يحوي شراب إيلا ويلر ويلكوكس: " بالضبط. ميتة."

سألت جين: " هل تعني أنه يظنني شبح الملكة آن؟"

" شبح؟ كلا. لم يسبق أن سمع أي شخص بشبح يهبط إلى مائدة الإفطار ويتناول الكِلى والخبز المحمص والعسل بشهية تدل على صحة موفورة. كلا، إن حقيقة أنك مليئة جداً بالحياة والنشاط هي التي تحيره وتزعجه. فهو معتاد طوال حياته على النظر إلى الملكة آن على أنها تشخيص لكل ما هو ميت ومنته، إذ يقال: " ميتة شأن الملكة آن"، كما تعرفين. والآن عليه أن يملأ كأسك في وجبتي الغداء والعشاء ويصغي إلى حكاياتك عن الوقت المرح الذي قضيته في معرض دبلن للجياد، وبالطبع هو يشعر أن هناك شيئاً ما غير صحيح فيك."

سألت جين بقلق: " ولكنه لن يكون معادياً لي بشكل مباشر بسبب ذلك، أليس كذلك؟"

قال كلوفيس: " لم أكن متنبهاً جداً بالنسبة للموضوع حتى غداء اليوم، فلقد أمسكت به وهو يحدق إليك بنظرة شديدة الغرابة ويهمهم: (كان ينبغي أن تكون ميتة منذ وقت طويل، كان ينبغي ذلك، ولا بد لشخص ما أن يفعل ذلك.) ولهذا ذكرت المسألة لك."

قالت جين: "هذا رهيب، لا بد وأن نبلغ أمك عن الأمر فوراً."

قال كلوفيس بجدية: " ينبغي ألا تعرف أمي بالأمر إطلاقاً، فهذا سيزعجها إلى حد كبير. فهي تعتمد على ستريدج في كل شيء."

احتجت جين قائلة: " ولكنه قد يقتلني في أي لحظة."

"ليس في أي لحظة. فهو مشغول بالأواني الفضية طوال فترة ما بعد الظهر."

قالت جين: "سيكون عليك أن تراقبه طوال الوقت وتتنبه لكي تحبط أي هجوم قاتل". ثم أضافت بلهجة عناد: " إنه وضع رهيب أن أكون هنا بوجود رئيس خدم مجنون مسلط عليّ كسيف نسيت ما اسمه. ولكني واثقة أنه لن يجعلني أختصر زيارتي."

شتم كلوفيس شتيمة رهيبة غير مسموعة، فالمعجزة لم تنجح.

في صباح اليوم التالي وفي بهو المنزل وبعد إفطار متأخر وجد كلوفيس إلهامه النهائي وهو واقف ينفض بقع الغبار عن مضرب قديم.

سأل رئيس الخدم الذي كان يعبر البهو في تلك اللحظة: " أين الآنسة مارتلت؟"

قال ستريدج وهو يعلن الحقيقة التي كان طارح السؤال يعرفها مسبقاً: " تكتب الرسائل في غرفة الصباح."

قال كلوفيس وهو يشير إلى سلاح مهيب معلق على الجدار:" إنها تريد أن تنسخ الكتابة التي حفرت على السيف القديم ذي المقبض الذي يشبه السلة. أرجو أن تأخذه لها . يداي ملطختان بالزيت. خذه دون القراب، حتى يكون الأمر أكثر ملاءمة."

جرد رئيس الخدم السيف الذي كان ما يزال لامعاً ومعتنى به رغم قدمه، وحمله إلى غرفة الصباح. كان هناك باب قرب طاولة الكتابة يؤدي إلى درج خلفي. اختفت جين عبره بسرعة البرق حتى شك رئيس الخدم إن كانت قد رأته وهو يدخل. بعد نصف ساعة كان كلوفيس يقودها وأمتعتها التي وضبتها بسرعة إلى المحطة.

قال للضيفة المغادرة: "ستكون أمي منزعجة للغاية حين تعود من رحلتها وتجدك وقد رحلت عنا، ولكني سأخترع قصة ما عن

البرقية العاجلة التي طلبت منك الرحيل. لا ضرورة لإزعاجها دون ضرورة بقصة ستريدج."

شعرت جين بالازدراء تجاه أفكار كلوفيس عن الإزعاج غير الضروري وتصرفت بوقاحة تقريباً مع الشاب الذي راوغها بأسئلة عن سلال الغداء.

وقد فقدت المعجزة بعض فائدتها من حقيقة أن دورا كتبت في اليوم نفسه رسالة تؤجل فيها تاريخ زيارتها، ولكن كلوفيس بقي، على أي حال، الشخص الذي سجل لنفسه ميزة أنه الكائن البشري الوحيد الذي استطاع أن يجعل جين مارتلت تختصر جدول هجراتها."

* * *

١٨- النافذة المفتوحة

قالت الشابة الهادئة جداً البالغة من العمر خمسة عشر عاماً: "ستهبط خالتي قريباً يا سيد نتل. في هذه الأثناء عليك أن تحاول أن تتحملني."

حاول فرامتون نتل أن يقول الشيء الصحيح الذي من شأنه أن يطري على ابنة الشقيقة، ابنة الساعة، دون أن ينسى، على نحو غير ملائم، الخالة التي كانت على وشك القدوم. كان يشك في سره أكثر مما سبق له قط فيما إذا كانت هذه الزيارات الرسمية لعدد متتال من الغرباء كلياً ستكون إلى حد كبير في صالح مساعدته على علاج الأعصاب الذي كان من المفترض أن يكون خاضعاً له.

قالت له شقيقته وهو يحضّر نفسه للهجرة إلى هذا الملاذ الريفي: " أعرف كيف ستكون عليه الأمور. ستدفن نفسك هناك ولا تتكلم إلى أي روح حية، وستكون أعصابك في حالة أسوأ مما سبق أن كانت عليه بسبب الاستغراق في التفكير الكئيب.

سأعطيك رسائل تعريف لجميع الأشخاص الذين أعرفهم هناك. وقد كان بعضهم، بقدر ما أستطيع أن أتذكر، لطيفاً جداً."

تساءل فرامتون فيما إذا كانت السيدة سبلتون، السيدة التي كان يقدم إليها إحدى رسائل التعريف، تنتمي إلى فئة الأشخاص اللطيفين.

سألت ابنة الشقيقة حين قدّرت أنهما قد تبادلا ما يكفي من الحوار الصامت: "هل تعرف الكثير من الناس الذين يقيمون هنا؟"

قال فرامتون: " لا اعرف أحداً. كانت شقيقتي تقيم هنا، في بيت القسيس، كما تعرفين، منذ حوالي أربع سنوات، وقد أعطتني رسائل تعريف لبعض الأشخاص هنا."

وقد تلفظ العبارة الأخيرة بلهجة الأسف الواضح. استأنفت الشابة الهادئة كلامها قائلة: " إذن فأنت لا تعرف عملياً أيّ شيء عن خالتي؟"

أقرّ الزائر قائلاً: "لا أعرف سوى اسمها وعنوانها". كان يتساءل إن كانت السيدة سبلتون متزوجة أم أرملة. كان هناك شيء ما غير محدد في الغرفة يوحي بوجود ساكن ذكر.

قالت الفتاة: "جرت مأساتها العظيمة قبل ثلاث سنوات فحسب. أي منذ أن كانت شقيقتك هنا."

سأل فرامتون: " مأساتها؟" كانت المآسي تبدو إلى نحو ما غريبة على هذه البقعة الريفية الهادئة."

قالت ابنة الشقيقة وهي تشير إلى نافذة فرنسية واسعة مفتوحة على مرج: " قد تتساءل عن السبب في أننا نبقي هذه النافذة مشرعة في عصر هذا اليوم من أيام تشرين الأول (أكتوبر)."

قال فرامتون: " الطقس دافئ تماماً لمثل هذا الوقت من العام، ولكن هل للنافذة أي علاقة بالمأساة؟"

"عبر هذه النافذة، قبل ثلاث سنوات إلا يوم واحد، خرج زوجها وشقيقاها الشابان منطلقين إلى الصيد. ولم يعودوا قط. لدى عبورهم للسبخة في طريقهم إلى بقعتهم المفضلة للصيد ابتلعهم مستنقع غدار. كان ذلك صيفاً ماطراً رهيباً، كما تعرف، وكانت الأماكن الآمنة في الأعوام الأخرى تصبح غير آمنة دون سابق إنذار. لم يتم استرداد جثثهم قط. كان ذلك هو الجزء الغريب من الحكاية. "وهنا فقد صوت الفتاة لهجته الهادئة وأصبح بشرياً متلعثماً. "خالتي المسكينة تعتقد بشكل دائم أنهم سيعودون في أحد الأيام، وبرفقتهم ذلك الكلب السبنيلي البني الذي فقد معهم، وسوف يدخلون من هذه النافذة كما اعتادوا أن يفعلوا بالضبط. ولهذا تبقي النافذة مفتوحة كل مساء حتى يخيم الظلام. يا لخالتي المسكينة العزيزة، غالباً ما كانت تحكي لي كيف خرجوا، زوجها بمعطفه الواقي من المطر على ذراعه، وروني، شقيقها الأصغر، وهو يغني: (بيرتي، لم تقفزين؟) كما اعتاد أن يفعل ليغيظها، لأنها كانت تقول إن هذه الأغنية تثير أعصابها. هل تعرف،

أحياناً، في الأمسيات الهادئة، ينتابني تقريباً ذلك الشعور المروع بأنهم سيدخلون من تلك النافذة جميعاً..."

توقفت عن الكلام مع رعدة صغيرة انتابت جسدها. وقد ارتاح فرامتون حين دخلت الخالة الغرفة بسرعة وهياج وهي تتلفظ بالاعتذارات لتأخرها في الحضور.

قالت: " آمل أن تكون فيرا قد قدمت لك بعض التسلية؟"

قال فرامتون: " كانت مثيرة للاهتمام جداً."

قالت السيدة سبلتون برشاقة: " آ مل ألا تنزعج من النافذة المفتوحة. سيعود زوجي وشقيقاي مباشرة من الصيد، وهم يدخلون دوماً عبر هذه الطريق. لقد خرجوا لصيد طيور الشنقب في المستنقعات اليوم، لذلك سيبللون سجاداتي المسكينة لدى عودتهم. هذا هو شأنكم أنتم الرجال، أليس كذلك؟"

راحت تلغط بمرح عن الصيد وندرة الطيور واحتمال وجود البط في الشتاء. بذل جهداً يائساً إنما ناجح جزئياً في تحويل مجرى الحديث إلى موضوع أقل ترويعاً. كان مدركاً أن مضيفته كانت لا تمنحه سوى جزء من انتباهها، وكانت عيناها تشردان باستمرار عبر نحو النافذة المفتوحة والمرج الذي يقع خلفها. لا شك أنه من سوء الطالع أن تكون زيارته في الذكرى السنوية الحزينة لتلك المأساة.

" لقد اتفق الأطباء على أنه يتوجب عليّ الالتزام بالراحة الكاملة، مع عدم وجود أي استثارة فكرية، وتجنب أي شيء يتطلب إجهاداً عنيفاً للجسم"، هكذا أعلن فرامتون الذي كان يرزح تحت الوهم الشائع المقبول بأن الأشخاص الغرباء تماماً والمعارف بالصدفة يكونون عادة تواقين لمعرفة ولو أقل تفصيل عن أمراض الشخص وعلله وأسبابها وعلاجها. تابع قائلاً: " أما من حيث الحمية، فهم لم يتفقوا جميعاً على أمر واحد."

قالت السيدة سبلتون بصوت لم يكن سوى بديل عن تثاؤب في تلك اللحظة: " لم يتفقوا؟" ثم أشرق وجهها فجأة باهتمام مفاجئ، ولكن ليس باتجاه ما كان فرامتون يقوله.

صاحت: "هاهم قد عادوا أخيراً! في الوقت المناسب تماماً لتناول شاي الأصيل! ألا يبدون وكأن الوحل قد غطاهم حتى العينين؟!"

ارتجف فرامتون قليلاً والتفت نحو ابنة الشقيقة بنظرة كان يقصد منها أن يوحي بتفهم متعاطف. كانت الفتاة تحدق نحو الخارج عبر النافذة المفتوحة برعب مبهور في عينيها. وفي صدمة باردة من الخوف المجهول التفت فرامتون في كرسيه ونظر في الاتجاه نفسه.

في الغسق المدلهم كانت ثلاثة أشكال تعبر المرج نحو النافذة. كانوا جميعاً يحملون البنادق تحت أذرعتهم، وكان أحدهم يحمل علاوة على ذلك معطفاً أبيض معلقاً فوق كتفيه. كان كلب سبنيلي بني اللون والمرهق يسير ملتصقاً بكعوبهم. وبدون ضجيج اقتربوا من المنزل، ثم غنى صوت شاب أجش خرج من العتمة: " قلت يا بيرتي، لم تقفزين؟"

تلمس فرامتون باهتياج عصاه وقبعته. كان باب البهو والممر المفروش بالحصى والبوابة الأمامية مراحل لم يميزها إلا بشكل مبهم خلال تراجعه المتهور. كان شخص راكب على دراجة قادماً على امتداد الطريق فاضطر إلى أن يقتحم سياج الشجيرات لتجنب اصطدام وشيك به.

قال حامل المعطف الأبيض الواقي من المطر وهو يدخل عبر النافذة: " هانحن يا عزيزتي. موحلون جداً، ولكن معظم الوحل جاف. من كان ذلك الشخص الذي اندفع خارجاً كالصاعقة ونحن ندخل؟"

قالت السدة سبلتون: " رجل عجيب إلى حد كبير، اسمه السيد نتل. لم يكن يستطيع الحديث سوى عن أمراضه، وقد انطلق خارجاً كالسهم دون كلمة وداع أو اعتذار حين وصلتم. قد يعتقد المرء أنه شاهد شبحاً."

قالت ابنة الشقيقة بهدوء: "أعتقد أن السبب هو الكلب السبنيلي. لقد أخبرني أنه يخشى الكلاب إلى حد الرعب. لقد طورد ذات مرة من قبل مجموعة من الكلاب الضالة فاضطر إلى الالتجاء إلى مقبرة في مكان ما على ضفاف نهر الغانج والبقاء طوال الليل في قبر محفور مؤخراً بينما تلك المخلوقات تعوي وتكشر وتزبد من أفواهها من فوقه تماماً. كان في ذلك ما يكفي لجعل أي شخص يفقد أعصابه."

لقد كان الكذب والمبالغة فيه من اختصاصها.

* * *

١٩- بيت العنكبوت

كان مطبخ منزل المزرعة موجوداً في هذا المكان بالذات كحادث أو اختيار جرى صدفة. ومع ذلك فإن موضعه يمكن أن يكون قد خطط له من قبل استراتيجي خبير في عمارة منازل المزارع. بدت حجرة حفظ اللحوم وباحة الدواجن وحديقة الأعشاب وجميع الأماكن النشطة في المزرعة تبدو وكأنها تؤدي بسهولة إلى حماها الواسع المرصوف بالحجارة حيث كان هناك مجال لكل شيء وحيث كانت الجزمات الموحلة تترك آثاراً يمكن إزالتها بسهولة. ومع ذلك فقد كان هو ينتصب في مركز النشاط البشري، أما نافذته الطويلة ذات الشبكية ومقعد النافذة العريض المبنيان ضمن فتحة وراء الموقد الضخم، فيطلان على منظر بري ذي امتداد للتلة ونباتات الخلنج والوادي الضيق. كانت زاوية النافذة تشكل بحد ذاتها غرفة صغيرة، وهي ألطف غرفة في المزرعة فيما يخص الموضع والقدرات. نظرت السيدة لادبروك الشابة، التي حاز زوجها على المزرعة بالوراثة، بعينيها النهمتين

إلى هذه الزاوية، وراحت أصابعها تتوق إلى جعلها وضاءة ومريحة بستائر مبهرجة وأصص الزهور، ورف أو اثنين من الأواني الصينية القديمة. كانت ردهة المزرعة العتيقة التي تطل على حديقة متقشفة بائسة مسجونة ضمن جدران عالية مصمتة، لا تبدو كغرفة توحي بأنها غير قابلة بسهولة للراحة أو الزينة.

كانت المرأة الشابة تقول لزوارها العرضيين:"عندما نصبح مستقرين أكثر، سأفعل الأعاجيب بطريقة تجعل المطبخ قابلاً للسكن." كانت هناك رغبة غير معبر عنها في تلك الكلمات، رغبة لم يكن معترفاً ولا منطوقاً بها. كانت إيما لادبروك سيدة المزرعة، وبالتشارك مع زوجها كان لها رأيها، وإلى مدى معين، أسلوبها في ترتيب أمورها. ولكنها لم تكن سيدة المطبخ.

على أحد رفوف خزانة عتيقة للأطباق، كانت ترتاح برفقٍ أواني الصلصة المشوهة وأباريق معدنية ومباشر الجبن وفواتير مدفوعة ونسخة من الكتاب المقدس المهترئة والرثة، وكان مكتوباً على صفحته الأمامية سجل بحبر باهت ذكرى عماد يعود إلى أربعة وتسعين عاماً خلت. "مارثا كريل" كان الاسم المكتوب على تلك الصفحة الصفراء. كان "مارثا كريل" هو ذات مرة اسم السيدة العجوز الصفراء اللون والمتجعدة البشرة التي تعرج وتهمهم في أرجاء المطبخ، وتبدو كورقة خريفية ميتة ما تزال الريح الشتائية

تدفعها إلى هنا وهناك. فمنذ ما ينوف عن سبعين عاماً أصبح اسمها "مارثا ماونتجوي." ومنذ فترة لا يوجد من يستطيع تذكرها، كانت تدمدم وهي تسير جيئة وذهاباً بين الفرن وحجرة الغسيل والملبنة، ثم تخرج إلى ساحة المطبخ والحديقة، وهي تهمهم وتغمغم ووتعنّف، ولكن تعمل دون توقف. في البداية اعتادت إيما لادبروك الذي كان قدومها أمراً لم تنتبه له مارثا بقدر ما قد تنتبه إلى نحلة تحلق عند النافذة في يوم صيفي، أن تراقبها بنوع من الفضول الوجل. كانت مسنة جداً وتشكل جزءاً من المكان حتى إنّه كان من الصعب التفكير بها بالضبط ككائن حي. كان (شيب) العجوز، الكلب الاسكتلندي أبيض الخطم متيبس القوائم المنتظر دوره ليموت، يبدو أكثر بشرية على الأرجح من تلك المرأة العجوز الذاوية اليابسة. كان جرواً مشاغباً مجنوناً بحبِّ الحياة، وذلك حين كان قد سبق لها وأصبحت سيدة متداعية عرجاء. والآن أضحى هو هيكلاً أعمى يتنفس، ولا شيء آخر، ولكنها ما تزال تعمل بطاقة هشة، فهي تنظف وتخبز وتغسل وتحضر وتحمل. ولو كان هناك شيء ما في تلك الكلاب المسنة الحكيمة لا يندثر تماماً بالموت، فقد اعتادت إيما أن تفكر في نفسها: كم هو يا ترى عدد الكلاب الأشباح في تلك التلال، والتي كانت مارثا قد ربتها وأطعمتها ورعتها وودعتها بكلمات الوداع في ذلك المطبخ العتيق؟ وأي ذكريات ما تزال تحملها عن أجيال من

البشر مروا بها خلال حياتها. كان صعباً على أي شخص، ناهيك عن شخص غريب شأن إيما، أن يجعلها تحكي عن تلك الأيام التي مضت. كان كلامها الحاد المرتجف يدور حول أبواب لم توصد ودلاء أضيعت وعجول فات موعد إطعامها، والأخطاء والهفوات الصغيرة العديدة التي تلون روتين منزل المزرعة. وبين الحين والآخر، حين يحل موعد الانتخابات، كانت تفصح عن ذكرياتها عن السماء القديمة التي كان النزاع يدور بينها في الأيام الغابرة. كان هناك بالمرستون[(١)] الذي كان يذكر اسمه على طريق تيفرتون. ولم تكن تيفرتون بعيدة جداً، ولكن بالنسبة إلى مارثا فقد كادت أن تكون بلداً أجنبياً. فيما بعد كان هناك نورثكوتس وألكاندز، وكثير من الأسماء الأخرى الأكثر جدة التي نسيتها. لقد تغيرت الأسماء ولكنها كانت على الدوام " الليبراليون" و"المحافظون" و "الصفر" و "الزرق". وكانوا يتشاجرون ويتصايحون على الدوام على من هو على صواب ومن على خطأ. وكان الشخص الذي يتشاجرون بشأنه باستمرار رجلاً عجوزاً نبيلاً ذا وجه غاضب... لقد شاهدت صورته على الجدران. كما رأتها على الأرض أيضاً، مع تفاحة عفنة وقد هرست فوقها، فقد كانت المزرعة تغير ساستها بين الحين والآخر. لم تكن مارثا على هذا

---

(١) بالمرستون: رئيس وزراء بريطانيا عدة مرات خلال القرن التاسع عشر. (المترجم)

الجانب أو ذاك. لم يكن أي "منهم" قد قدم صنيعاً طيباً للمزرعة. كان ذلك هو حكمها الجارف، الذي أصدرته بكل الشك الذي تحمله الفلاحة تجاه العالم الخارجي.

حين خبا الفضول نصف الخائف نوعاً ما، كانت إيما لادبروك واعية بشكل غير مريح بشعور آخر نحو المرأة العجوز. كانت إرثاً قديماً غريباً، يتحرك بتمهل في أنحاء المنزل، وكانت جزءاً لا يتجزأ من المزرعة نفسها. كانت شيئاً مثيراً للشفقة وفاتناً في آن معاً... ولكنها كانت عائقاً رهيباً في وجهها. لقد جاءت إيما إلى المزرعة مليئة بالخطط للقيام بإصلاحات وتحسينات صغيرة، وكان ذلك من ناحية نتيجة لتدريبها على أحدث الوسائل والطرق، ومن ناحية أخرى نتيجة لأفكارها وخيالاتها الخاصة. كانت الإصلاحات في منطقة المطبخ، لو كان ممكناً حثّ تينك الأذنين العجوزين الصماوين حتى على الاستماع إلى مثل تلك الإصلاحات، لكان الجواب اعترافاً موجزاً ورفضاً مرفقاً بالاحتقار، وكانت منطقة المطبخ تمتد عبر الملبنة وأعمال السوق ونصف الأعمال المنزلية. كانت إيما، التي تتقن حشو الدجاج حسب أحدث الوصفات، تجلس كمراقبة مهملة، بينما تقوم مارثا العجوز بتحضير الدجاجات من أجل كشك البيع في السوق كما كان دأبها منذ ثمانين عاماً: الأفخاذ دون الصدور. وكانت مئات الملاحظات المتعلقة بالتنظيف الفعال والتخفيف من عبء العمل والأمور التي

تخص الصحة والتي كانت المرأة الشابة جاهزة لتلقنها أو لتنفذها تهمل متحولة إلى هباء أمام ذلك الحضور الشاحب المغمغم الذي لا يأبه بشيء. وقبل كل شيء، كانت زاوية النافذة المغطاة، والتي كان من المفروض أن تتحول إلى واحة لطيفة مرحة في المطبخ القديم الكئيب، مترعة ومحملة الآن بركام من البقايا التي ما كانت إيما، رغم كل سلطتها الاسمية، تتجرأ على استبدالها: فقد بدا وكأن شيئاً ما أشبه ببيت عنكبوت بشري قد انغزل من فوقها. كانت مارثا تقف عائقاً بشكل جلي جداً. وكان أمراً يدل على خساسة جائرة أن تتمنى لو ترى مدى تلك الحياة الشجاعة العجوز تقصر بالقليل من الشهور التافهة، ولكن مع مرور الأيام بسرعة كانت إيما واعية بأن الرغبة كانت موجودة، رغم نكرانها، إذ كانت كامنة في مؤخرة عقلها.

أحست بخساسة الرغبة تطغى عليها مع وخز الضمير في أحد الأيام حين دخلت المطبخ ووجدت وضعاً غير معتاد في ذلك المكان الذي يكون مليئاً بالحركة عادة. لم تكن مارثا العجوز تعمل. كانت هناك سلة من حبوب الذرة على الأرض إلى جانبها، وفي الباحة كانت الدجاجات قد بدأت تصيح محتجة على تأخر موعد إطعامها. ولكن مارثا كانت جالسة بتكاسل كحزمة منكمشة على مقعد النافذة، وهي تتطلع إلى الخارج بعينيها العجوزين الكليلتين وكأنها ترى شيئاً أغرب من ذلك المنظر الخريفي.

سألت المرأة الشابة: "هل هناك مشكلة ما يا مارثا؟"

أجابت بصوت مرتجف: " إنه الموت، الموت قادم. عرفت أنه قادم. عرفت ذلك. لم يكن عبثاً أن الكلب شيب العجوز كان يعوي طوال الصباح. وفي الليلة الماضية، سمعت البوم الناعب يصدر صرخة الموت، وكان هناك شيء ما أبيض عبر الباحة البارحة. ولم يكن هراً ولا ابن عرس. كان شيئاً ما. وقد عرفت الطيور أنه كان شيئاً ما: فقد تراجعت كلها إلى جانب واحد. أجل، كانت هناك تحذيرات. عرفت أنه قادم."

اغرورقت عينا المرأة الشابة إشفاقاً. فهذه المرأة العجوز التي تجلس هناك شديدة الشحوب والانكماش كانت ذات مرة طفلة مرحة صاخبة تلعب في الأزقة وأكوام التبن وعلّيّات منزل المزرعة. وكان ذلك قبل ثمانين سنة، والآن هي مجرد جسد عجوز هش يرتعد تحت قشعريرة الموت القادم والذي يحل أخيراً لأخذها. لم يكن هناك ما يمكن فعله من أجلها، ولكن إيما أسرعت إلى الخارج لتطلب المساعدة والاستشارة. كان زوجها حسب معرفتها على مسافة قصيرة من المنزل عند موضع قطع الأشجار، ولكنها قد تجد شخصاً عاقلاً آخر يعرف المرأة العجوز أفضل منها. وسرعان ما اكتشفت أن المزرعة كانت تتحلى بتلك الصفة الشائعة في المزارع ألا وهي ابتلاع سكانها من البشر وفقدانهم. تبعتها الدواجن بأسلوب مستثار وقبعت الخنازير وهي

تطرح أسئلة عليها من خلف قضبان زرائبها، ولكن فناء مخزن الحبوب وباحة أكوام القش والبستان والإسطبلات والملبنة كانت فارغة من البشر. ثم، وبينما كانت تعود أدراجها نحو المطبخ، صادفت فجأة ابن عم زوجها، السيد جيم الشاب، كما كان الجميع يدعونه، والذي كان يوزع وقته بين المتاجرة بالخيول كهواية واصطياد الأرانب ومغازلة عاملات المزرعة.

قالت إيمـــا: "أخشى أن مارثا العجوز تُحتَضَر. "لم يكن جيم من ذلك النوع من الأشخاص الذي يقوم المرء بإبلاغه صراحة بالأخبـــار.

قال: "هراء. تنوي مارثا أن تعيش حتى سن المئة. هذا ما قالته لي، وستفعل ذلك".

ألحت إيما وقد انتابها شعور بالاحتقار من بطء وكسل ابن العم: " قد تكون في هذه اللحظة تلفظ آخر أنفاسها أو قد تكون فقدت وعيها."

انتشرت ابتسامة على ملامح الشاب الودية.

قال وهو يومئ برأسه تجاه الفناء: " لا يبدو الأمر كذلك." التفتت إيما لترى معنى ملاحظته. كانت مارثا العجوز واقفة في وسط مجموعة كبيرة من الدواجن وهي تنثر قبضات من الحبوب من حولها. كان الديك الرومي بريشه اللامع البرونزي

وحمرة زائدته اللحمية، وديك المصارعة باللمعة المعدنية المومضة لريشه الشرقي والدجاجات بلون المغرة والبرتقال والبني المائل إلى الصفرة وأعرافها القرمزية، وذكور البط برؤوسها الخضراء الشبيهة بالقناني، كانت هذه جميعاً تصنع مزيجاً من الألوان الغنية، وفي وسطها كانت المرأة العجوز تبدو كساق شجرة ذاوية بين النمو المشاغب لأزهار ذات ألوان زاهية. ولكنها كانت ترمي بالحبوب بمهارة بين غابة المناقير بينما يصل صوتها المرتجف إلى الشخصين اللذين كانا يراقبانها. كانت ما تزال تعزف على وتر الموت القادم إلى المزرعة.

"كنت أعرف أنه قادم. كانت هناك علامات ونذر."

سألت الشابة: " من الذي مات إذاً يا أمي العجوز؟"

صاحت بصوتها الحاد: "السيد لادبروك الشاب"...، لقد أدخلوا جثمانه للتو. هرب من شجرة كانت على وشك السقوط فاصطدم بعمود حديد. وحين رفعوه كان قد مات. كنت أعرف أنه قادم."

ثم التفتت لترمي بقبضة من الشعير إلى مجموعة متأخرة وصلت وهي تتسابق نحوها.

* * *

كانت المزرعة ملكية عائلية، وهكذا انتقلت ملكيتها إلى ابن العم صياد الأرانب كونه أقرب الأقرباء. وقد خرجت إيما

لادبروك من تاريخ المزرعة كما قد تفعل نحلة كانت قد دخلت ذات مرة عبر نافذة مفتوحة ثم خرجت منها ثانية. وفي صباح يوم بارد وقفت تنتظر مع صناديقها التي سبق أن رصفت في عربة المزرعة، حتى تكون آخر منتجات السوق جاهزة، فقد كان القطار الذي ستركبه أقل أهمية من الدجاج والزبدة والبيض التي ستعرض للبيع. ومن حيث كانت تقف كانت تستطيع أن ترى زاوية من النافذة الطويلة ذات الشرائط المخرمة والتي كانت ستبدو ذات حميمية لو كان فيها ستائر وبهيجة بأصص الزهور. خطرت في ذهنها فكرة أنه لشهور، وربما لسنوات، وبعد أن يتم نسيانها تماماً، سيُرى وجه أبيض غير مكترث، وهو يحدق إلى الخارج، عبر تلك الألواح الزجاجية المغطاة بالشرائط، وسيُسمع صوت واهن مغمغم وهو يرتعش عبر تلك الممرات المرصوفة. شقت طريقها إلى حجرة ضيقة ذات قضبان كانت تفتح على مخزن اللحوم الباردة في المزرعة. كانت مارثا تقف عند طاولة وهي تحضر دجاجتين للسوق كما كان دأبها منذ ثمانين عاماً.

* * *

٢٠- الهدوء المؤقت

أعلنت السيدة ديرموت على مائدة الإفطار قائلة:" لقد دعوت لاتيمر سبرينغفيلد لقضاء يوم الأحد لدينا والمبيت ليلاً."

قال زوجها معلقاً: "كنت أظنه منهمكاً في معمعان الانتخابات".

"بالضبط. سيجري الاقتراع يوم الأربعاء، وذلك الرجل المسكين سيكون قد أصيب بالإنهاك التام وتحول إلى مجرد ظل حتى ذلك الحين. تصور كيف ستكون عليه عملية الانتخاب في هذا المطر الرهيب، وهو يعبر تلك الطرق الريفية الموحلة ويتحدث إلى جمهور مبلل في غرف الصفوف المدرسية الباردة يوماً بعد يوم لمدة أسبوعين. سيكون عليه أن يظهر في مكان من أمكنة العبادة صباح الأحد، ثم يستطيع أن يأتي إلينا مباشرة بعد ذلك وينال الراحة التامة من كل ما له علاقة بالسياسة. لن أدعه يفكر حتى مجرد التفكير بالسياسة. في ذهني صورة كرومويل[١] وهو يحلّ

---

(١) كرومويل: (١٥٩٩- ١٦٥٨) زعيم سياسي وعسكري إنكليزي هزم الملكيين وأعلن الجمهورية (عام ١٦٥٣) (المترجم).

البرلمان الطويل، والصورة مأخوذة من أسفل الدرج، وحتى صورة اللورد روزبري[1] المسماة "لاداز" وقد أزيلت من غرفة التدخين".

ثم أضافت وهي تلتفت إلى ابنة أخيها البالغة السادسة عشرة من العمر: "يا فيرا، انتبهي إلى لون الشريط الذي ستضعينه على شعرك؛ ليس الأزرق ولا الأصفر على الإطلاق، فهذان هما لونا الحزبين المتنافسين، كما أن الأخضر الزمردي أو البرتقالي سيكونان سيئين بالدرجة نفسها تقريباً، مع تقدم مسألة الحكم الذاتي إلى الواجهة".

قالت فيرا بجلال ساحق: "في المناسبات الحكومية، أضع على الدوام شريطاً اسود على شعري". كان لاتيمر سبرينغفيلد شاباً عتيق الطراز كئيباً إلى حد ما، وقد مضى في طريق السياسة بالروح التي قد يذهب بها أشخاص آخرون إلى ما يشبه نصف حالة حداد. ودون أن يكون شخصاً متحمساً، فقد كان يتميز بالتثاقل النشيط إلى حد الاعتدال، وكانت السيدة ديرموت قريبة إلى حد معقول من صحة الرأي حين أكدت أنه كان يعاني من ضغط كبير فيما يخص مسألة الانتخابات. أما الهدوء المؤقت المريح الذي تريد مضيفته أن تفرضه عليه فهو مرحب

---

(١) اللورد روزبري: (١٨٤٧-١٩٢٩) سياسي ورئيس وزراء بريطاني (١٨٩٤-١٨٩٥)، قام بشقّ الحزب الليبرالي البريطاني (المترجم)

به بلا تردد، ومع ذلك فإن الإثارة العصبية للمنافسة كان لها تأثير كبير عليه بحيث لا يستطيع التخلص منها نهائياً.

قالت السيدة ديرموت بلهجة يشوبها الأسف:" أعرف أنه سيسهر حتى منتصف الليل وهو يعدّ البنود الخاصة بخطابه الختامي، وعلى أي حال، فقد أبقينا السياسة بعيدة عن التناول طوال فترة العصر والمساء. ولا نستطيع فعل ما يزيد عن ذلك."

قالت فيرا:" سنرى ما سيجري"، ولكنها قالت هذا في نفسها.

لم يكد لاتيمر يغلق باب غرفة نومه حتى انهمك في قراءة حزمة من المذكرات والكراريس، بينما راح قلم حبره ومفكرته يلعبان دورهما في تصنيف الوقائع المفيدة والحكايات المتحفظة. لم يكن قد عمل لأكثر من خمس وثلاثين دقيقة، وكان المنزل يبدو مكرساً بالظاهر للنوم الصحي للحياة الريفية، حين سمع صراخاً حاداً مكتوماً وجرجرة أقدام في الممر تبعتهما دقة عالية على بابه. وقبل أن يتاح له الوقت للرد، اندفعت فيرا المثقلة إلى الغرفة وهي تسأل: "هل يمكنني أن أترك هذين هنا؟"

وكان "هذين" خنزيراً أسود صغيراً وعينة بلون أحمر وأسود مفعمة بالحيوية من ديكة المصارعة.

كان لاتيمر يحب الحيوانات بشكل معتدل، وكان مهتماً على نحو خاص بتربية الماشية من وجهة نظر اقتصادية. وفي الواقع،

فإن أحد الكراريس التي كان يقرأ فيها في تلك اللحظة تدعو بحرارة إلى المزيد من التنمية في صناعة تربية الخنازير والدواجن في مناطقنا الريفية. ولكنه كان غير راغب، على نحو ممكن غفرانه، في أن يشارك حتى غرفة نومه الواسعة مع عينتين من الدواجن والخنازير.

سأل وهو يعبر بلباقة عما يفضله فيما يخص المسألة ومبدياً اهتماماً واضحاً في شأنهما: " ألن يكونا أسعد في مكان ما في الخارج؟"

قالت فيرا على نحو مؤثر: "لم يعد هناك خارج، لا شيء سوى امتداد لا نهائي من المياه الداكنة المدوّمة. لقد انفجر خزان الماء في برينكلي."

قال لاتيمر: "لم أكن أعرف بوجود خزان للمياه في برينكلي".

"حسناً، لم يعد هناك خزان الآن، فهو قد انتشر في جميع أنحاء المكان، وبما أننا في موقع خفيض على نحو خاص، فإننا في مركز بحر داخلي في الوقت الحالي. كما ترى، فإن النهر قد فاض على الضفتين أيضاً."

"يا للرب الرحيم! هل هناك خسائر في الأرواح؟"

"الكثير منها، كما يمكنني أن أقول. لقد سبق لخادمة المنزل الثانية أن شخصت ثلاثة جثث طافية عبر نافذة غرفة البلياردو

على أنها تخص الشاب الذي خطبت له. إما أنها مخطوبة إلى مجموعة كبيرة من الشبان هنا أو أنها غير دقيقة في تشخيصها. وبالطبع، فقد تكون تلك الجثة تعود مرة إثر أخرى في الدوامة من المياه. لم أفكر في ذلك سابقاً."

قال لاتيمر بغريزة المرشح البرلماني الراغب في الوقوع تحت أضواء الشهرة محلياً: "ولكن علينا أن نخرج ونقوم بالإنقاذ، أليس كذلك؟"

قالت فيرا بثقة: "لا نستطيع، ليس لدينا زوارق ونحن مقطوعون بسبب تيار عنيف عن أية مساكن بشرية. وتأمل عمتي بشكل خاص أن تبقى في غرفتك وألا تزيد في الفوضى الحاصلة، ولكنها تعتقد أنه سيكون من اللطف لو أنك ستبقي (أعجوبة هارتلبول)، ديك المصارعة، كما تعرف، في هذه الليلة. وكما ترى، فإن هناك ثمانية ديكة مصارعة أخرى، وهي تتقاتل مثل النساء الحقودات لو اجتمعت معاً، لذلك فإننا نضع واحداً في كل غرفة نوم. لقد غرق قن الطيور تحت المياه، كما تعرف. ثم فكرت في أنك قد لا تمانع في أخذ هذا الخنوص الصغير جداً؛ إنه محبب جداً، ولكنه ذو طبع سيئ. وقد ورث هذا الطبع عن أمه؛ لا أحب بالطبع أن أذكر أشياء سيئة عنها وهي ترقد ميتة وغارقة في زريبتها، المسكينة. إن ما يريده فعلاً هو اليد الحازمة لرجل

ليبقى تحت السيطرة. كنت سأحاول أن أتعامل معه شخصياً، ولكن لدي كلبي الصيني في غرفتي، وهو كما تعرف، يهاجم الخنازير كلما رآها."

سأل لاتيمر بصوت واهن، وهو يأمل في أن يتخذ موقفاً يتحلى بالتصميم حول موضوع الخنزير في غرفة النوم بقدر موقف الكلب الصيني: "ألا يستطيع الخنزير أن يبقى في الحمام؟"

ضحكت فيرا بحدة وقالت:" الحمام؟ إنه مليء بفتيان الكشافة حتى الصباح لو أن الماء الساخن يكفي."

" فتيان الكشافة؟"

"أجل. وصل ثلاثون منهم لإنقاذنا بينما كان منسوب الماء ما يزال يصل إلى مستوى الخصر فقط. ثم ارتفع هذا ثلاثة أقدام أخرى أو نحوه، واضطررنا نحن إلى إنقاذهم. إننا نوفر لهم حمامات ساخنة بالجملة ونجفف ملابسهم في خزانة التجفيف، ولكن بالطبع، لا تجف الملابس المبتلة خلال دقيقة، والممر والدرج قد بدأا يبدوان وكأنهما من مشهد من مشاهد شاطئ البحر إلى القرب من تيوك. هناك اثنان من الفتية يرتديان الآن معطفك من طراز ملتون: آمل أنك لا تمانع."

قال لاتيمر ملمحاً بحدة إلى الانزعاج الشديد: "إنه معطف جديد".

قالت فيرا: "ستعتني بأعجوبة هارتبول، أليس كذلك؟ لقد حازت أمه على الجائزة الأولى ثلاث مرات في برمينغهام، كما حاز هو على المرتبة الثانية في صف الديكة الصغيرة في العام الماضي في غلاوسستر. ربما سيجثم على الحاجز في أسفل سريرك. أتساءل إن لم يكن سيشعر أنه في أكثر راحة لو أن بعض زوجاته كن هن معه؟ وضعت جميع الدجاجات في حجرة أدوات الطبخ، وأعتقد أني أستطيع معرفة هيلين هارتبول، إنها زوجته المفضلة."

أظهر لاتيمر تصميماً متأخراً حول موضوع هيلين هارتبول، وانسحبت فيرا دون أن تؤكد على الموضوع، بعد أن وضعت ديك المصارعة على مجثمه المرتجل وودعت الخنوص بحرارة. خلع لاتيمر ملابسه ودخل السرير بالسرعة المطلوبة، وهو يقدر أن الخنزير سيخفف من قلقه البحثي ما أن يطفأ النور. وكبديل عن زريبة مريحة بأسرة من القش، كانت الغرفة تعرض عليه من أول نظرة، القليل من المفاتن، ولكن الحيوان القلق اكتشف فجأة أداة لا تحويها أكثر زرائب الخنازير فخامة. كانت الحافة الحادة للجزء الأسفل من السرير مرتفعة بالشكل الملائم تماماً للسماح للخنوص بأن يحك نفسه بنشوة جيئة وذهاباً، مع تحديب فني لظهره في اللحظة الحاسمة وغرغرة مرافقة تدل على متعة مديدة. أما ديك المصارعة الذي ظن نفسه يتأرجح في أغصان شجرة صنوبر، فقد تحمل الحركة بقوة أكبر مما يستطيع لاتيمر

تحمله. كانت سلسلة النقرات الموجهة من لا تيمر إلى جسم الخنوص قد قُبلت منه كمهيّج إضافي ومبهج أكثر منها كنقد للسلوك أو تلميح إلى الكف عن الحركة. كان من الواضح أن أكثر من مجرد يد حازمة رجولية كانت مطلوبة للتعامل مع الحالة. خرج لاتيمر من السرير وراح يبحث عن سلاح للإقناع. كان هناك من النور في الغرفة ما يكفي لتمكين الخنزير من كشف مناورته، ولإظهار طبعه السيئ الموروث عن أمه بشكل كامل. وهكذا قفز لاتيمر عائداً إلى السرير، واستأنف الخنزير المنتصر، بعد عدة شخرات مهدّدة والعض على الأسنان وتحريك الفكين، عمليات المساج بحماسة متجددة. وخلال ساعات اليقظة الطويلة التي تلت، حاول لاتيمر أن يبتعد بذهنه عن مشاغله الحالية بأن يفكر في التعاطف اللائق مع حزن خادمة المنزل الثانية بفقد خطيبها، إلا أنه وجد نفسه يتساءل أكثر من مرة عن عدد فتيان الكشافة الذين يتشاطرون معطفه من طراز ملتون. لم يكن لعب دور القديس مارتين برغمه شيئاً مقبولاً له.

قبيل الفجر، نام الخنوص بسعادة، وكان يمكن للاتيمر أن يحذو حذوه، ولكن في الوقت نفسه تقريباً، صاح ستيوبر هارتبولي صيحة الاستيقاظ وهبط إلى الأرض وبدأ يصارع بحماسة صورته المنعكسة في مرآة خزانة الثياب. وحين تذكر لاتيمر أن الطير كان تحت رعايته، فقد لعب دور هيئة تحكيم

محكمة لاهاي بأن وضع منشفة الحمام على المرآة المستفزة، ولكن السلام الذي ساد بعد ذلك، كان محلياً وقصير الأجل. وقد وجدت الطاقات غير المستنفدة للديك منفذاً جديداً في هجوم مفاجئ ومتواصل على الخنوص النائم وغير المعادي مؤقتاً، وكانت المبارزة التي تلت يائسة ومريرة إلى حد لا يصلح معه أي تدخل. كان للمقاتل ذي الريش ميزة تمكنه، عندما يكون تحت ضغط شديد، من اللجوء إلى السرير، وقد أتاح لنفسه حرية هذا الظرف. أما الخنوص فلم ينجح قط في أن يقفز إلى ذلك العلو نفسه، ولكنه لم يتخل عن المحاولة.

لم يستطع أي جانب أن يزعم أي انتصار حاسم، وقد توقف الصراع في الوقت الذي دخلت فيه الخادمة حاملة شاي الصباح الباكــر.

صاحت الخادمة بدهشة جلية:" سيدي اللورد، هل تريد هذين الحيوانين في غرفتك؟"

(أريـــد!؟)

كان الخنزير، وكأنه يعرف أنه قد مكث فترة أطول من اللازم، قد اندفع خارجاً من الباب، ولحق به الديك بمشية أكثر وقاراً.

صاحت الخادمة: "لو رأى كلب الآنسة فيرا هذا الخنزير... "ثم هرعت لتفادي مثل هذه الكارثة.

كان شك بارد قد أخذ يتسلل إلى ذهن لاتيمر. ذهب إلى النافذة وسحب الستارة جانباً. كان هناك مطر خفيف رذاذي، ولكن لم يكن هناك أي أثر مهما ضؤل لأي فيضان.

بعد نصف ساعة، قابل فيرا في طريقه إلى غرفة الإفطار.

قال ببرود:" لا أريد أن أفكر بك ككاذبة متعمدة، ولكن يمكن للمرء أحياناً أن يفعل أشياء لا يحبها."

قالت فيرا:"على الأقل أبقيت ذهنك بعيداً عن التفكير في السياسة طوال الليل."

وكان هذا بالطبع أمراً صحيحاً تماماً.

* * *

- ٢١ -

ملفقو القصص والأخبار الكاذبة

كان الفصل خريفاً في لندن، ذلك الفصل المبارك الذي يفصل بين قسوة الشتاء ونفاق الصيف. إنه فصل واثق يشتري المرء فيه البصل ويسجل صوته الانتخابي، مؤمناً على نحو أبدي بالربيع وتغيير الحكومة. جلس مورتون كروسبي على مقعد في زاوية منعزلة من هايد بارك وراح يتمتع بتدخين لفافة ويراقب التنزه البطيء لزوج من الأوز الثلجي، إذ يبدو الذكر أشبه بنسخة بيضاء من أنثاه ذات اللون الخمري. ومن زاوية عينه لاحظ كروسبي أيضاً ببعض الاهتمام التحويمات المترددة لشكل بشري كان قد مرّ ثم عاود المرور إلى جانب مقعده مرتين أو ثلاث بفترات آخذة بالتناقص، مثل غراب حذر على وشك أن يحط قرب لقمة صالحة للأكل. وعلى نحو محتوم، وصل الشكل البشري إلى مرسى له على المقعد ضمن مسافة تضمن الحوار السهل مع شاغله الأصلي. كانت الملابس المهملة واللحية التي

وخطها الشيب التي توحي بروح المغامرة، والعين الماكرة المراوغة للقادم الجديد، تنم عن متسول محترف، إنه الرجل المستعد لتحمل ساعات من تلفيق الحكايات المهين ومن الصدّ على أن يغامر بعمل شريف لنصف يوم.

ثبت القادم الجديد عينيه برهةً إلى الأمام مباشرة في تحديقة متقدة غير مبصرة. ثم انطلق صوته باللهجة المتملقة لشخص لديه حكاية يرويها تستحق أن يصغي إليها أي متسكع.

قال:" إنه عالم غريب."

وحين لم يصدر أي جواب عن هذا التصريح، فقد عدّله ليتخذ شكل السؤال:" أأجرؤ على القول إنك وجدت هذا العالم غريباً يا سيدي؟"

قال كروسبي: " فيما يخصني فإن الغرابة قد تآكلت تدريجياً خلال ستة وثلاثين عاماً."

قال صاحب اللحية الرمادية:" آه، أستطيع أن أحكي لك أشياء لا يمكنك تصديقها إلا بالكاد. أمور عجائبية جرت فعلاً."

قال كروسبي بلهجة مثبطة للهمة: " في هذه الأيام لا طلب على الأمور العجائبية التي جرت فعلاً، فكتاب الرواية المحترفون يتعاملون مع هذه الأمور على نحو أفضل بكثير. مثلاً حكى لي جيراني أموراً لا تصدق فعلتها كلابهم من فصيلة

الأبردين والتشاو[١] والبرزي[٢]. ولكني لا أصغي إليهم البتة. ومن ناحية أخرى قرأت (كلب باسكرفيل)[٣] ثلاث مرات".

تحرك صاحب اللحية الرمادية بقلق في مقعده. ثم فتح بلاداً جديـــدة.

قال " أعتقد أنك مسيحي مؤمن".

قال كروسبي وهو يقوم بمغامرة في عوالم الخيال الروائي:" أنا عضو بارز وأعتقد أني أستطيع القول إني عضو ذو نفوذ في الجالية المسلمة لفارس الشرقية".

من الواضح أن صاحب اللحية الرمادية قد ثبطت همته من هذا الكبح الجديد لمحادثته التمهيدية، ولكن الهزيمة كانت لحظية فحسب.

علق بلهجة حزينة نوعاً ما: "فارس. ما كنت لأحزر أنك فارسي".

قال كروسبي:"لست فارسياً. كان أبي أفغانياً."

قال الآخر: "أفغاني!" ثم صمت محتاراً لحظة من الزمن. إلا أنه استعاد همته وجدد هجومه.

---

(١) كلب صيني الأصل. (المترجم).

(٢) كلب روسي لمطاردة الذئاب. (المترجم).

(٣) رواية شهيرة لآرثر كونان دويل. (المترجم).

"أفغانستان. آه! لقد خضنا بعض الحروب في ذلك البلد. والآن أجرؤ على القول إنه بدلاً عن محاربته كان يمكننا أن نتعلم شيئاً ما منه. بلد غني جداً. لا فقر حقيقيٌّ هناك".

رفع صوته وهو يتلفظ بكلمة "فقر" مع الإيحاء بشعور حاد كثيف. رأى كروسبي الافتتاحية وتفاداها.

قال: "إنها تمتلك عل أي حال عدداً من الشحاذين من ذوي المواهب السامية الخلاقة. لو لم أنتقص من قدر الأمور العجائبية التي جرت فعلاً لكنت قصصت عليك حكاية إبراهيم وحمولة أحد عشر جملاً من الورق النشاف. كما أني نسيت كيف تنتهي تلك القصة بالضبط."

قال الغريب وهو يخنق كل رغبة في سماع حكاية إبراهيم على ما يبدو: "قصة حياتي عجيبة. لم أكن دائماً كما تراني الآن".

قال كروسبي في تفسير التصريح السابق: "من المفترض أن نمر بتحوّل كل سبع سنوات".

تابع الغريب بعناد: "أعني أني لم أكن دائماً في مثل هذه الظروف المحزنة التي أنا فيها الآن".

قال كروسبي بقسوة: "يبدو هذا فظاً إلى حد ما إذا ما أخذنا في الحسبان أنك تخاطب رجلاً يشتهر بأنه واحد أكثر من المحدثين موهبة في التخوم الأفغانية".

قال صاحب اللحية الرمادية بسرعة:" لم أقصد هذا المعنى. لقد أثار الحديث معك اهتمامي الكبير، ولكني كنت ألمح إلى وضعي المالي البائس. قد لا تصدق ذلك، ولكني في هذه اللحظة لا أملك شروى نقير. ولا يبدو أن هناك أملاً في الحصول على أي نقود في الأيام القليلة القادمة. لا أعتقد أنك وجدت نفسك في مثل هذه الحال ذات مرة."

قال كروسبي: "في بلدة (يوم) الواقعة في جنوبي أفغانستان، وهي أيضاً مسقط رأسي، عاش فيلسوف صيني اعتاد أن يقول إن واحدة من أكبر النعم الثلاث على الإنسان أن يكون دون نقود إطلاقاً. وقد نسيت النعمتين الأخريين."

قال الغريب بلهجة لم تفصح عن أي حماسة لذكر الفيلسوف: "آه، حقاً! وهل مارس ما كان يعظ به؟ هذا هو المحك."

قال كروسبي: "عاش سعيداً بالقليل من جداً من المال أو الموارد".

"إذن أعتقد أنه كان لديه أصدقاء مستعدون لمساعدته بسخاء كلما عانى من صعوبات، كما هي حالي الآن."

قال كروسبي: "في بلدة (يوم) ليس من الضروري أن يكون لك أصدقاء حتى تنال المساعدة. إن أي مواطن من مواطني (يوم) سيمد يد العون إلى أي غريب كأمر بديهي."

أثير صاحب اللحية الرمادية بشكل حقيقي الآن. هاهو الحوار يتخذ أخيراً المنعطف الذي يحبذه.

" لو أن شخصاً مثلي يعاني من صعوبات لا يد له فيها، وراح يطلب من مواطن في تلك البلدة التي ذكرتها قرضاً صغيراً يتغلب به على مصاعب بضعة أيام من الإفلاس- خمسة شلنات أو ربما أكثر قليلاً- فهل ستعطى له كأمر بديهي؟"

قال كروسبي:" لا بد من وجود تمهيد معين. سيصطحبه المرء إلى حانة ويقدم له بعض النبيذ. ثم بعد حوار سامٍ لا يطول، سيضع المبلغ المرغوب في يده ويتمنى له يوماً سعيداً. إنها طريقة ملتوية لأداء صفقة بسيطة، ولكن في الشرق كل الطرق ملتوية."

التمعت عينا المستمع.

صاح وقد راحت سخرية رقيقة ترن رنيناً ذا مغزى في كلماته:" أعتقد أنك تخليت عن هذه العادات السخية كلها منذ أن غادرت بلدتك. أنت لا تمارسها الآن، على ما أعتقد."

قال كروسبي بحمية:" ليس هناك من عاش في (يوم) ويتذكر جبالها الخضراء المغطاة بأشجار المشمش واللوز، والماء البارد الذي يندفع كقبلة هابطاً من الثلوج الجبلية وينطلق من تحت الجسور الخشبية الصغيرة، ليس هناك من يتذكر هذه الأمور ويعتز بذكراها ويتخلى أبداً عن أي من هذه القوانين والعادات غير المكتوبة. بالنسبة إليّ، إنها ملزمة وكأني ما أزال أعيش في موطن شبابي المقدس ذاك."

" لو أني كنت سأطلب منك قرضاً صغيراً ..." بدأ صاحب اللحية الرمادية يقول بتزلف وهو يقترب أكثر في جلسته على المقعد متسائلاً بسرعة في نفسه كم سيكون المبلغ الذي سيطلبه على المضمون. "لو كنت سأطلب منك مثلاً ..."

قال كروسبي: "في أي وقت آخر بكل تأكيد. يحظر بشكل مطلق، على أي حال، في شهري تشرين الثاني وكانون الأول، أن يمنح أي واحد من سلالتنا قروضاً أو هدايا أو أن يتلقاها. وفي الواقع لا يتحدث المرء عن مثل هذه الأمور بإرادته، إذ يعتبر هذا مدعاة لسوء الطالع. لذلك سينتهي هذا الحوار الآن."

صاح المغامر بأنين متلهف غاضب:" ولكننا ما نزال في تشرين الأول"، وذلك بينما كان كروسبي ينهض من مقعده. "ما يزال هناك ثمانية أيام حتى نهاية الشهر!"

قال كروسبي بحدة:" لقد بدأ تشرين الثاني الأفغاني البارحة." وخلال لحظة أخرى كان يسير بخطوات واسعة عبر الحديقة وقد ترك رفيقه الجديد مقطباً ومهمهماً بغضب على المقعد.

ثرثر مخاطباً نفسه:" لا أصدق كلمة واحدة من حكايته، مجموعة من الأكاذيب القذرة من البداية إلى النهاية. أتمنى لو أني قلت له ذلك وجهاً لوجه. وهو يدعي أنه أفغاني!"

كان من شأن أصوات النخير والزمجرة الغاضبة التي صدرت عنه خلال ربع الساعة التالية أن تعزز بقوة حقيقة المثل القديم القائل إن اثنين من أصحاب الحرفة الواحدة لا يتفقان أبداً.

٢٢- طريقة شارتس متركلوم

نزلت الليدي كارلوتا إلى رصيف محطة القطار الصغيرة الجانبية وتمشت على طول المحطة غير المثيرة للاهتمام مرة أو مرتين، لتقتل الوقت، حتى يطيب للقطار أن يستأنف رحلته. ثم شاهدت في الطريق البعيد حصاناً يناضل تحت حمل ثقيل جداً، وسائق عربة من النوع الذي يبدو أنه يحمل حقداً عنيداً ضد ذلك الحيوان الذي يساعده في كسب معيشته. وسرعان ما اتجهت الليدي كارلوتا إلى ذلك الطريق وقد تغير لون وجهها خلال ذلك النضال. كان بعض معارفها معتادين على تحذيرها كثيراً من حيث عدم ملاءمة تدخلها نيابة عن الحيوانات الواقعة في كرب، حيث إن مثل هذا التدخل "أمر لا يخصها". ولم تنفذ عملياً مبدأ عدم التدخل سوى مرة واحدة، حين حوصرت واحدة من أكثر مناصراتها بلاغة لمدة ثلاث ساعات تقريباً في شجرة زعرور بري صغيرة وغير مريحة إطلاقاً من قبل خنزير بري غاضب،

بينما كانت الليدي كارلوتا على الجانب الآخر من السياج، قد تابعت رسم لوحة التلوين المائي التي كانت تعمل عليها، ورفضت التدخل بين الخنزير وسجينته. هذا ويخشى أن أنها خسرت صداقة السيدة التي تم إنقاذها في النهاية. وفي هذه المناسبة، فإنها لم تخسر سوى القطار الذي فاتها، وهذا كان أول دليل على انعدام الصبر الذي أبداه عبر الرحلة كلها، فانطلق من دونها. وقد تحملت هذا الهجر بلا مبالاة فلسفية. وكان أصدقاؤها وأقرباؤها معتادين تماماً على حقيقة وصول أمتعتها من دونها. وقد أبرقت رسالة غامضة وملتبسة إلى محطة الوصول لتقول إنها كانت ستحضر بـــ" قطار آخر". وقبل أن يكون لديها الوقت الكافي للتفكير فيما يجب أن تكون عليه حركتها التالية، فقد ووجهت بسيدة ترتدي ملابس مهيبة، والتي بدا عليها أنها كانت تقوم بجرد ذهني مطول لملابسها ومظهرها هي.

قالت المرأة غريبة المظهر بلهجة لا تتحمل سوى القليل جداً من الجدال: "لا بد أنك الآنسة هوب".

قالت الليدي كارلوتا لنفسها بخنوع خطير: "حسناً، إن كان لا بد أن أكون فأنا كذلك."

استأنفت السيدة كلامها: "أنا السيدة كوابارل. وأين أمتعتك من فضلك؟".

" لقد تاهت"، قالت المربية المزعومة وهي توافق على القاعدة الممتازة من قواعد الحياة التي تقول إن الغائب هو دائماً الملوم، فقد تصرفت أمتعتها، في الواقع، بحسن سلوك تام، ثم أضافت شيئاً أقرب إلى الحقيقة: "وقد أرسلت برقية للتو بذلك."

قالت السيدة كوابارل: "لكم هذا استفزازي. شركات القطار هذه مهملة جداً. وعلى أي حال، فإن خادمتي يمكنها أن تعيرك بعض الثياب من أجل الليل."، ثم قادت الطريق نحو سيارتها.

خلال الرحلة بالسيارة إلى منزل آل كوابارل تم تعريف الليدي كارلوتا بطبيعة المهمة التي أوكلت إليها. وقد عرفت أن "كلود" و"ويلفريد" طفلان رقيقان وحساسان، وأن "آيرين" ذات مزاج فني متطور جداً، أما "فيدا" فمن النوع الشائع من الأطفال السائد في القرن العشرين.

قالت السيدة كوابارل: "أتمنى لهم ألا يجري تعليمهم فحسب، بل أن يكونوا مهتمين فيما يتعلمونه. في دروس التاريخ مثلاً، عليك أن تحاولي أن تجعليهم يشعرون أنهم يتعرفون على سير الرجال والنساء الذين عاشوا حقاً، وليس فرض كتلة من الأسماء والتواريخ على ذاكرتهم. أما اللغة الفرنسية بالطبع، فسوف أتوقع منك أن تتحدثي بها خلال مواعيد الوجبات عدة أيام في الأسبوع".

"سأتحدث بالفرنسية أربعة أيام في الأسبوع والروسية في الأيام الثلاثة الباقية."

" الروسية؟ يا عزيزتي الآنسة هوب، لا أحد في المنزل يتكلم أو يفهم الروسية."

قالت الليدي كارلوتا: "لن يحرجني هذا إطلاقاً."

صدمت السيدة كوابارل بشدة. كانت واحدة من تلك النساء الواثقات من أنفسهن واللواتي هن عظيمات ومستبدات طالما لم يتم تحديهن بشكل جدي. وكان أقل استعراض للمقاومة غير المتوقعة يجعلهن خائفات ويتخذن موقف الدفاع. وحين فشلت المربية الجدية في التعبير عن الإعجاب المندهش بالسيارة الفخمة الغالية الثمن المشتراة حديثاً، وألمحت بخفة إلى المزايا السامية لطراز أو اثنين من أطرزة السيارات التي نزلت إلى السوق للتو، فإن انزعاج ربة عملها أصبح مهيناً تقريباً. كانت مشاعرها من ذلك النوع الذي كان من شأنه أن يحرك قائداً عسكرياً من أيام الحروب السالفة، وهو يرى أثقل أفياله الحربية يدحر من ميدان المعركة بشكل مخز من رماة المقلاع والرماح.

خلال وجبة العشاء في تلك الليلة، وبرغم أن زوجها قدم لها الدعم، وكان في العادة يردد آراءها ويقدم لها العون المعنوي عموماً، إلا أن السيدة كوابارل لم تسترد مواقعها قط. لم تقم المربية بخدمة نفسها بنفسها جيداً وشربت الكثير من النبيذ، بل تقدمت بإظهار معرفة نقدية كبيرة بمسائل متعددة تتعلق بالكروم والخمر،

ولم يكن الزوجان كوابرال خبيرين في هذا الموضوع. كانت المربيات السابقات يقصرن أحاديثهن في موضوع النبيذ على تعبير مخلص جلي ويدل على الاحترام بأنهن يفضلن عليه الماء. وحين تمادت هذه المربية إلى حد أنها زكّت شركة خمور لا يمكن للمرء أن يخطئ لو اعتمد الشراء منها، فإن السيدة كوابارل ظنت أن الوقت قد حان للعودة بالحديث إلى قنوات معتادة.

قالت: "حصلنا على تزكية مرضية جداً عنك من كانون تيب، وهو رجل جدير بالاحترام، على ما أعتقد."

قالت المربية برباطة جاش: " يشرب الخمر كثيراً ويضرب زوجته، وعدا ذلك فهو شخص محبوب جداً."

صاح الزوجان كوابرال معاً: "يا عزيزتي الآنسة هوب! أنا واثقة أنك تبالغين في الأمر."

تابعت ملفقة الروايات الكاذبة: "عليّ أن أقرّ من أجل وجه العدالة أن هناك بعض الاستفزاز. فالسيدة تيب هي بالضبط ذلك النوع المثير للغضب من لاعبات البريدج اللواتي سبق لي أن جلست معهن. إن طريقة لعبها وتصريحاتها قد تتغاضى عن قدر معين من الوحشية في شريكها، ولكن رشها بمحتويات قارورة ماء الصودا الوحيدة في المنزل في عصر يوم أحد، حين لا يستطيع المرء الحصول على قارورة أخرى، ينم عن لا مبالاة

براحة الآخرين وهذا ما لا أستطيع التغاضي عنه تماماً. قد تعتقدون أني متسرعة في أحكامي، ولكني غادرت عملياً بسبب حادثة قارورة ماء الصودا."

قالت السيدة كوابارل بسرعة: "سنتحدث عن هذا الأمر في وقت آخر."

قالت المربية بتصميم: " لن ألمح إليه مرة أخرى."

قام السيد كوابارل بتحويل مرحب به للحوار بأن سأل عن الدراسات التي تقترح المعلمة الجديدة البدء بها في الغد.

أبلغته قائلة: " سنبدأ بالتاريخ."

قال بلهجة حكيمة: "آه، التاريخ، إذن بتدريسك إياهم التاريخ سيكون عليك أن تحرصي على أن تجعليهم يهتمون بما يتعلمونه. عليك أن تجعليهم يشعرون أنهم يتعرفون على سير حياة الرجال والنساء الذين عاشوا حقاً..."

قاطعت السيدة كوابارل قائلة: "لقد قلت لها ذلك."

قالت المربية بتغطرس: "أدرّس التاريخ بطريقة شارتس متركلوم".

قال المستمعان وهمل يعتقدان أنه من الملائم الادعاء بمعرفة الاسم على الأقل : "أوه، أجل".

سألت السيدة كوابارل في صباح اليوم التالي حين وجدت آيرين تجلس بوجه كالح إلى حد ما على رأس الدرج، بينما شقيقتها تجثم في وضعية انزعاج كئيب على مقعد النافذة قريباً منها، وقد غطاها بساط مصنوع من فروة ذئب بأكملها تقريباً.

جاء الجواب غير المتوقع: "نحن نأخذ درساً في التاريخ. من المفترض أن أكون أنا روما، أما فيولا في الأعلى هناك فهي الذئبة، ليس ذئبة حقيقية، بل تمثال الذئبة التي كان الرومان يقدسونها كثيراً ... لقد نسيت السبب في أن كلود وويلفريد قد مضيا لإحضار النساء الدنيئات."

"النساء الدنيئات؟"

" أجل، عليهما أن ينقلاهن. لم يكونا راغبين في ذلك، ولكن الآنسة هوب تناولت مضرب البابا الخاص بلعبة الفايفس[١] وقالت إنها ستضربهما على كفليهما تسع مرات لو لم يفعلا ذلك، لذا فقد مضيا ليقوما بذلك."

وصل صراخ مدو غاضب من اتجاه المرج مما جعل السيدة كوابارل تتجه إلى هناك بسرعة محمومة، وهي تخشى أن تكون العقوبة المهدد بها قد بدأت بالفعل. ولكن الصرخة على أي حال وصلت بشكل أساسي من الابنتين الصغيرتين لحارس كوخ

(١) الفايفس: لعبة تشبه كرة اليد. (المترجم)

الصيد اللتين كان كلود وويلفريد اللاهثان والمشعثا الشعر يدفعانهما ويحثانهما نحو المنزل، بينما كانت مهمتهما قد أصبحت أكثر مشقة بسبب الهجمات المتواصلة إنما غير الفعالة كثيراً للشقيق الصغير للفتاتين الأسيرتين. كانت المربية تحمل مضرب الفايفس وتجلس بإهمال على الدرابزين الحجري مشرفة على المشهد بالحيادية الباردة لآلهة المعارك. كانت صرخة غاضبة ومتكررة تصدر عن أولاد الكوخ كأنما من جوقة: " سنخبر ماما"، ولكن أم الكوخ التي كان سمعها ضعيفاً، كانت منهمكة في هذه اللحظة في حوض غسيلها. وبعد نظرة خائفة في اتجاه الكوخ (كانت المرأة الطيبة موهوبة بمزاج حربي عنيف يعود أحياناً إلى مزية صممَها)، انطلقت السيدة كوابارل بسرعة لإنقاذ الأسيرتين المناضلتين.

"ويلفريد! كلود! أطلقا سراح هاتين الطفلتين فوراً. يا آنسة هوب، ما معنى هذا المشهد بحق السماء؟"

" التاريخ الروماني القديم. النساء السابينيات(١)، ألا تعرفينهن؟ إنها طريقة شارتس متركلوم لجعل الأطفال يفهمون التاريخ

---

(١) السابينيات: كان اغتصاب النساء السابينيات حدثاً من التاريخ الأسطوري للرومان، حين سبى الجيل الأول من الرومان زوجات من الأسر السابينية المجاورة لهم. (المترجم)

بواسطة تمثيله بأنفسهم. وهذا يثبته في ذاكرتهم، كما تعرفين. بالطبع، وبفضل تدخلك، ولو أن أولادك سيعيشون ليظنوا أن النساء السابينيات قد نجون من الأسر في النهاية، فأنا لا يمكن أن أكون مسؤولة عن ذلك."

قالت السيدة كوابارل بحزم: "أعتقد أنك بارعة جداً يا آنسة هوب، ولكني أود منك المغادرة من هنا في أول قطار. سترسل لك أمتعتك بعد رحيلك ما أن تصل إلينا."

قالت معلمة الأطفال المطرودة: "لست متأكدة بالضبط من مكان وجودي في الأيام القليلة القادمة، يمكنك الاحتفاظ بأمتعتي حتى أبرق لك عنواني. ليس هناك سوى حقيبتين وبعض مضارب الغولف وجرو فهد."

شهقت السيدة كوابارل: "جرو فهد! حتى في رحيلها فإن هذه المرأة الغريبة الأطوار تبدو وكأنها مصممة على ترك أثر من الإرباك من خلفها."

"حسناً، إنه لم يعد جرواً بعد الآن، بل هو بالأحرى فهد نصف بالغ، كما تعلمين. طير لغذائه كل يوم وأرنب في أيام الأحد هو ما يحصل عليه عادة. لحم العجل النيئ يجعله شديد الاستثارة. لا تزعجي نفسك بشأن توصيلي بالسيارة إلى المحطة، فأنا أفضّل المشي".

وهكذا خرجت الليدي كارلوتا على قدميها من أفق آل كوابارل.

كان وصول الآنسة هوب الأصلية التي أخطأت في تحديد يوم وصولها، قد أحدث اضطراباً عظيماً لم تكن تلك السيدة الطيبة معتادة على إثارته. من الواضح أن أسرة كوابارل قد تم العبث بها بشكل مثير للحزن ولكن الكثير من الراحة حلت عليها مع معرفتها بما حدث.

قالت لها مضيفتها حين وصلت الضيفة المتأخرة أخيراً: " لكم كان هذا متعباً لك يا عزيزتي كارلوتا! أن تفوتي قطارك ويكون عليك أن تقضي الليل في مكان غريب."

قالت الليدي كارلوتا : " لا عليك يا عزيزتي، لم يكن الأمر متعباً قط... بالنسبة إليّ أنا."

* * *

٢٣- الراوي

كان العصر حاراً وبالتالي فقد كان الجو في مقطورة سكة الحديد حاراً ورطباً، وما تزال هناك ساعة على الأقل قبل التوقف في المحطة القادمة في "تمبلكومب". ركاب المقطورة هم فتاة صغيرة وفتاة أصغر منها وصبي صغير. وهناك عمة تنتمي إلى الأطفال تحتل مقعداً في الزاوية، أما المقعد في الزاوية الأبعد على الجانب المقابل، فكان يجلس فيها رجل عازب غريب عن المجموعة، إلا أن الفتاتين الصغيرتين والصبي الصغير راحوا يحتلون بإصرار تلك المقصورة. كانت العمة كما الأطفال مولعين بالحديث بأسلوب محدود وملحّ، مما يذكر المرء باهتمامات ذبابة منزلية لا تفتر همتها. كانت معظم تعليقات العمة تبدأ بـــ "لا... "، وكانت تعليقات الأطفال كلها تقريباً تبدأ بـــ "لماذا؟" إلا أن الرجل العازب لم يقل شيئاً بصوت مرتفع.

صرخت العمة بينما راح الصبي الصغير يضرب وسائد المقعد مما أثار سحابة من الغبار مع كل ضربة: " لا تفعل ذلك يا سيريل. لا!"

ثم أضافت:" تعال وانظر خارج النافذة".

انتقل الطفل متردداً نحو النافذة. قال: "لماذا تقاد هذه الخراف خارج الحقل؟"

قالت العمة بصوت واهن:" أعتقد أنها تقاد إلى حقل آخر فيه عشب أكثر."

احتج الصبي قائلاً: "ولكن هناك الكثير من العشب في ذلك الحقل، لا شيء سوى العشب هناك. عمتي، هناك الكثير من العشب في ذلك الحقل."

اقترحت العمة ببلاهة: "ربما كان العشب في الحقل الآخر أفضل."

"ولماذا هو أفضل"، هكذا جاء السؤال السريع المحتوم.

صاحت العمة:" أوه، انظر إلى تلك البقرات!" كلن كل حقل على امتداد السكة الحديد يحوي أبقاراً أو عجولاً، ولكنها تكلمت كمن يلفت الانتباه إلى شيء نادر.

ألح سيريل:" ولماذا يكون العشب في الحقل الآخر أفضل؟"

تحول التجهم على وجه الرجل العزب إلى عبوس. كان رجلاً قاسياً لا يعرف التعاطف، كما قررت العمة في ذهنها. لم تكن قادرة على الإطلاق أن تصل إلى أي قرار مُرضٍ بشأن العشب في الحقل الآخر.

أحدثت أصغر الفتاتين نوعاً من التغيير إذ بدأت تتلو قصيدة "على طريق ماندالاي". كانت لا تعرف سوى البيت الأول، ولكنها استخدمت معرفتها المحدودة إلى أقصى حد ممكن. راحت تكرر البيت المرة تلو الأخرى بصوت حالم إنما مصمم ومسموع جداً. بدا للعزب وكأن شخصاً ما قد راهنها إن كانت تقدر على تكرار البيت ألفي مرة دون توقف. وكائناً ما يكون ذلك المراهن فإنه من المحتمل أن يخسر الرهان.

قالت العمة حين نظر الرجل العزب إليها مرتين ومرة إلى حبل الاتصال: "تعالوا إلى هنا واستمعوا إلى حكاية".

تحرك الأطفال بتوان نحو الزاوية التي كانت العمة تحتلها. بدا واضحاً أن سمعتها كراوية لم تكن جيدة حسب تقويمهم.

وبصوت خفيض وهامس راحت تقاطعه أحياناً أسئلة تطرح بصوت مرتفع مشاكس من مستمعيها، بدأت تقص حكاية تخلو من المغامرة وغير مثيرة إلى حد مؤسف عن فتاة صغيرة طيبة القلب تصادق كل شخص بسبب طيبتها، وكيف أنقذها أخيراً من ثور هائج عدد من المنقذين كانوا معجبين بمزاياها الأخلاقية.

سألت أكبر الفتاتين: " أما كانوا سينقذونها لو لم تكن طيبة القلب"؟ كان ذلك بالضبط السؤال الذي أراد الرجل العزب طرحـــه.

"حسناً، أجل"، أقرت العمة بضعف، ثم أردفت: "ولكن لا أعتقد أنهم كانوا سيهرعون على ذلك النحو السريع لإنقاذها لو لم يكونوا يحبونها إلى ذلك الحد".

قالت أكبر الفتاتين بقناعة هائلة: "هذه أسخف قصة سمعتها على الإطلاق."

قال سيريل: "توقفت عن الإصغاء بعد البداية. كانت سخيفة جداً."

لم تعلق أصغر الفتاتين على الحكاية ولكنها كانت قد بدأت منذ زمن بالتكرار المهمهم لبيتها الشعري المفضل.

قال الرجل العزب فجأة من ركنه: "لا يبدو أنك ناجحة كراوية".

اتخذت العمة مظهراً عدوانياً في دفاع تلقائي ضد هذا الهجوم الفجائي.

قالت بلهجة رسمية: "من الصعب جداً قصُّ حكاياتٍ يمكن للأطفال فهمها وتقديرها في آن معاً."

قال الرجل العازب: " لا أوافقك الرأي."

كان جواب العمة: "ربما تحب أنت أن تحكي لهم حكاية."

قالت أكبر الفتاتين: "احك لنا حكاية."

بدأ الرجل العازب يقول: " كان يا ما كان فتاة صغيرة تسمى بيرثا وكانت طيبة إلى حد استثنائي".

بدأ اهتمام الأطفال الذي أثير مؤقتاً بالتردد فوراً. فقد بدت جميع الحكايات متشابهة إلى حد كريه كائناً من كان الراوي.

"كانت تقوم بكل ما يطلب إليها، فقد كانت صادقة على الدوام، وتحافظ على ملابسها نظيفة، وتأكل بودينغ الحليب وكأنه كعك بالمربى، كما كانت مجتهدة في دروسها. أما سلوكها فكان لطيفاً".

سألت أكبر الفتاتين الصغيرتين: " وهل كانت جميلة؟"

قال الرجل العازب:" ليس بجمال أي منكما، ولكنها كانت طيبة إلى حد رهيب."

سرت موجة من رد الفعل لصالح الحكاية. كانت كلمة "رهيب" لوصف الطيبة أمراً جديداً فرض نفسه على الأطفال. لقد بدا أنه يطرح نوعاً من الحقيقة كان غائباً عن حكايات العمة التي تدور حول حياة الأطفال.

تابع العزب: "كانت طيبة جداً حتى أنها حازت العديد من الميداليات لطيبتها، وكانت ترتديها باستمرار مثبتة على ثوبها. كانت هناك ميدالية للطاعة وأخرى للدقة وثالثة للسلوك الجيد. كانت تلك ميداليات معدنية كبيرة مما جعل الواحدة منها ترن على الأخرى خلال سير الطفلة. لم يكن هناك طفل آخر في بلدتها حاز على ثلاث ميداليات، لذلك كان الجميع على معرفة بأنها كانت دون شك طفلة طيبة إلى حد كبير."

اقتبس سيريل قائلاً: " طيبة إلى حد رهيب!"

"كان الجميع يتحدثون عن طيبتها، وقد سمع أمير تلك البلاد بذلك، فقال إنها طالما كانت طيبة جداً فسيسمح لها مرة في الأسبوع أن تتمشى في متنزهه الذي كان يقع خارج البلدة. وكان المتنزه جميلاً ولم يكن مسموحاً للأطفال دخوله. لذلك كان شرفاً كبيراً لبيرثا أن يسمح لها بالدخول إلى هناك."

سأل سيريل:" هل كانت هناك أي خراف في ذلك المتنزه؟"

قال العزب:" لا، لم تكن هناك أي خراف."

"ولماذا لم تكن هناك خراف"؟ هكذا جاء السؤال المحتوم الناجم عن ذاك الجواب.

سمحت العمة لنفسها بابتسامة، وهي ابتسامة يمكن وصفها بأنها تكشيرة تقريباً.

قال العازب: "لم تكن هناك خراف في المنتزه لأن أم الأمير رأت ابنها في حلم ذات مرة وهو يقتل من قبل خروف أو بواسطة ساعة كبيرة تقع عليه. ولهذا السبب لم يكن لدى الأمير خراف في متنزهه أو أي ساعة في قصره."

كبحت العمة صرخة إعجاب صامتة.

سأل سيريل: "وهل قتل الأمير بواسطة خروف أو ساعة؟"

قال العزب باطمئنان: "ما يزال حياً، لذلك لا نستطيع أن نعرف إن كان الحلم قد تحقق أم لا. وعلى أي حال، لم تكن هناك خراف في المتنزه، ولكن كان فيه الكثير من الخنازير الصغيرة في كل أنحاء المكان."

"ما كان لونها؟"

" كانت سوداء بوجوه بيضاء، وبيضاء ببقع سوداء، وسوداء بالكامل، ورمادية ببقع بيضاء، وكان بعضها ذا بياض كامل."

توقف الراوي ليترك فكرة كاملة عن كنوز المتنزه تقتحم مخيلة الأطفال. ثم استأنف كلامه قائلاً:

"كانت بيرثا حزينة إلى حد ما إذ لم تجد أي ورد في المتنزه. كانت قد وعدت عماتها، والدموع في عينيها، بأنها لن تقطف أياً من ورود الأمير اللطيف، وكانت تنوي أن تحافظ على وعدها، لذلك شعرت بالسخف إذ وجدت أنه لم يكن هناك ورود للقطف".

" ولماذا لم تكن هناك ورود؟"

قال العازب على الفور: "لأن الخنازير أكلتها كلها. كان الجنائنيون قد قالوا للأمير إنك لا تستطيع الاحتفاظ بالخنازير والورود معاً، لذلك قرر أن تكون لديه خنازير دون ورود."

سرت همهمة من الاستحسان بسبب جودة قرار الأمير. كان من شأن أناس كثيرين أن يختاروا قراراً معاكساً.

" كانت هناك أشياء ممتعة أخرى في المتنزه: برك فيها سمك ذهبي وأزرق وأخضر، وأشجار عليها ببغاوات جميلة تنطق بأمور ذكية خلال لحظة، وطيور مغردة تغرد بكل الألحان الشعبية السائدة. راحت بيرثا تتمشى وتمتع نفسها إلى حد كبير، ثم فكرت في نفسها: "لو لم أكن طيبة إلى هذا الحد الاستثنائي ما كان سيسمح لي بالدخول إلى هذا المتنزه الجميل والاستمتاع بكل ما يمكن مشاهدته فيه". وهنا رنت ميداليتها الثلاث الواحدة على الأخرى وهي تمشي، وقد ساعدها هذا على أن تتذكر كم كانت طيبة حقاً. عندها بالضبط تسلل ذئب ضخم إلى المتنزه ليرى إن كان يستطيع أن يقتنص خنزيراً صغيراً سميناً لأجل وجبة عشائه."

سأل الأطفال وهم في حال من الاهتمام المتسارع الفوري:" ما كان لونه؟"

"كان لونه بلون الوحل ولسانه أسود وعيناه رماديتين فاتحتين إنما تشعان بوحشية لا توصف. وكان أول شيء رآه في الحديقة هو بيرثا، فقد كان مئزرها شديد البياض والنظافة بحيث كان ممكناً رؤيته من مسافة بعيدة. شاهدت بيرثا الذئب وعرفت أنه كان يتسلل باتجاهها، وبدأت تتمنى لو أنه لم يسمح لها قط بالدخول إلى المتنزه. ركضت بأسرع ما تستطيع ولكن الذئب طاردها بقفزات ووثبات هائلة. استطاعت الوصول إلى جنبات من شجر الآس واختبأت بين أكثرها كثافة. اقترب الذئب متشمماً

ولسانه الأسود يتدلى من فمه وعيناه الرماديتان الفاتحتان تتوهجان حماسة. شعرت بيرثا بخوف شديد، وفكرت في نفسها: "لو لم أكن طيبة إلى ذلك الحد الاستثنائي لكنت الآن أتمتع بالأمان في البلدة." وعلى أي حال فإن رائحة الآس كانت قوية إلى حد أن الذئب لم يستطع أن يتشمم مكان اختباء بيرثا. كما كانت الشجيرات كثيفة إلى حد أنه كان سيبحث فيها فترة طويلة دون أن يجدها. لذلك، فكر في أنه يجدر به أن يذهب ويقتنص خنزيراً صغيراً بدلاً عنها. كانت بيرثا ترتجف بشدة من الخوف والذئب يتجول ويتشمم إلى جوارها، وحين ارتجفت فإن ميدالية الطاعة رنت على ميداليتي السلوك الجيد والدقة. كان الذئب قد قرر للتو الابتعاد حين سمع صوت الميداليات وهي ترن فتوقف ليصغي. ثم رنت مرة أخرى في شجيرة قريبة منه. اندفع نحو الشجيرة وعيناه الرماديتان الفاتحتان تشعان بوحشية وانتصار، وجرّ بيرثا خارجاً والتهمها حتى آخر لقمة. كان كل ما تركه منها حذاءها ومزقاً من ملابسها وميداليات الطيبة الثلاث".

"هل قتل أي من الخنازير الصغيرة؟"

"لا، فقد نجت جميعاً."

قالت أصغر الفتاتين: "كانت بداية الحكاية سيئة ولكن نهايتها جميلة".

قالت أكبر الفتاتين بتصميم هائل: "إنها أجمل قصة سمعتها على الإطلاق."

قال سيريل:" إنها القصة الجميلة الوحيدة التي سبق لي أن سمعتها."

أما العمة فعبرت عن رأي مخالف.

"حكاية غير ملائمة إطلاقاً لتروى على أسماع أطفال صغار! لقد خرّبت فحوى سنوات من التعليم شديد العناية".

قال العازب وهو يجمع حاجياته ويحضر نفسه لمغادرة المقطورة:"على أي حال لقد أبقيتهم هادئين عشر دقائق، وهذا أكثر مما تستطيعين فعله".

"امرأة تعيسة! " قال في نفسه وهو يمشي على رصيف محطة تمبلكومب. " في الشهر الستة التالية أو نحوه فإن هؤلاء الأطفال سيلحون عليها جهاراً وفي العلن طالبين منها أن تقص عليهم حكاية غير ملائمة!"

* * *

٢٤ - عيد الاسم

المغامرة، وفقاً للمثل، هي للجسور. ولكن غالباً ما تكون لغير الجسور، للمتقاعد، وللخجول فطرياً. كان جون دجيمز أبلواي موهوباً من الطبيعة بنوع من المزاج الذي يتجنب غريزياً المؤامرات الكارلية[١] والغزوات في أحياء الفقراء واقتفاء أثر الوحوش البرية الجريحة ونقل التعديلات العدائية في الاجتماعات السياسية. لو أن كلباً مسعوراً أو "ملاّ مجنوناً"[٢] قد اعترض طريقه لكان سيستسلم دون تردد. في المدرسة، اكتسب دون رغبة منه معرفة عميقة باللغة الألمانية من مراعاته للرغبات المعبر عنها صراحة لمعلم اللغة الأجنبية الذي كان برغم تعليمه للموضوعات

---

(١) المؤامرات الكارلية: الكارلية حركة سياسية إسبانية بدأت في عشرينات القرن التاسع عشر وهي على صلة بالخلاف على من يستحق عرش إسبانيا. (المترجم)

(٢) الملا المجنون: أطلق البريطانيون هذا الاسم على سيد محمد عبد الله حسان (١٨٥٦-١٩٢٠)، وهو مجاهد صومالي ضد الاستعمار البريطاني. (المترجم).

المعاصرة، إلا أنه استخدم طرقاً قديمة الطراز في إنجاز واجبه. وكانت هذه المعرفة بلغة تجارية هامة هي التي دفعت أبلواي في السنوات اللاحقة إلى أراضٍ غريبة حيث كان تجنب المغامرات فيها أصعب بالمقارنة مع البيئة المنظمة لبلدة ريفية إنكليزية. كانت الشركة التي يعمل فيها قد وجدت أنه من المناسب إيفاده في أحد الأيام في مهمة عمل مملّة إلى المدينة البعيدة، فيينا. وبعد أن أوفدته إلى هناك، فقد استمرت في إبقائه هناك، حيث كان ما يزال منهمكاً في أعمال تجارية مضجرة، ولكن بقيت احتمالات الوقوع في الغرام والمغامرات أو حتى البلايا الطفيفة أمراً محتملاً. بعد عامين ونصف من النفي، قام جون دجيمز أبلواي بمهمة خطيرة واحدة على أي حال، وكانت تلك من طبيعة كان من شأنها بالتأكيد أن تدركه عاجلاً أم آجلاً لو أنه كان سيعيش حياة محمية ومنزلية في دوركينغ أو هنتينغدون. لقد وقع برباطة جأش في غرام فتاة إنكليزية جديرة بأن تحب برباطة جأش، شقيقة أحد زملائه التجاريين الذي كان يثقّفها عن طريق تنظيم رحلة لها إلى بلدان أجنبية... وقد قُبل في النهاية على أنه الشاب خطيب الفتاة. وكانت الخطوة التالية التي ستصبح فيها زوجة للسيد جون أبلواي ستجري بعد اثني عشر شهراً في بلدة في وسط إنكلترا، وفي ذلك الحين لن تكون الشركة المستخدمة لجون دجيمز في حاجة إلى المزيد من وجوده في العاصمة النمساوية.

كان ذلك في أوائل شهر نيسان (أبريل) بعد شهرين من تعيين أبلواي خطيباً شاباً للآنسة بينينغ، حين تلقى رسالة منها كتبتها من مدينة البندقية. كانت ما تزال ترتحل تحت جناح أخيها، وبما أن ترتيبات عمل هذا الأخير كانت ستجعله يعبر حتى "فيومه"[١] لمدة يوم أو اثنين، فقد خطرت لها فكرة أنه سيكون أمراً يدعو للمرح لو استطاع جون أن يحصل على إجازة ويهرع إلى شاطئ الأدرياتيكي للقائهما. كانت قد تحققت من الطريق على الخارطة ولم تبدُ الرحلة مكلفة جداً. بين أسطر رسالتها كان هناك تلميح إلى أنه سيفعل ذلك لو كان أمرها يهمه حقاً...

حصل أبلواي على إجازة وأضاف رحلة إلى فيومه إلى مغامرات حياته. غادر فيينا في يوم بارد كالح. كانت دكاكين الزهور مليئة بزهور الربيع، والصحف الأسبوعية من النوع المصور الهزلي مليئة بموضوعات عن الربيع، ولكن السماء كانت كثيفة الغيوم التي بدت أشبه بقطن البطانات الذي بقي محفوظاً لفترة طويلة في واجهة المحلات.

قال موظف الخط الحديد لموظفي المحطة "الثلج قادم"، وقد وافقوه على هذا الرأي. وقد جاء الثلج، بسرعة، وبوفرة. لم يكن القطار قد قطع أكثر من ساعة واحدة من رحلته حين بدأت غيوم

---

(١) فيومه: ميناء كرواتي على الأدرياتيكي. (المترجم)

قطن البطانات بالانحلال متحولة إلى انهمار كثيف لرقاقات الثلج. كانت أشجار الغابة على جانبي الخط قد تغطت بسرعة بعباءة بيضاء ثقيلة وأصبحت خطوط التلغراف حبالاً سميكة لامعة، بينما السكة الحديد نفسها قد اندفنت أكثر فأكثر تحت بساط من الثلج. راحت القاطرة غير القوية جداً تسير عبرالثلج بصعوبة متزايدة. لم يكن خط فيينا- فيومه هو الأفضل تجهيزاً بين خطوط السكك الحديد النمساوية الحكومية، وبدأ أبلواي يشعر بمخاوف جدية من تعطل القطار. كان القطار قد أبطأ سيره إلى زحف مؤلم حذر ثم توقف في الوقت الحاضر في بقعة كان الثلج المتراكم قد أصبح يشكل فيها حاجزاً منيعاً. قامت القاطرة بجهد خاص ثم انهارت أمام العائق، ولكن خلال عشرين دقيقة انطلقت مجدداً. تجددت عملية الاختراق واستأنف القطار سيره بعناد، وهو يواجه ويتغلب على عوائق جديدة في فترات متكررة. وبعد توقف لفترة طويلة إلى حد غير معتاد في ركام عميق جداً، اهتزت العربة التي كان أبلواي جالساً فيها على نحو عنيف وتمايلت ثم بدأ أنها سكنت تماماً. لم تكن تتحرك بكل تأكيد، ومع ذلك استطاع أن يسمع صوت القاطرة وهي تنفخ الدخان وقعقعة وارتجاج العجلات. أصبح صوت النفخ والقعقعة يخف وكأنه كان يحتضر عبر عامل المسافة الفاصلة. وفجأة صاح أبلواي صرخة إنذار مروع، وفتح النافذة وأطل على العاصفة الثلجية. حطت رقاقات الثلج على

رموش عينيه فعطلته عن الرؤية، ولكنه شاهد ما يكفي ليساعده على إدراك ما جرى. كانت القاطرة قد قامت باندفاعة قوية عبر الركام وانطلقت بمرح نحو الأمام، بعد أن خف وزنها لتخلصها من ثقل العربة الخلفية التي كانت وصلتها قد تحطمت بسبب الإجهاد. كان ابلواي وحيداً، أو وحيداً تقريباً، مع عربة قطار مهجورة في قلب الغابة الستيرية[1] أو الكرواتية. تذكر أنه شاهد في مقصورة الدرجة الثالثة المجاورة لمقصورته فلاحة كانت قد استقلت القطار من محطة جانبية صغيرة. صاح بدراماتيكية لنفسه: " باستثناء تلك المرأة، فإن أقرب الكائنات الحيّة إليّ هي على الأرجح قطيع من الذئاب".

وقبل أن يشق طريقه إلى المقصورة المجاورة من الدرجة الثالثة للتعرف على زميلته في السفر فقد راح أبلواي تحت هول الكارثة يتساءل عن جنسية تلك المرأة. كان قد اكتسب معرفة سطحية باللغات السلافية خلال إقامته في فيينا، وشعر أنه أهل للتعامل مع عدة احتمالات عرقية.

وعد نفس قائلاً لها: "لو كانت كرواتية أو صربية أو بوشناقية، فسوف أتمكن من جعلها تفهمني، ولو كانت مجرية فلتساعدني السماء! سيكون علينا أن نتفاهم بالإشارات."

---

(١) ستيريا: مقاطعة نمساوية. (المترجم)

دخل المقصورة وأطلق إعلانه الخطير بأفضل لغة كرواتية يستطيعها.

" القطار قد انطلق وتركنا!"

هزت المرأة رأسها بحركة قد تدل على الاستسلام لإرادة السماء، ولكن ربما كانت تعني بها عدم الفهم. كرر أبلواي المعلومات بعدد متنوع من اللغات السلافونية وبعرض سخي من فن الإيماء.

قالت المرأة أخيراً بلجة ألمانية محلية: "آه، لقد رحل القطار؟ ونحن مهجورون. هكذا إذن".

بدا اهتمامها أشبه بذلك الاهتمام الذي قد تبديه لو كان أبلواي يحكي لها نتيجة الانتخابات البلدية في أمستردام.

" سيكتشفون ذلك في محطة ما، وحين يذوب الثلج عن السكة فسوف سيرسلون لنا قاطرة. يحدث ذلك أحياناً".

صاح أبلواي: " قد نبقى هنا طوال الليل".

بدا على المرأة وكأنها تعتقد ذلك ممكناً.

سأل أبلواي بلهفة: "هل توجد ذئاب في هذه الأنحاء؟"

قالت المرأة: "الكثير منها. فخارج هذه الغابة التهمت الذئاب عمتي قبل ثلاث سنوات وهي عائدة إلى بيتها من السوق. كما

التهم الحصان وكذلك الخنوص الذي كان في العربة أيضاً. كان الحصان عجوزاً جداً، ولكن الخنوص كان جميلاً وصغير السن وبديناً جداً. لقد بكيت حين سمعت أنه التُهم. الذئاب لا توفر أحداً."

قال أبلواي وهو يرتعد: " قد تهاجمنا هنا. يمكنها بسهولة أن تقتحم المكان، فالمقاصير أشبه بالشظايا الخشبية. سيتم التهامنا."

قالت المرأة بهدوء: " أنت على الأرجح، ولكن ليس أنا."

سألها أبلواي: " ولم لن تلتهمك أنت؟"

"إنه عيد اسم القديسة ماريا كليوفا، وهذا عيد اسمي أنا. وهي لن تسمح أن ألتهم في يوم عيد اسمها. مثل هذا الأمر شيء لا يمكن حتى مجرد التفكير به. أنت، أجل، أنا، كلا."

غيّر أبلواي الموضوع.

" الوقت الآن هو العصر فحسب. لو تركونا هنا حتى الصباح فسوف نموت من الجوع."

قالت المرأة بهدوء: " لديّ هنا بعض الأشياء الصالحة للأكل. في يوم عيد اسمي من الطبيعي أن يكون معي بعض المؤونة. معي خمس قطع من مقانق الدم. في دكاكين المدينة تباع الواحدة منها بخمسة وعشرين هلراً. الأشياء مكلفة في دكاكين المدينة."

قال أبلواي ببعض الحماسة: "سأعطيك خمسين هلراً للقطعة الواحدة لو أعطيتني اثنتين منها".

قالت المرأة: "في حادث قطار تصبح الأشياء غالية الثمن جداً. هذه القطع من مقانق الدم تساوي الواحدة منها أربعة كرونات".

صرخ أبلواي: "أربعة كراونات! أربعة كرونات لقطعة واحدة من مقانق الدم؟"

قالت المرأة بمنطق عديم الشفقة: " لا تستطيع الحصول عليها بثمن أرخص على هذا القطار، لأنه لا يوجد ما يمكنك الحصول عليه سواها. في (أغرام) تستطيع شراءها بسعر أرخص، وفي الفردوس (الجنة) ستمنح لنا دون شك مجاناً، ولكن هنا تكلف أربعة كرونات للواحدة. لدي قطعة صغيرة من جبن إيمنتالر وكعكة بالعسل وكسرة من الخبز أستطيع أن أعطيك إياها. وهذا سيعني ثلاثة كرونات أخرى، أي ما مجموعه أحد عشر كروناً. هناك قطعة من لحم فخذ الخنزير ولكني لا أستطيع أن أعطيك إياها في يوم عيد اسمي".

تساءل أبلواي في نفسه عن السعر الذي كانت ستطلبه لقطعة لحم الخنزير، وأسرع ودفع لها الأحد عشر كروناً قبل أن ترتفع تعرفة الطوارئ خاصتها متحولة إلى تعرفة مجاعة. وبينما كان يستلم مخزونه المتواضع من الطعام سمع فجأة ضجة جعلت قلبه يخفق وانتابته حمى الخوف المخزية. كان هناك حك وحركة أقدام لحيوان أو حيوانات تحاول تسلق موطئ العربة. ومع

مرور لحظة أخرى، وعبر زجاج نافذة العربة الذي شكل الثلج قشرة عليه، شاهد رأساً كئيبة ذات أذنين مستدقتي الأطراف وشدقاً فاغراً ولساناً مدلى وأسناناً مومضة. بعد ثانية أخرى، أطلت رأس أخرى.

همس أبلواي: "هناك المئات منها. لقد شمت رائحتنا. ستمزق العربة إلى قطع صغيرة. سيتم التهامنا".

قالت المرأة بهدوء باعث على الاستفزاز: " ليس أنا في يوم عيد اسمي. فماريا كليوفا المقدسة لن تسمح بذلك."

هبطت الرؤوس عن النافذة وساد هدوء غريب على العربة المحاصرة. لم يتحرك ابلواي ولم يتكلم. ربما لم تر الوحوش بوضوح أو لم تشم رائحة راكبي العربة من البشر، وتابعت طريقها بحثاً عن مهمة نهب أخرى.

مرت الدقائق المثقلة بالعذاب ببطء.

قالت المرأة فجأة وهي تعبر نحو النهاية الأخرى للعربة حيث كانت الرؤوس قد ظهرت: " البرد يشتد. لم يعد جهاز التدفئة يعمل. انظر، هناك إلى ما خلف الشجار، هناك مدخنة يخرج منها الدخان. ليست بعيدة، والثلج قد توقف هطوله تقريباً. سأجد ممراً عبر الغابة إلى ذلك المنزل ذي المدخنة."

صاح أبلواي: " وماذا عن الذئاب؟ قد يلـــ ..."

قالت المرأة بعناد:" ليس في يوم عيد اسمي." وقبل أن يستطيع إيقافها فتحت الباب وهبطت إلى الثلج. بعد لحظة أخفى وجهه بين يديه : اندفع جسمان نحيلان نحوها من الغابة. لا شك أنها غامرت بمصيرها، ولكن أبلواي لم يكن راغباً في مشاهدة كائن بشري وهو يمزق إلى أشلاء ويُلتهم أمام عينيه.

حين نظر أخيراً تملكه شعور جديد من الدهشة المروعة.كان قد تلقى تربية صارمة في بلدة إنكليزية صغيرة ولم يكن مستعداً ليكون شاهداً على معجزة. لم تكن الذئاب تفعل أي شيء للمرأة عدا عن رشها بالثلج وهي تثب بمرح من حولها.

ثم صدر نباح قصير فرح كشف سر الوضع كله.

سألها بصوت واهن: " هل هذه كلاب؟"

أجابت: "كلاب ابن عمي كارل. هذا نزله هناك خلف الأشجار. لقد عرفت أنه هناك، ولكني لم أرد أن أصطحبك إلي، فهو طماع مع الغرباء. وعلى أي حال، سيكون البرد شديداً في القطار. آه، انظر من القادم."

كان هناك صوت صافرة، وهاهي قاطرة نجدة قد ظهرت وهي تشق طريقها مع شخير عبر الثلج. وهكذا لم تتح الفرصة لأبلواي ليعرف إن كان كارل طماعاً عن حق.

٢٥- حجرة السقيفة

كان الأطفال سيؤخذون بالعربة إلى الشاطئ الرملي في جاغبورو، كمتعة خاصة. ولكن نيكولاس لن يكون ضمن المجموعة؛ إذ كان قد ارتكب أمراً مخزياً. ففي ذلك الصباح بالذات كان قد رفض أن يتناول وجبة الخبز والحليب الصحية متعللاً بعذر سخيف هو وجود ضفدعة في السلطانية. لقد سبق لأشخاص أكبر منه سناً وأكثر حكمة وقيمة أن قالوا له إنه ليس من المحتمل وجود ضفدعة في سلطانية الخبز والحليب وأنه كان ينطق هراء. ولكن استمر رغم ذلك ينطق بما بدا أنه ترهات حقاً، ووصف الضفدعة المزعومة بالكثير من التفاصيل من حيث اللون والعلامات. أما الجزء المثير من الحادثة فتجلى في أنه كانت هناك بالفعل ضفدعة في سلطانية نيكولاس للخبز والحليب، فقد وضعها هناك بنفسه؛ لذلك شعر أنه يحق له أن يعرف شيئاً ما عنها. تضخمت خطيئة أخذ ضفدعة من الحديقة ووضعها في سلطانية الخبز والحليب الصحي إلى حد كبير، ولكن الحقيقة التي برزت بروزاً واضحاً من هذه المسألة كلها،

كما طرحها ذهن نيكولاس، هي أنه تبين أن الأشخاص الأكبر سناً والأكثر حكمة وقيمة على خطأ شديد في مسائل عبروا فيها عن ثقتهم المطلقة.

" قلتم إنه ليس من الممكن وجود ضفدعة في سلطانية الخبز والحليب، ولكن كانت هناك ضفدعة بالفعل في سلطانية الخبز والحليب"، هذا ما راح يكرر قوله بإلحاح التكتيكي البارع الذي لا ينوي أن يغادر موقع الأفضلية.

وهكذا كان ابن وابنة عمه وأخوه الأصغر غير المثير لاهتمامه إطلاقاً سيُصطحبون إلى الشاطئ الرملي في جاغبورو في عصر ذلك اليوم وكان عليه البقاء في المنزل. كانت خالة ولديّ عمه التي تصر بتوسع غير مبرر لمخيلتها، على أنها خالته هو أيضاً، قد اخترعت بسرعة مغامرة جاغبورو لكي تؤثر في نيكولاس مؤكدة على المتع التي فاتته بسبب سلوكه المخزي على مائدة الإفطار. كان من دأبها، كلما أخطأ أحد الأطفال، أن ترتجل شيئاً له طبيعة احتفالية على أن يحرم منها الطفل المشاغب على نحو صارم. ولو ارتكب الأطفال جميعاً إثماً ما فقد كانوا يبلغون فجأة بوجود سيرك في بلدة مجاورة، سيرك لا مثيل لروعته وأفياله التي لا تعد ولا تحصى، وهو السيرك الذي كانوا سيؤخذون إليه في ذلك اليوم بالذات لولا سلوكهم الفاسق.

كان المتوقع أن يذرف نيكولاس بضع قطرات محتشمة من الدمع مع اقتراب لحظة مغادرة البعثة إلى مغامرتها. ولكن ما حدث في الواقع هو أن البكاء كله كان من نصيب ابنة عمه التي كشطت ركبتها على نحو مؤلم بالأحرى على درجة العربة وهي تتسلق زاحفة إليها.

قال نيكولاس بمرح بينما كانت المجموعة تبتعد دون أيٍّ من تلك المعنويات العالية المتوقعة منها: " كيف راحت تعوي!"

قالت الخالة المزعومة: " سرعان ما ستنسى ألمها. سيكون عصراً رائعاً للسباق فوق تلك الرمال الجميلة. لكم سيستمتعون!"

قال نيكولاس بضحكة كالحة: " لم يستمتع بوبي كثيراً ولن يسابق أحداً كذلك، إن حذاءه يؤلمه فهو ضيق جداً."

" لمَ لم يقل لي إنّ حذاءه يؤلمه؟ " سألت الخالة ببعض الحدة.

" قال لك مرتين، ولكنك لم تصغي إليه. غالباً ما لا تصغين حين نقول لك الأشياء الهامة."

"محظور عليك الدخول إلى حديقة الكشمش"، قالت الخالة وهي تغير الموضوع.

سأل نيكولاس: " ولم لا؟"

قالت الخالة بتعال: " لأنك ارتكبت عملاً مخزياً".

لم يقر نيكولاس بصحة هذا المنطق، فقد شعر أنه قادر تماماً

على أن يرتكب عملاً مخزياً وأن يكون في حديقة الكشمش في اللحظة نفسها. كان واضحاً لخالته أنه كان مصمماً على دخول حديقة الكشمش، "وذلك فحسب لأني أمرته ألا يدخلها"، كما فكرت في نفسها.

كان لحديقة الكشمش بابان يمكن دخولها منهما، وما أن يتمكن طفل ضئيل الحجم شأن نيكولاس من الانسلال إلى هناك فإنه سيستطيع الاختفاء تماماً عن الأنظار بين نباتات الأرضي شوكي وأعواد توت العليق وشجيرات الفاكهة القادرة على إخفائه. كان لدى الخالة أشياء كثيرة تقوم بها في عصر ذلك اليوم، ولكنها أمضت ساعة أو ساعتين في أعمال البستنة التافهة بين أحواض الورود والشجيرات، من حيث تستطيع مراقبة البابين المؤديين إلى الفردوس المحرم. كانت امرأة ضعيفة الخيال وذات قدرة كبيرة على التركيز.

شن نيكولاس غارة أو غارتين على الحديقة الأمامية وهو يشق طريقه بالتواء وبخلسة واضحة النية نحو أحد البابين، ولكنه لم يستطع قط ولو للحظة واحدة أن يتهرب من عيني خالته اللتين تراقبانه. في الواقع، لم يكن ينوي قط محاولة الدخول إلى حديقة الكشمش، ولكن كان أمراً ملائماً له جداً أن تعتقد خالته بأنه كانت لديه مثل هذه النية. وكان ذلك اعتقاداً

سيجعلها تقوم بواجب الحراسة في معظم فترة العصر. بعد أن تأكدت تماماً وعززت شكوكها، تسلل نيكولاس إلى المنزل ونفذ على وجه السرعة خطة عمل كانت قد نبتت في ذهنه منذ زمن. فلو وقف على كرسي في المكتبة يستطيع الوصول إلى رف وضع عليه مفتاح سمين يبدو هاماً. كان المفتاح يبدو هاماً بقدر منظره: كان الأداة التي تبقي أسرار غرفة السقيفة في مأمن من التطفل غير المسموح به، كما كان يفتح الطريق أمام الخالات وأشخاص آخرين يتمتعون بالمزايا فحسب. لم تكن لدى نيكولاس خبرة كبيرة في فن إدخال المفاتيح في ثقوب المفاتيح وإدارتها، ولكنه مارس في أيام مضت العمل على مفتاح باب غرفة الدراسة، لم يكن يؤمن كثيراً بالحظ والصدفة. دار المفتاح بصعوبة في الثقب ولكنه دار. انفتح الباب وأصبح نيكولاس في أرض مجهولة كانت حديقة الكشمش بالمقارنة معها متعة بائتة، مجرد متعة مادية.

كثيراً ما تخيل نيكولاس في نفسه ما الذي سيكون عليه شكل غرفة السقيفة، تلك المنطقة التي كانت مغلقة بكل عناية أمام عيون الصغار والتي لم يكن أي سؤال عنها يجد رداً. ولم تخيب أمله. أولاً كانت كبيرة وذات إضاءة خافتة، ولها نافذة واحدة عالية تطل على الحديقة المحرمة فهي مصدر النور الوحيد لها.

وثانياً كانت مستودعاً لكنز لا يمكن تخيله. كانت خالته بقوة الإصرار واحدة من أولئك الأشخاص الذين يظنون أن الأشياء تتلف بالاستخدام فتتركها للغبار والرطوبة كوسيلة لحفظها. كانت تلك الأجزاء من المنزل التي يعرفها نيكولاس جيداً خالية وكئيبة بالأحرى، أما هنا فأشياء رائعة تحتفل بها العين. أولاً وقبل كل شيء هناك قطعة من النسيج المطرز كانت مخصصة على ما هو واضح لتكون حاجبة للنار في مدفأة. أما بالنسبة إلى نيكولاس فهي حكاية حية تتنفس. جلس فوق لفافة من الستائر الهندية التي تومض بألوان مدهشة تحت طبقة من الغبار، واستوعب كل تفاصيل صورة النسيج المطرز. كان هناك رجل يرتدي ملابس صيد تنتمي إلى زمن بعيد مضى وهاهو وقد قتل للتو أيلاً بسهمه. لم يكن القنص صعباً، لأن الأيل لم يكن بعيداً أكثر من خطوة أو خطوتين عنه. في النباتات الكثيفة التي كانت الصورة توحي بها لم يكن صعباً الزحف نحو أيل وهو يأكل، وكان الكلبان المبقعان القافزان إلى الأمام للانضمام إلى المطاردة قد دربا على ما يبدو على أن يبقيا بعيدين حتى يكون السهم قد انطلق. ذلك الجزء من الصورة كان بسيطاً وإن يكن ممتعاً، ولكن هل رأى الصياد ما رآه نيكولاس، أنه كانت هناك أربعة ذئاب تعدو آتية باتجاهه عبر الغابة؟ وقد يكون هناك أكثر

من أربعة منها مختبئة خلف الأشجار، وعلى أي حال هل سيستطيع الرجل وكلباه أن يكونوا نداً لأربعة ذئاب لو هاجمتهم؟ لم يكن قد تبقى لدى الرجل سوى سهمين في جعبته وقد يخطئ الرمي بأحدهما أو كليهما. وكل ما يعرفه المرء عن مهارته في الرمي كان أنه استطاع إصابة أيل كبير ضمن مدى قصير إلى حد مضحك. جلس نيكولاس دقائق ذهبية كثيرة وهو يدور حول إمكانيات المشهد. كان ميالاً إلى التفكير أنه سيكون هناك أكثر من أربعة ذئاب وأن الرجل وكلبيه كانوا في موقف حرج جداً.

ولكن كانت هناك أشياء أخرى تبعث المسرة والاهتمام وقد أسرت انتباهه فوراً: كانت هناك شمعدانات غريبة ملتوية بشكل ثعابين وإبريق شاي بشكل بطة صينية، وكان من المفروض أن يخرج الشاي من منقارها. لكم بدا كئيباً ودون شكل إبريق الشاي في حجرة نوم الأطفال بالمقارنة مع هذا! وكان هناك صندوق من خشب الصندل المنحوت وقد ملئ حتى آخره بطبقات من صوف القطن العطري، وبين طبقات صوف القطن كانت أشكال نحاسية صغيرة، ثيران ذات حدبات وطواويس وجنيات هي متعة للنظر واللمس. وكان هناك شيء أقل جاذبية من حيث المظهر هو كتاب كبير مربع الشكل له غلافان أسودان عاديان. قلبه نيكولاس فوجد فيه صوراً ملونة لطيور. ويا لها من طيور!

في الحديقة وفي الممرات حيث كان يتمشى عادة، كان نيكولاس يصادف عدداً قليلاً من الطيور أكبرها عقعق مرّ بالصدفة من هناك أو حمامة مطوقة. أما هنا فرأى مالك الحزين والحبارى والحدأة والطوقان وواق النمر وديك الدغل الرومي وأبو منجل والتدرج الذهبي، معرض صور كامل لمخلوقات لا يمكن تصورها حتى في الحلم. وبينما كان يتأمل بإعجاب ألوان البطة الصينية ويمنحها سيرة حياة، أتى صوت خالته بشكل صياح حاد باسمه من حديقة الكشمش في الخارج. كانت قد بدأت ترتاب من غيابه الطويل عن الأنظار وقد استنتجت فجأة أنه قد تسلق من فوق الجدار خلف ساتر شجيرات الليلك. كانت منهمكة الآن في بحث حيوي إنما يائس عنه بين نباتات الأرضي شوكي وعيدان توت العليق.

صرخت: "نيكولاس، نيكولاس! عليك الخروج من هناك فوراً. لا فائدة من الاختباء هناك. أستطيع أن أراك طوال الوقت."

ربما حدث لأول مرة منذ عشرين عاماً أن ابتسم شخص ما في غرفة السقيفة تلك.

والآن بدأ التكرار الغاضب لاسم نيكولاس يتحول إلى زعيق، وصراخ لشخص ما حتى يحضر بسرعة. أغلق نيكولاس الكتاب، أعاده بعناية إلى مكانه في إحدى الزوايا، وهز بعض الغبار من

كومة مجاورة من الصحف فوقه. ثم زحف خارجاً من الغرفة وأعاد المفتاح إلى حيث كان بالضبط. كانت خالته ما تزال تنادي باسمه حين دخل الحديقة الأمامية وهو يمشي الهوينى.

سأل: "من ينادي؟"

جاء الجواب من الجانب الآخر من الجدار: "أنا. ألم تسمعني؟ كنت أبحث عنك في حديقة الكشمش وقد زلت قدمي فسقطت في خزان ماء المطر. من حسن الحظ أنه لا يوجد ماء فيه، ولكن جوانبه زلقة ولا أستطيع الخروج. أحضر السلم الصغير من تحت شجرة الكرز..."

قال نيكولاس فوراً " لقد أمرت بألاّ أدخل حديقة الكشمش".

" لقد أمرتك بألاّ تدخل، والآن آمرك بأن تدخل"، هكذا جاء الصوت من خزان ماء المطر، وعلى نحو نافد الصبر تقريباً.

اعترض نيكولاس: " لا يبدو صوتك مثل صوت خالتي. قد تكونين الشيطان يحاول غوايتي حتى أرتكب معصية. غالباً ما تقول لي خالتي إن الشيطان يغويني وأني أطيعه دائماً. هذه المرة لن أطيع".

قالت السجينة في الخزان: "لا تنطق بالهراء. اذهب وأحضر السلم".

سأل نيكولاس ببراءة: "هل سيكون هناك مربى الفريز مع الشاي؟"

قالت الخالة بنفاد صبر وهي تقرر في نفسها ألا تجعل نيكولاس ينال منه شيئاً: "بكل تأكيد".

"أعرف الآن أنك الشيطان ولست خالتي" صرخ نيكولاس بمرح." حين طلبنا من خالتي البارحة أن تقدم لنا مربى الفريز قالت إنه ليس لديها منه إطلاقاً. أعرف أن هناك أربعة مرطبانات في خزانة المستودع، لأني نظرت هناك. وطبعاً أنت تعرف أن المربى هناك، أما هي فلا تعرف، لأنها قالت إنه لا يوجد مربى الفريز. أيها الشيطان، لقد فضحت نفسك بنفسك فعلاً."

كان هناك إحساس غير عادي من الترف في كونه قادراً على مخاطبة الخالة والادعاء بأنه يخاطب الشيطان، ولكن نيكولاس كان يعرف بوعي طفولي أن مثل هذا الترف ما كان ممكناً التساهل فيه. سار وهو يحدث ضجة مبتعداً عن المكان، وكانت خادمة المطبخ التي مضت تبحث عن البقدونس هي التي أنقذت الخالة أخيراً من صهريج ماء المطر.

في ذلك المساء تم تناول الشاي في صمت. كان المد في أعلى مستوى له حين وصل الأطفال إلى جاغبورو كوف، لذلك لم تكن هناك رمال للعب عليها: وهذا ظرف سهت عنه الخالة حين تسرعت في تنظيم رحلتها العقابية. أما ضيق حذاء بوبي فكانت له آثار كارثية على مزاجه طوال فترة العصر، وإجمالاً

فإن الأطفال لم يتمتعوا بنزهتهم. حافظت الخالة على الصمت الجليدي لشخص عانى من حبس غير لائق ولا يستحقه في خزان ماء المطر مدة خمس وثلاثين دقيقة. أما فيما يخص نيكولاس، فقد كان هو الآخر صامتاً، إذ كان مستغرقاً في التأمل كمن يشغله الكثير من الأفكار: كان ممكناً بالضبط، كما راح يفكر، بأن الصياد سينجو مع كلبيه بينما تحتفل الذئاب بالتهام الأيل القتيل.

* * *

٢٦- فـرو

قالت إلينور: " تبدين قلقة."

قالت سوزان بإقرار: " أنا قلقة، لست قلقة بالضبط، ولكني في حالة توق. كما تعرفين، فإن عيد ميلادي سيحل في الأسبوع القادم..."

قاطعتها إلينور قائلة: " أنت محظوظة. لن يحل عيد ميلادي قبل نهاية آذار."

" حسناً، لقد وصل برترام نيت العجوز للتو إلى إنكلترا من الأرجنتين. هو ابن عم بعيد لأمي، وغني إلى حد هائل ونحن لم نهمل تلك القرابة قط. وحتى لو كنا لا نراه أو تصلنا أخباره لسنوات، إلا أنه يبقى دائماً (ابن العم) حين يعود. لا أستطيع أن أقول إنه كان كريماً معنا، ولكن حين ذكر أمر عيد ميلادي، فقد طلب أن نعلمه بما أرغب به كهدية في هذه المناسبة."

قالت إلينور: " الآن عرفت سبب القلق."

قالت سوزان: " كقاعدة حين يواجه المرء مشكلة كهذه، تختفي جميع أفكاره. لا يبدو أن للمرء أي رغبة في هذا العالم. وقد حدث الآن أني كنت شديدة التوق للحصول على تمثال من درسدن شاهدته في مكان ما في كنسينغتون وسعره حوالي ستة وثلاثين شلناً، وهذا يفوق إمكانياتي المالية. كدت أصف التمثال وأعطي برترام عنوان الدكان. ثم خطر لي فجأة أن ستة وثلاثين شلناً مبلغ غير ملائم إلى حد السخف ينفقه رجل غني إلى ذلك الحد الهائل على هدية عيد ميلاد. إنه قادر على دفع ستة وثلاثين جنيهاً بالسهولة التي ندفع بها نحن ثمن باقة من البنفسج. لا أريد أن أكون طماعة بالطبع، ولكني لا أريد أن أكون متلافة."

قالت إلينور: " السؤال هو: ما هي أفكاره الخاصة عن منح الهدايا؟ فإن بعض أغنى الناس لديهم أكثر وجهات النظر ضيقاً وغرابة في هذا المجال. حين يصبح الناس أغنياء بالتدريج، ترتفع متطلباتهم ومستوى معيشتهم بالتناسب، بينما غالباً ما تبقى غريزتهم الخاصة بمنح الهدايا في حالة غير متطورة كما كانت في بدايات حياتهم. إن شيئاً مبهرجاً وغير مكلف من دكان هو مفهومهم عن الهدية المثالية. لذلك حتى الدكاكين الجيدة تتخم نضدها وشبابيك العرض لديها بأشياء يبلغ سعرها أربعة شلنات ولكنها تبدو وكأنها تساوي سبعة شلنات ونصف، ولكن يوضع عليها سعر عشرة شلنات وتسمى (هدايا موسمية)."

قالت سوزان: "أعرف، ولهذا فإن فإنه لأمر خطر جداً أن يكون المرء غامضاً وهو يشير إلى رغباته. والآن لو قلت له: (سأسافر إلى دافوس في الشتاء القادم، لذلك سيكون أي شيء يتعلق بالسفر مقبولاً)، وعندها فقد يهديني حقيبة لأدوات الزينة ذات تجهيزات مطعمة بالذهب، ومن ناحية أخرى، فقد يهديني كتاب (سويسرا) أو (التزلج على الجليد دون دموع) من منشورات "بايديكر"، أو أي شيء من هذا من القبيل."

" سيكون من المحتمل أكثر أن يقول: (ستذهب إلى حفلات رقص كثيرة، لذا فإن أهديتها مروحة فستكون مناسبة)."

" أجل، ولدي أطنان من المراوح، لذلك أنت ترين أين يكمن الخطر والقلق. ولكن لو كان هناك شيء واحد أريده أكثر حقاً وبشكل عاجل فهو الفرو. ليس لدي أي قطعة من الفرو. يقال لي إن دافوس مليئة بالروس، ولا شك أنهم يرتدون الكثير من فرو السمور الجميل وأشياء أخرى. أن يكون المرء بين أشخاص يخنقهم الفرو وهو لا يملك أياً منها فهذا سيجعله يرغب في مخالفة معظم الوصايا العشر."

قالت إلينور: "إن كنت تريدين الفرو، سيكون عليك أن تشرفي على اختياره شخصياً. لا يمكنك أن تكوني واثقة من أن ابن عمك يعرف بالضبط الفرق بين فرو الثعلب الفضي والسنجاب العادي."

قالت سوزان وهي تتنهد:"هناك بعض دثارات الفرو السماوية في محلات غولياث وماستودون. لو استطعت فحسب أن تغوي برترام حتى يدخل مبناهم وتأخذينه في جولة عبر قسم الفرو!"

قالت إلينور: " إنه يسكن قريباً من ذلك المكان، أليس كذلك؟ هل تعرفين عاداته؟ هل يتمشى في أي وقت محدد من اليوم؟"

" في العادة يذهب هو ليتمشى باتجاه ناديه حوالي الساعة الثالثة، إن كان الطقس جميلاً. وهذا يجعله يمر بمحلات غولياث وماستودون."

قالت إلينور: "فلنقابله أنت وأنا بالصدفة عند زاوية الشارع غداً. نستطيع أن نتمشى قليلاً معه، ولو كنا محظوظتين سنستطيع أن نجعله يدخل الدكان. يمكنك أن تقولي إنك تريدين الحصول على شبكة للشعر أو شيء من هذا القبيل. وحين نصبح في الداخل وبأمان، عندها سأقول: (أتمنى لو تقولين لي ما الذي تريدينه كهدية في عيد ميلادك) . عندها سيكون عليك أن تكوني مستعدة أن تقودي ابن العم الغني إلى قسم الفرو مع موضوع هدايا عيد الميلاد."

قالت سوزان: " يالها من فكرة عظيمة، أنت فعلاً حلوة المعشر. تعالي إلى ذلك المكان غداً حوالي الساعة الثالثة إلا ثلثاً، لا تتأخري. علينا أن ننفذ كميننا بالدقيقة."

قبل دقائق قليلة من تمام الساعة الثالثة من عصر اليوم التالي سارت صيادتنا الفرو بحذر نحو تلك الزاوية المختارة من الشارع. وعلى مسافة قريبة انتصبت محلات مؤسسة السادة غولياث وماستودون الضخمة والشهيرة. كان الطقس جميلاً إلى حد رائع، أي بالضبط ذلك النوع من الطقس الذي يغري سيداً متقدماً في العمر ليمارس بشكل متحفظ مشياً متمهلاً.

قالت إلينور لرفيقتها: "أقول يا عزيزتي إني أتمنى لو أنك تؤدين لي خدمة هذا المساء. ما رأيك أن تأتي بعد العشاء متذرعة بسبب ما أو بآخر، وأن تمكثي حتى تكوني الرابعة بين لاعبي البريدج مع أديلا والخالتين. وإلا فسأضطر إلى أن ألعب بينما سيأتي هاري سكاريسبروك في وقت غير متوقع حوالي التاسعة

والربع، وأنا أريد بشكل خاص أن أكون حرة حتى أحادثه بينما تكون الأخريات منهمكات في اللعب."

قالت سوزان: " آسفة يا عزيزتي لا أستطيع لعب البريدج العادي على ثلاثة بنسات للمائة، مع أولئك اللاعبات البطيئات إلى حد مريع شأن خالتيك، والمملات إلى درجة البكاء. سيستغرقني النوم تقريباً خلال ذلك".

قالت إلينور بإلحاح وقد بدأ وميض في الغضب يتلألأ في عينها: " ولكني أريد بشكل خاص جداً التحدث إلى هاري".

قالت سوزان بمرح: " آسفة، أي شيء آخر عدا ذلك." كانت تضحيات الصداقة جميلة في عينيها طالما لم يكن يطلب منها أن تقوم بها.

لم تتذكر إلينور أي شيء هذا الموضوع مجدداً، ولكن زاويتي فمها أعادتا ترتيب نفسيهما.

صاحت سوزان فجأة: " هاهو رجلنا!"

حيّا السيد برترام نيت ابنة عمه وصديقتها بود حقيقي، وقبل على الفور دعوتهما لاستكشاف السوق المكتظة التي كانت تقف بإغراء قريبة منهم. انفتح الباب الزجاجي الكبير واندفع الثلاثي بشجاعة باتجاه الجمهور المتدافع من المشترين والمتسكعين.

سأل برترام إلينور: " هل هو مزدحم دائماً إلى هذا الحد؟"

أجابت: "تقريباً، لقد بدأت تنزيلات الخريف للتو."

أما سوزان التواقة إلى توجيه ابن عمها نحو جنة قسم الفرو المرغوبة، فراحت تسبقهما دائماً ببضع خطوات وترجع إليهما بين الحين والآخر لو أنهما تباطأا للحظة عند نضد جذاب، مع القلق العصبي لغراب أب يشجع صغاره في أول محاولة للطيران."

أسرت إلينور إلى برترام نيت في لحظة كانت سوزان قد ابتعدت خلالها : "عيد ميلاد سوزان في الأربعاء القادم، وعيدي أنا يأتي قبل ذلك بيوم واحد، لذا فنحن نتطلع إلى شيء ما تهديه الواحدة منا للأخرى".

قال برترام: "آه، إذن تستطيعين الآن أن تنصحيني في هذه الناحية بالذات. أريد أن اقدم لسوزان هدية ما وليست لدي أدنى فكرة عما تريده."

قالت إلينور: " إنها مشكلة في هذا الخصوص. يبدو أن لديها كل ما يمكن للمرء أن يفكر فيه تلك الفتاة المحظوظة. المروحة شيء مفيد دائماً. ستذهب لحضور كثير من حفلات الرقص في دافوس في الشتاء القادم. أجل، أعتقد أن المروحة ستسعدها أكثر من أي شيء آخر. في العادة وبعد انقضاء عيدي ميلاد كلينا نقوم نحن الاثنتين بتفقد مجموعة الهدايا الخاصة بالشخص الآخر، ودائماً كنت أشعر بمدى تواضع هداياي. إنها تحصل على أشياء جميلة، وأنا لا أنال أبداً أي شيء يستحق العرض. كما ترى، ليس بين أقربائي أو الأشخاص الذين يقدمون لي الهدايا أي شخص غني، لذلك لا أتوقع منهم أي شيء عدا أن يقدموا شيئاً تافهاً كهدية. منذ عامين وعدني خالي، الذي تلقى إرثاً صغيراً، أن يقدم لي دثاراً من فرو الثعلب الفضي كهدية في عيد ميلادي. ولا أستطيع أن أشرح لك مدى الاستثارة التي شعرت بها، وكيف تصورت نفسي وأنا استعرضه أمام جميع أصدقائي وأعدائي. ثم توفيت زوجته في تلك اللحظة، وبالطبع، فإن ذلك الرجل المسكين ما كان يمكن أن أتوقع منه أن يفكر في هدايا عيد الميلاد في مثل ذلك الحين. وهو يعيش خارج البلاد

منذ ذلك الحين، ولم أنل الفرو الذي وعدني به حتى الآن. هل تعلم أني حتى هذا اليوم لا أجرؤ على النظر إلى فرو الثعلب الفضي في واجهة دكان أو من حول عنق امرأة ما، دون أن أشعر بأني على وشك أن أبكي. أعتقد أنه لو لم أكن قد وعدت بواحد مثله لما كنت سأشعر بذلك. انظر، هاهو نضد المراوح إلى يسارك. تستطيع أن تتسل بسهولة ضمن الزحام. اجلب لها مروحة جيدة بقدر ما تستطيع... إنها فتاة عزيزة جدا عليَّ."

قالت سوزان وهي تشق طريقها عبر عائق من المتسوقين: "مرحباً، ظننت أني أضعتكما. أين برترام؟"

قالت إلينور: " لقد انفصلت عنه منذ فترة طويلة. ظننت أنه كان في الأمام معك. لن نجده مجدداً في هذه الزحمة."

وقد كانت نبوءتها هذه صحيحة.

قالت سوزان بتجهم وهما تشقان طريقهما عبثاً عبر نصف دزينة من الأقسام: "لقد ضاع كل جهدنا وأفكارنا المسبقة."

قالت إلينور: " لا أستطيع التفكير في سبب عدم إمساكك إياه من ذراعه. كنت سأفعل ذلك لو كنت أعرفه من قبل. ولكني كنت قد تعرفت إليه للتو. أصبحت الساعة الرابعة تقريباً والأفضل أن نشرب بعض الشاي."

بعد أيام قليلة هاتفت سوزان إلينور.

"شكراً جزيلاً على إطار الصور. إنه بالضبط الشيء الذي كنت أريده. شكراً لك. هل تعرفين ما الذي قدمه لي ذلك الشخص المسمى نيت؟ تماماً الشيء الذي قلت إنه سيهديني إياه... مروحة بائسة. ماذا؟ أجل مروحة جيدة، ولكن..."

جاء صوت إلينور من الجهة الأخرى للهاتف: "عليك أن تأتي وتري ما الذي أهداني إياه."

"أنت! ولماذا عليه أن يهديك أي شيء؟"

وجاء الجواب كما يلي: "يبدو أن ابن عمك واحد من الأشخاص الأغنياء النادرين الذي يستمتعون بتقديم الهدايا الجيدة".

قالت سوزان في نفسها بعصبية وهي تعيد سماعة الهاتف إلى مكانها: "وأنا التي تساءلت عن السبب في أنه طلب مني عنوان سكنها."

لقد فسدت الصداقة بين الصديقتين الشابتين، أما فيما يتعلق بإلينور فقد نالت فرو الثعلب الفضي.

* * *

٢٧ – لويـز

قالت الليدي بينفورد الأرملة: "سيبرد الشاي تماماً، الأجدر بك أن تقرعي الجرس لطلب المزيد".

كانت الليدي سوزان بينفورد امرأة عجوزاً مليئة بالحيوية عبثت بمسألة الاعتلال المتخيل في صحتها معظم حياتها. وقد أعلن كلوفيس سانغريل على نحو يخلو من الاحترام أنها أصيبت بالبرد في حفل تتويج الملكة فيكتوريا ولم تشف منه بعد. أما أختها جين ثروبلستانس فكانت أصغر منها ببضع سنوات، ولكنها كانت تتميز بأنها أكثر نساء ميدلسكس شروداً في الذهن.

قالت بمرح وهي تقرع الجرس لتطلب الشاي: "لقد كنت بالفعل شديدة الذكاء عصر هذا اليوم وعلى نحو غير معتاد. لقد زرت جميع الناس الذين كنت أنوي زيارتهم، وأنجزت كل التسوق الذي انطلقت من أجله. بل حتى إنّي تذكرت أن أقيس وأقارن ذلك الثوب الحريري من أجلك في محلات هارودز، ولكني نسيت أن أجلب معي نموذج التفصيل، لذلك لم تكن هناك

فائدة من ذلك. أعتقد فعلاً أن هذا هو الأمر المهم الذي نسيته خلال فترة العصر كلها. إنجاز رائع بالنسبة إليّ، أليس كذلك؟"

سألتها أختها:" وما الذي فعلته بلويز؟ ألم تصطحبيها معك؟"

صاحت جين:" يا إلهي الرحيم! ما الذي فعلته حقاً بلويز؟ لا بدّ أنّي تركتها في مكان ما."

" ولكن أين؟"

" هذا هو الأمر. أين تركتها؟ لا أستطيع أن أتذكر إن كان آل كاريوود في البيت أو أني تركت لهم بطاقتي. إن كانوا في البيت فقد أكون تركت لويز عندهم لتلعب البريدج. سأذهب لأهتف للورد كاريوود وأعرف ما جرى."

استفسرت على الهاتف:" أهذا أنت يا لورد كاريوود؟ أنا جين ثروبلستانس. أريد أن أعرف : هل شاهدت لويز؟ "

" جاء الجواب: " لويز؟ لقد كتب علي القدر أن أراها ثلاث مرات. في المرة الأولى، كما عليّ أن أعترف، لم تعجبني كثيراً، ولكن الموسيقى تؤثر في المرء قليلاً. ومع ذلك، لا أظن أني أريد أن أراها مجدداً في الوقت الحاضر. هل كنت ستعرضين عليّ مقعداً في مقصورتك؟"

"لم أقصد الأوبرا المسماة لويز، بل ابنة أخي، لويز ثروبلستانس. ظننت أني قد أكون تركتها في منزلك."

" لقد تركت بطاقتك لنا عصر هذا اليوم، كما فهمت، ولكني لا أظن أنك تركت ابنة أخيك. كان من شأن الخادم أن يذكر ذلك بكل تأكيد لو أنك فعلته. هل هناك تقليد جديد بترك بنات الأخ لدى الناس إضافة إلى البطاقات؟ لا آمل ذلك. بعض هذه المنازل في ساحة بيركلي ليس فيها متسع لمثل هذه الأمور."

أعلنت جين، وهي تعود إلى شرب الشاي:" ليست عند آل كاريوود. والآن علي أن أفكر في الأمر، ربما تركتها عند نضد بائع الحرير في سيلفريدج. ربما قلت لها أن تنتظر هناك لحظة بينما مضيت لأنظر إلى قماش الحرير تحت إنارة أفضل، وقد أكون نسيتها ببساطة حين وجدت أني لم أحضر نماذج التفصيل معي. في مثل هذه الحال، ما تزال هي جالسة هناك. ما كانت لتتحرك ما لم تؤمر بذلك. لا تتحلى لويز بروح المبادرة".

صاحت الأرملة النبيلة: "قلت إنك حاولت مقارنة الحرير لدى هارودز".

"هل قلت ذلك؟ ربما كان ذلك لدى هارودز؟ لا أتذكر بالفعل. كان واحداً من تلك الأمكنة التي فيها الجميع لطفاء ومتعاطفون ومكرسون للخدمة بحيث يكره المرء أن يأخذ حتى بكرة قطن من مثل تلك البيئة السارة".

"أعتقد أنك قد أعدت لويز معك. لا أحب فكرة أن أن تكون قد تركت هناك بين الكثير من الناس الغرباء. افترضي أن شخصاً دون مبادئ قد دخل في حديث معها."

"مستحيل. لا تعرف لويز المحادثة. لم يسبق أن اكتشفت موضوعاً واحداً لديها أي شيء تقوله عنه سوى: (هل تظنين ذلك؟ أعتقد أنك على حق). في الواقع ظننت أن تحفظها بشأن سقوط وزارة ريبو[1] أمر مضحك، إذا ما أخذنا في الحسبان كم كانت أمها العزيزة تحب زيارة باريس. هذا الخبز بالزبدة تم تقطيعه إلى حد رقيق جداً. إنه يتفتت قبل أن يصل إلى فمك بوقت طويل. يشعر المرء أن هذا أمر غريب، أن يطبق فكيه على طعامه في الهواء، مثل سمكة ترويت تقفز لتصطاد ذبابة نوار".

قالت الأرملة: "أنا مندهشة بالأحرى من أنك تستطيعين الجلوس هنا وتتناولين الشاي بشهية بعد أن ضيعت ابنة أخيك المفضلة".

" تتكلمين وكأني ضيعتها في فناء الكنيسة بدلاً عن أكون قد نسيتها في مكان ما. أنا على ثقة من أني سأتذكر أين تركتها".

"أنت لم تزوري أي مكان من أماكن العبادة، أليس كذلك؟ لو تركتها تحلم في وستمينستر أبي أو كنيسة القديس بطرس أو

---

(١) ألكسندر ريبو (١٨٤٢-١٩٢٣) وزير خارجية ورئيس وزراء فرنسي للفترة (١٨٩٢-١٩١٧). (المترجم)

ساحة إيتون، دون أن تتمكني من إعطاء أي سبب مقبول لوجودها هناك، فسوف يتم القبض عليها بموجب قانون القطة والفأر وترسل إلى ريجينالد ماكينا."

قالت جين وهي تعض على قطعة مترنحة من الخبز بالزبدة في منتصف الطريق:

" سيكون ذلك أمراً مربكاً، فنحن لا نكاد نعرف "آل ماكينا"، وسوف يكون أمراً متعباً مهاتفة سكرتير خصوصي غير متعاطف، وإعطاء أوصاف لويز له والطلب إليه أن يرسلها في موعد العشاء. ولحسن الحظ، لم أذهب إلى أي مكان من أماكن العبادة، رغم أني اختلطت بموكب لجيش الإنقاذ.[١] وكان أمراً ممتعاً أن أكون على مقربة منهم، فهم مختلفون تماماً عما كانوا عليه في الثمانينات على ما أذكر. كانوا يتجولون بملابس مهملة وشعور شعثاء، بنوع من الغضب المبتسم من العالم، والآن أصبحوا أنيقين ومرحين ومزوقين بشكل مسرف، مثل حوض من زهور إبرة الراعي ولكن مع قناعات دينية. كانت لاورا كتلواي تتحدث عنهم في مصعد نفق شارع دوفر ذلك اليوم، وقالت إنهم يقومون بعمل صالح، وأن الخسارة كانت كبيرة لو

---

(١) هيئة دولية للعمل التبشيري والخيري تأسست في لندن عام ١٨٦٥ على يد ويليام بوث ثم انتشرت في أمريكا الشمالية وأستراليا والهند. (المترجم)

أنهم لم يوجدوا قط. قلت لها: (لو أنهم لم يوجدوا قط، لكان من شأن غرانفيل باركر أن يخترع شيئاً ما يبدو بالضبط مثلهم دون شك). ولو قلت أموراً كهذه بصوت مرتفع في مصعد نفق، لبدت دائماً كحكم معبر عنها بشكل بارع."

قالت الأرملة: "أظن أنّ عليك أن تفعلي شيئاً ما فيما يتعلق بلويز."

"أحاول أن أفكر فيما إذا كانت معي حين زرت آدا سبلفيكست. لقد استمتعت إلى حد ما هناك. كانت آدا تحاول كالعادة أن تحشر تلك المرأة الكريهة كورياتوفسكي في حلقي، مع أنها تعرف جيداً أني أكرهها، وفي لحظة من لحظات الغفلة قالت: (إنها تتخلى عن بيتها الحالي وستنتقل إلى شارع سيمور السفلي). قلت لها: (أستطيع القول إنها ستفعل لو أنها كانت قد بقيت هناك فترة طويلة بما يكفي). ولم تفهم آدا هذا إلا بعد ثلاث دقائق، ثم تصرفت دون لباقة. كلا، أنا على ثقة من أنني لم أترك لويز هناك."

قالت الليدي بينفورد: "لو استطعت أن تتذكري أين تركتها بالفعل، ستكون الحال أفضل من كل هذه التأكيدات السلبية. حتى الآن، كل ما نعرفه هو أنها ليست لدى آل كاريوود أو آدا سبلفيكست أو وستمينستر آبي."

قالت جين بتفاؤل: "هذا يضيق حلقة البحث قليلاً. أفضّل الآن أن أتخيل أنها كانت معي حين مضيت إلى محلات مورناي. أعرف أني ذهبت إلى محلات مورناي لأني أتذكر أني قابلت ذلك الشخص الممتع الذي لقبه مالكولم ولا أتذكر اسمه الأول، أنت تعرفين من أعني. هذه هي الميزة العظيمة للناس الذين لديهم أسماء أولى غير عادية، فأنت لا تحتاجين إلى محاولة تذكر اسمهم الأول. بالطبع أعرف شخصاً أو اثنين آخرين لهما لقب مالكولم، ولكنهما غير ممتعين. وقد أعطاني بطاقتين لحضور عرض (أمسيات الأحد السعيدة) في ساحة سلون. لقد تركتهما في محلات مورناي، ولكنه كان أمراً لطيفاً جداً منه أن يعطيني إياهما."

"هل تعتقدين أنك تركت لويز هناك؟" "يمكنني أن أهتف وأسأل. أوه، يا روبرت، قبل أن تأخذ أدوات الشاي أتمنى لو أنك تهتف إلى محلات مورناي، في شارع ريجنت، وأن تسأل إن كنت قد تركت هناك بطاقتي مسرح وابنة أخ واحدة في دكانهم بعد ظهر هذا اليوم."

سأل الخادم: "ابنة أخ يا سيدتي؟" "أجل، الآنسة لويز لم تعد إلى البيت معي، ولست واثقة أين تركتها."

" كانت الآنسة لويز في الطابق العلوي طوال فترة بعد الظهر يا سيدتي، وهي تقرأ لخادمة المطبخ الثانية المصابة بالألم

العصبي. وقد أخذت الشاي للآنسة لويز الساعة الخامسة إلا ربعاً، يا سيدتي. "

" بالطبع، كم أنا حمقاء. أتذكر الآن، لقد طلبت منها أن تقرا (الملكة الجنية) لإيما المسكينة، وأن تحاول أن تجعلها تنام. أطلب دائماً من شخص ما أن يقرأ لي (الملكة الجنية) حين أصاب بالألم العصبي، وهذا يجعلني أنام عادة. لا يبدو أن لويز نجحت في هذا الأمر، ولكن لا يمكن للمرء أن يقول إنها لم تحاول. أتوقع أنها بعد الساعة الأولى أو نحوه، فإنه من الأفضل أن تترك خادمة المطبخ لوحدها مع ألمها العصبي، ولكن لويز لن تتركها بالطبع حتى يطلب إليها أحد ما ذلك. على أي حال، هيا واهتف إلى محلات مورناي يا روبرت، واسأل إن كنت قد تركت بطاقتي مسرح هناك. باستثناء الثوب الحريري خاصتك يا سوزان، يبدو أن تينك البطاقتين هما الشيئان الوحيدان اللذين نسيتهما بعد ظهر هذا اليوم. أمر رائع تماماً بالنسبة إليّ."

* * *

٢٨- شاي

كلن دجيمز كوشات - برينكلي شاباً ذا قناعة راسخة بأنه سيتزوج في يوم من الأيام. حتى سن الرابعة والثلاثين لم يكن قد فعل أي شيء يبرر هذه القناعة. لقد أحب وأعجب بالكثير من النساء جماعياً بفتور دون أن يختار واحدة منهن بغرض الزواج خصيصاً، كما قد يعجب الأمر بجبال الألب دون أن يشعر برغبة في امتلاك إحدى قممها بالذات كملكية خاصة به. لقد أثارت قلة مبادرته في هذا الشأن بعض نفاد الصبر بين النساء العاطفيات من أسرته وأهله: فأمه وأخواته وعمته المقيمة في منزلهم واثنتان أو ثلاث من الصديقات الحميمات الوقورات كن ينظرن إلى أسلوبه البطيء في الاقتراب من الحالة الزوجية بالامتعاض الذي لم يكن يعوزه الإفصاح. أما أكثر مغازلاته براءة فكانت تراقب بالتوق المجهد الذي كانت تركز به مجموعة من كلاب الصيد غير المجربة على أخف الحركات التي يقوم بها كائن بشري يعتبر من

المحتمل على نحو معقول أنه قد يأخذها في نزهة. لا يمكن لأي شخص ذي روح شريفة أن يقاوم طويلاً مناشدة عدة أزواج من عيون كلاب تطلب الذهاب في نزهة. لم يكن دجيمز كوشات - برينكلي عنيداً أو لا مبالياً بما فيه الكفاية أمام التأثيرات المنزلية حتى يتجاهل الرغبة المعبّر عنها بكل ذلك الوضوح من قبل أسرته بأن عليه أن يعشق فتاة لطيفة تكون صالحة للزواج. حين غادر عمه "جولز" هذه الحياة وترك له ميراثاً صغيراً مريحاً، فقد بدا حقاً أن الشيء الصحيح الذي عليه فعله هو البدء بالبحث عن فتاة تشاركه فيه. كان الدافع وراء الاستكشاف قوة الإيحاء وثقل الرأي العام أكثر منه مبادرته الشخصية. فالأغلبية الغالبة من قريباته والصديقات الوقورات المذكورات سابقاً كانت قد اختارت له "جوان سبستابل" على أنها الشابة الأكثر ملاءمة له ضمن معارفه ليتقدم لخطبتها، وأصبح دجيمز معتاداً بالتدريج على فكرة أنه وجوان سيقطعان المراحل المقررة من التهاني واستلام الهدايا والفنادق النرويجية أو المتوسطية والحياة المنزلية أخيراً. وكان من الضروري طبعاً على أي حال أن يسأل السيدة عن رأيها في المسألة، فقد كانت الأسرة قد تصرفت ووجهت الغزل حتى الآن بمقدرة وحذر، ولكن طلب اليد للزواج يجب أن يكون عملاً فردياً.

سار كوشات - برينكلي عبر المنتزه نحو منزل آل سبستابل في حالة ذهنية من الرغبة المعتدلة بالإرضاء. ولأن الأمر يجب أن يتم، فقد أحس بالسعادة لأنه شعر بأنه سيضع حداً للأمر ويريح باله منه عصر ذلك اليوم. إن التقدم لخطبة فتاة، حتى لو كانت فتاة لطيفة شأن جوان، أمر مضجر، ولكن لا يمكن للمرء أن يقضي شهر العسل في "مينوركا" وحياة زوجية سعيدة لاحقة دون مثل هذا التمهيد. وقد تساءل عن ماهية هذه "المينوركا" حقاً كمكان لقضاء الوقت فيه. ففي ذهنه كانت تلك جزيرة تعيش نصف حالة حداد أبدي، ودجاجات مينوركا السوداء أو البيضاء تتجول في أنحائها. لن تكون كذلك حين يتفحصها المرء عن كثب. لقد حكى الناس الذين زاروا روسيا أنهم لا يتذكرون أنهم رأوا أي بطات من الصنف الموسكوفي هناك. إذاً من الممكن أنه لن تكون هناك طيور من صنف المينوركا على الجزيرة.

قاطعت تأملاته المتوسطية دقات ساعة تعلن أن الساعة قد انتصفت. إنها الرابعة والنصف. تجهم وجهه من الاستياء . سيصل إلى دارة سبستابل تماماً عند موعد شاي العصر. ستكون جوان جالسة إلى منضدة واطئة نشرت عليها مجموعة من الأباريق الفضية وأواني الكريما وفناجين الشاي الرقيقة المصنوعة من البورسلان، ومن ورائها سيرنّ صوتها بلطف

في سلسلة من الأسئلة الودودة الصغيرة عن الشاي: هل يريده خفيفاً أو ثقيلاً وكم من السكر والحليب والكريما يتوجب أن يضاف إليه، هذا إن كانت هذه مرغوباً فيها أم لا، وهكذا دواليك. " هل تريد قطعة واحدة ؟ لقد نسيت. أنت تحب الحليب مع الشاي، أليس كذلك؟ هل تريد المزيد من الماء الساخن إن كان شايك ثقيلاً جداً؟"

كان كوشات – برينكلي قد قرأ عن مثل هذه الأمور في عشرات من الروايات، وقد علمته مئات من التجارب الفعلية أنها أمور واقعية حقاً. فالآلاف من النساء، في ساعة العصر الكئيبة هذه، كن جالسات الآن خلف تلك الأواني الأنيقة من البورسلان والفضة وأصواتهن ترنّ بلطف في شلال من الأسئلة الصغيرة شديدة التدقيق في التفاصيل. كان كوشات – برينكلي يكره نظام شاي العصر كله. فحسب نظريته في الحياة على المرأة أن تتمدد على أريكة أو كنبة، وتتحدث بفتنة لا تقارن أو تفكر في أفكار غير منطوقة أو تبقى صامتة كشيء للفرجة، من خلف ستارة حريرية بينما يجلب وصيف نوبي(١) بصمت صينية عليها الفناجين والحلويات التي يتم تناولها بصمت، كمسألة بديهية، دون ثرثرة مطولة حول الكريما والسكر والماء الحار. فلو كانت روح المرء مسترقة فعلاً عند قدمي

---

(١) من النوبة في صعيد مصر. (المترجم)

معشوقته، كيف يمكن له أن يتكلم باتساق حول شاي مخفف! لم يكن قد سبق لكوشات - برينكلي أن عبّر عن آرائه حول هذا الموضوع أمام أمه. فقد اعتادت طوال حياتها أن ترن بصوتها بلطف عند موعد الشاي خلف الأواني الجميلة البورسلانية والفضية، ولو كان سيكلمها عن الأرائك والوصفاء النوبيين لكانت ستحثه على قضاء عطلة أسبوع على شاطئ البحر. والآن، بينما كان يعبر شبكة معقدة من الشوارع الصغيرة التي تؤدي على نحو غير مباشر إلى الشرفة الأنيقة من طراز "مايفير" التي كان متجهاً إليها، انتابه رعب من فكرة مواجهة جوان سبستابل جالسة إلى منضدة الشاي خاصتها. وقد خطر له فجأة مهرب مؤقت: فعلى أحد طوابق منزل صغير ضيق في النهاية الأكثر ضجيجاً من "شارع إسكويمولت" كانت تسكن "رودا إلام"، وهي ابنة عم بعيدة له تتعيش من صنع القبعات من مواد نفيسة. وكانت القبعات تبدو وكأنها استوردت فعلاً من باريس، ولكن الشيكات التي كانت تحصل عليها لقاء قبعاتها لم تكن تبدو وكأنها ذاهبة إلى باريس. وعلى أي حال، بدا على "رودا" أنها تجد الحياة مسلية وأنها تقضي أوقاتاً طيبة رغم ظروفها المادية الصعبة. قرر كوشات - برينكلي أن يصعد إلى طابقها ويؤجل نصف ساعة أو نحوها العمل الهام الذي كان عليه أداؤه. وبتأخيره لزيارته كان سينجح في الوصول إلى دارة سبستابل بعد أن يكون آخر أثر من أدوات البورسلان الأنيقة قد اختفى.

رحبت به "رودا" في غرفة بدت وكأنها تؤدي واجباتها كورشة عمل وغرفة جلوس ومطبخ في آن معاً، ولكنها نظيفة ومريحة إلى حد رائع أيضاً.

صرحت له: " أتناول وجبة من وجبات النزهة. هناك كافيار في ذلك المرطبان عند مرفقك. ابدأ بتلك القطعة من الخبز الأسمر مع الزبدة بينما أقطع المزيد منه. جد لنفسك فنجاناً. إبريق الشاي خلفك. والآن احك لي عن مئات الأشياء."

لم تلمح إلى الطعام بعد ذلك، بل راحت تتكلم على نحو مسلّ بمهارة فائقة وتقدم الفلفل الأحمر وشرائح الليمون، بينما كان من شأن نساء كثيرات أن يقدمن الأسباب ويعبرن عن الندم على عدم توفرهما. وجد كوشات – برينكلي نفسه يستمتع بوجبة شاي دون أن يضطر إلى الإجابة على أسئلة كثيرة كما قد يكون من شأن وزير الزراعة خلال تفشي طاعون البقر.

قالت رودا فجأة: " والآن قل لي عن سبب زيارتك لي، أنت لا تثير فضولي فحسب بل حتى غرائزي التجارية. آمل أن تكون حضرت فيما يخص القبعات. لقد سمعت أنك حصلت على ميراث قبل فترة، وبالطبع، فقد خطر لي أنه سيكون أمراً جميلاً ومرغوباً أن تحتفل بالمناسبة بشراء قبعات ثمينة لكل أخواتك. ربما لم يقلن شيئاً حول الموضوع، ولكني أشعر بالثقة أن الفكرة

نفسها قد خطرت لهن. طبعاً، مع اقتراب مناسبة 'غودوود' فأنا مشغولة بالأحرى الآن، ولكن في مهنتنا نحن معتادون على ذلك، فنحن نعيش في سلسلة من فورات العمل- مثل النبي موسى وهو طفل."

قال زائرها: " لم أحضر لأجل القبعات. في الواقع لا أظن أني أتيت لأي سبب كان. كنت ماراً بالقرب من هنا وفكرت في زيارتك ومشاهدتك. وبما أني أجلس هنا وأحادثك، على أي حال، فقد خطرت لي فكرة هامة. إذا نسيت غودوود لحظة وأصغيت إليّ، فسأقول لك الفكرة."

بعد أربعين دقيقة عاد دجيمز كوشات- برينكلي إلى حضن أسرته حاملاً خبراً هاماً.

أعلن قائلاً: " لقد خطبت فتاة".

وهنا اندلعت ثورة من التهاني وإطراء الذات.

" آه، لقد عرفنا! رأينا ذلك قادماً! لقد تنبأنا به منذ أسابيع!"

قال كوشات – برينكلي: " أراهن أنكن لم تفعلن. لو قال لي أي شخص على الغداء اليوم إني كنت سأطلب يد 'رودا إلام'، وأنها كانت ستقبل ذلك، لكنت سأضحك من تلك الفكرة."

عوضت الفجاءة الرومانسية للمسألة نوعاً ما نساء أسرة دجيمز عن الإلغاء عديم الشفقة لكل جهودهن المتأنية ودبلوماسيتهن

الماهرة. كان أمراً شاقاً بالأحرى أن تضطر النسوة إلى إعادة توجيه حماستهن خلال لحظة واحدة من جوان سبستابل إلى رودا إلام. ولكن، وعلى أي حال، كانت المسألة مسألة زوجة دجيمز، وكان عليهن أن يأخذن ذوقه في الاعتبار.

في عصر يوم من أيام ايلول من العام نفسه، وبعد انتهاء شهر العسل في مينوركا، دخل كوشات – برينكلي إلى غرفة الاستقبال في منزله الجديد في ساحة غرانتشستر. كانت رودا قد جلست إلى منضدة واطئة، خلف طقم من أواني البورسلان الأنيقة والفضة اللامعة. وكان هناك رنين لطيف في صوتها وهي تقدم إليه فنجان شاي :

" تحبه أخف من ذلك، أليس كذلك؟ هل أضع المزيد من الماء الحار؟ كلا؟"

* * *

الفهرس

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م
عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة

آفــاق ثقــافيــة

يضم هذا الكتاب ترجمة ثمانٍ وعشرين قصة من قصص هكتور هيو مونرو المشهور باسمه الأدبي (ساكي) والذي ولد في عام ١٨٧٠ في بورما، وتتميز قصصه القصيرة الرائعة بإيجازها وبسواد الكوميديا التي فيها. أما لقبه ساكي فتدعي أخته أنه اختاره من كتاب «رباعيات عمر الخيام» الذي ترجمه فتزجرالد، ولكن ساقي الرباعيات، ناهيك عن تجواله بين رواد الحانة، يبدو وكأنه لا شيء مشترك لديه مع هكتور هيو مونرو، ويذهب صاحب مقدمة هذه الروائع القصصية إلى أنّ كلمة «ساكي» هي اسم لنوع من السعادين... وفي الموسوعة البريطانية فإن الساكي يوصف على أنه سعدان جنوب أمريكي يتميز بذيل طويل كثيف الشعر، كما أنه حيوان رقيق جداً وهو عادة صامت. كان مونرو حيواناً رقيقاً جداً أيضاً.

تقدم اختيارات الأسدي من قصص ساكي مجموعة متخيرة بدقة، يمكن للقارئ أن يطلع بها على عالم ساكي الخيالي الممتع الذي ينتصر فيه الشر المبدع على الغرور، إن قصص ساكي كما يقول توم شارب صاحب المقدمة إلى هذه الاختيارات التي أحسن الأستاذ الأسدي ترجمتها: «هي على الأغلب نكات عملية مروعة. ولو كان هذا كل شيء، لكان فيه ما يكفي، ولكن هناك أكثر مما هو كوميديا بسيطة. إن ملاحظاته عن الناس والسلوك دقيقة، كما أن ظرفه من النوع اللاذع، لذلك فإن القصص، منذ بداياتها الفجة، تتحول إلى نقد اجتماعي كما أنها تروى بأسلوب وإيجاز يفتتاننا ويجعلنا نقبل معظم النتائج غير المحتملة. ابدأ بقراءة قصة لساكي ولسوف تنهيها. وإن انتهيت من قصة سيكون عليك أن تبدأ بأخرى، وبعد أن تنتهي من قراءتها كلها فلن تنساها قط. إنها تتبقى كنوع من الإدمان لأنها أكثر بكثير من مجرد كونها مثيرة للضحك. إنه الضحك الممزوج بحس بالوحشية، والسخرية المصقولة الممزوجة بمبدأ وحدة الوجود، والإنكار الكامل للمبادئ الأخلاقية الممزوج بالمثالية».

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
٢٠١٢م

السعر (٥٠) ل.س